PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

Jaza'iri

الجزء الاول من كتاب

الإسلام والاعمال

في

مسلك سائق السعادة

تأليف

صاحب « الفاروق » سابقا
ومدير مدرسة الشبيبة الاسلامية بالجزائر

١٣٤٦ ـ ١٩٢٨

(Arab)
BP187
.T5J39
juz' 1

(RECAP)

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 014553612

بسم الله الرحمن الرحيم

« فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه »
« أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب »
(قرآن كريم)

« من كان يومن بالله واليوم الاخر فليقل خيرا أو ليصمت »
(حديث شريف)

«سائق السعادة يسوق اقواما إلى هذه الحضرة والصارف الالهي يصرف اناسا عنها» (التجاني)

﴿ ليس سلوك طريقة التصوف واجب على كل مسلم وانما هو ضروري لكل مؤمن يخشى هول المعاد . ولهذا ابتليت هذه الطائفة بأن تكون سخرية بين العباد . وأوذيت كما أوذي صفوة الخلق من النبيين والمرسلين حتى يوافيهم الحق وهم به قائمون ﴾
(مؤلف الابداء والاعادة)

«اخذ علينا العهود ان نجيب عن
ائمة الاسلام من العلماء والصوفية
جهدنا ولا نصغى قط لقول من
طعن فيهم لعلمنا بانه ما طعن
فيهم إلا وهو قاصر عن معرفة
مداركهم ثم ان الراد عليهم
لابد ان يطفا نوره ويعدم النفع
بمؤلفاته كلها لسوء ادبه مع من
جعلهم الله قدوة لعباده إلى يوم
القيامة» [الشعراني]

إهداء الكتاب

كما اهديت لاصل « سائق السعادة » اهدي الفرع « لابداء والاعادة » الى حضرة والدي الروحاني وموقظ شعوري النفساني بقية السلف الصالح سيدي ومولاي الحاج محمد بن التاوتي الاغواطي منشأ وقرارا . رعاه الله وحفظه نبراسا لارشاد المخلصين ، آمين

المؤلف

فهرست

﴿ الجزء الاول من كتاب الابتداء والاعادة ﴾
﴿ في مسلك سائق السعادة ﴾

٢ فتح الباب بمنظوم اللباب (قصيدة
٤ خطبة الكتاب
٥ المدخل الى الجزء الاول
١٠ الكلام على بسم الله الرحمن الرحيم
١٧ الحديث المؤكد بالعين
٢٠ الكلام على صلاة الفاتح
٢٤ السر الاعظم
٣٥ النقد على الاسم والسر الاعظمين
٤١ إبداء قصور العقل الانساني
٤٩ كيف يكون الاستدلال بالكتاب الخ
٥٨ دلائل الكتاب والسنة
٧٢ ذوق المكاشفة
٧٦ شهادة فيلسوف ومؤرخ
٨٠ اعادة الكلام على السر الاعظم
٨٦ هداية الهادي الى الصراط المستقيم
٩١ ذاتية الرسول في القرآن
٩٦ ذاتية الرسول في السنة
١١٢ منزع الذات المحمدية
١٢٠ الاعتراف للصوفية الخ
١٢٢ مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم
١٢٥ الحقيقة المحمدية
١٢٦ معنى وجود لا واو الخ
١٢٨ اشراف الرسول على العوالم الخ
١٣٠ محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم
١٣٢ حضرة الملاحظة
١٣٦ الاستغراق في المقدار العظم
١٤٠ الحد الفاصل الخ
١٤٢ علم التصوف
١٤٦ اما الكلام في دقائق التصوف
١٤٩ نظرة اجمالية
١٥٢ مقاصد الفروع نحو الوصول
١٥٦ الطرق والحدود بين الشريعة الخ
١٥٦ المشيخة والتقديم
١٥٩ المكاشفة
١٦٣ الاعادة على رؤية الرسول يقظة
١٦٥ الذكر والتواجد
١٦٧ السبحة
١٧٠ تصرف الولي
١٧١ ترتيب الذكر الخ
١٧٢ التوسل والوسيلة
١٧٣ زيارة الاولياء
١٧٤ القبب والضرائح والزوايا
١٧٥ السياسة والرئاسة
١٧٦ القول بوحدة الوجود
١٧٨ الاعتماد على الانتساب الخ
١٨٠ الدوران والغوث والاقطاب
١٨١ التصوف والباطنية
١٨٤ المشيخة معدومة
١٨٥ التقاطع والتنافر
١٨٧ خرافات العامة

١٨٨ هل الطرق غير التصوف
١٩٢ الواصل التجاني
٢٠٦ مناظرا تعرف الخ
٢١٤ اخماد النار المشتعلة في «المنار»
٢١٨ صلاة تكفير الهوائت
٢٢٠ مسألة زيارة الاولياء
٢٢٠ فضل الشيخ التجاني
٢٢١ المدد الروحاني
٢٢٢ شطط صاحب المنار
٢٢٩ دعوة صاحب المنار الى التقليد
٢٣١ كيف يفهم الميت بعد مائة عام الخ
٢٣٥ كلمة عن فضل الله المطلق
٢٣٥ استقامة الاسقم
٢٣٨ اكاذيب «المنار» انجاني
٢٤١ منازل التسليم الخ
٢٤٢ الكلام القديم
٢٤٢ الوحي
٢٤٣ القرآن
٢٤٤ كلام الله مع البشر
٢٤٦ كيف كانت صلاة الفاتح الخ
٢٤٧ الحاصل
٢٤٨ ميزان الموافقة
٢٤٨ وجوه تشبيه صلاة الفاتح الخ
٢٤٩ سعة فضل الله في صلاة الفاتح

﴿ الجـــزء الاول من كتـــاب ﴾

الابتهاج والانعاظ

﴿ في ﴾

مسلك سائق السعادة

﴿ تأليف العبـــد الفـــاني خـــديم اعتـــاب النجـــانى ﴾

« سائق السعادة يسوق أقواما الى هذه الحضرة والصارف الالهي يصرف أناسا عنها » ﴿ حجة الله الكبرى أحمد النجاني ﴾ رضى الله عنه

« استحقر من لا يحسد ولا يقذف . واستصغر من بالكفر والضلال لا يعرف . فأي » « داع اكمل واعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وقد قالوا انه مجنون من » « المجانين . واي كلام اجل واصدق من كلام رب العالمين وقد قالوا انـــه اساطير » « الاولين . واياك ان تشتغل بخصامهم . وتطمع في إفحامهم . فتطمع فى غير مطمع » « وتصوت فى غير مسمع » ﴿ حجة الاسلام محمد الغزالي ﴾ رضى الله عنه

﴿ الطبعـــة الاولـــى ﴾
﴿ كافة حقوق الطبع محفوظة ﴾

﴿ طبع بالمطبعة التجارية لصاحبهـــا سولال بالجزائـــر عام ١٣٤٤ هجريـــة ﴾

﴿ اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ﴾
﴿ ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله ﴾
﴿ حق قدره ومقداره العظيم ﴾

فتح الباب بمنظوم اللباب

دع رتبة الجمع واقصد جامعي الرتب * واذكر لهم انني في الكتب ذو دأب
واشرح لهم حيرتي الكبرى التي سلبت * مني الشعور وساقتني إلى العطب
حيث الظنون وحيث الريب محتفل * في موطن من ظلام الجهل في حجب
ما بين اقوام سوء لا خلاق لهم * يقضون اوقاتهم في اللهو واللعب
وفي اصطدام شنيع مهلك وهم * هم بلبس العيوب الجم في صبب
الله أكبركم أمسيت في قلق * من سوء منزعهم للخبث والكذب
فالغي فيهم كمال يفخرون به * مذ زاد محفلهم بالعجب في عجبي
أقضي سويعات عمري بين منتظر * لليسر منقطع لله مرتقب
والقلب نحو انفراج الهول في شغل * حيث المعيشة لم ترغد ولم تطب
سبحان ربي لقد أوشكت من زللي * أن لا أرى مثلهم رشدا لذي رهب
لولا عناية اهل الفضل في قدر * قد انقذتني من الاوجال والرعب
لولا عنايتهم شدت على سببي * حبلا من الفضل لا حبلا من السبب
وهيأت به « سائق السعادة » لي * يسوقني مسرعا لارفع الرتب
فسرت صحبته والناس صحبته من * قد صار يصرفهم للتيه والتعب
حتى وصلنا لساحل الهداية في * بحر الرجاء وظني فيه لم يخب
وجدت عندئذ فلك النجاة على * عمودها عالم « ابن سالم » العرب
ألواحها ذكر رب الناس منفردا * بعد الصباح وبعد العصر في دأب
مستغفرا مائة مصليا بكذا * مهللا مثلها بالعزم والادب

شراعها ذكر رب الكون في ملإ * وظيفة زانها حضور خير نبي
ودفة السير منها ذكر هيللة * بيوم جمعة بعد العصر فاقترب
والاذن بالسند الصحيح مبعث ر * يح السير في لجة للسير لم تطب
ما بين عاصفة يمنى وزوبعة * يسرى وقلب من الاهواء مضطرب
وجهت وجهي وسائقي يحذرني * من ميل قصدي ففيه سوء منقلبي
لاسيما الالتفات نحو غير هدى * هذا التجاني من ذكر ومن أرب
فصار من واجبي ان لا أزور سوى * شيخي وليا دنى او طال في الرتب
مع انسلاخي له من كل رابطة * ومسلك ينهك الطلاب بالتعب
في ورده مستقلا لا شريك له * تأكد السير فاخش الله ان تترب
قد ضل من مزج الاوراد جيث غدا * في ظلة الاضطراب واهي الحسب
مثل احترام عموم الصالحين فذا * شرط أكيد كحب الكتم في النسب
والبغض فيه وهجر المبغضين له * والحب فيه لذي حب ومنتسب
والسعي بالشرع في قول وفي عمل * والاخذ بالحزم في الاشباه والريب
والذكر للورد دوما لا انقطاع له * حتى الممات بحكم النذر في القرب
والبر بالوالدين قد يشاكله * طوع المقدم في سعي لمحتسب
حتى الاذاية للاخوان عين إذا * ية الرسول ارتمت بالويل والرعب
والامن من مكر رب الناس عاصفة * لواحة منه بالتنكيل والغضب

* * *

لما قطعنا بحورا من مهالكها * ما قد ذكرت بدا لي الفوز بالطلب
حيث ارتست بمقام الشكر مقصدنا * سفينة لم تذق مرارة التعب
وقيل ذا حظك الاسنى فليس سوى * مرادنا أنت فاسجد فيه واقترب
وادخل لنيل المنى والفتح فيك سنا * ء للكرمات الحسان اللامع الشهب
فاستبشر القلب لما لاح مأمله * مطهر الروح بالاسرار والنخب
وافتر ثغر الهدى عن فضل رحمته * يبدي سرورا سناء الفضل في حبب
والسعد اضحى على الاكوان طالعه * يلقي الاشعة عن زهو وعن طرب
وفي العلى فرح الاملاك منتصب * للروح يدريه من بالروح في حجب
واصبح العبد ألسنا مرددة * شكرا لاله على ما فل من كرب
حيث ارتقى مرتقى لم يعله بشر * من أجل أحمد غوث العجم والعرب
اعني التجاني ختم الكون قدوتنا * ومن بأسنى مقامات الكمال حبي
فهو الممد الجليل الفرد في خلق * من معدن الكتم صاف طاهر النسب
نبراس اهل ولاء الحق قد نشرت * أعلام سلطته في السهل والحدب

سام بلا رهبة من عز منصبه * سر سرى في الورى مع كل منتصب
آياته محكمات مثل همته * يعفو ويعلو عن الاطغان والريب
في رشده حكمة دقت لوجهته * تغضي مع الحلم أو تقضي مع الادب
دلت على أنه ختم بعزمته * يجري الافاضة للقاصي وللسبب
أقسمت بالبرزخ المختوم إن له * قدرا سمى شرفا أسداه خير نبي
قدرا فنى دونه عجزا بحسرته * عزم الفحول فلم يلحق ولم يصب
ياجاهلا حق قدر الختم قدوتنا * سلم تفز واقترب جاث على الركب
لا تنكر الفضل بل سلم لنسبته * هذا الوصول وذاك القطع فانتخب
أم هل ترى موعد المختار سيدنا * يرمى على صدقه بالكذب والكذب
لما أنال بالرسول الختم رتبته * جاءت كما قال فوق سائر الرتب
وزاده رتب الانجال عالية * ممتازة دون سعي الجد والسبب
أكرم بهم من بحور لا حدود لها * تبدو لمكتشف يغدو كمحتجب
لاسيما شهمهم في الوقت سيدنا * «محمد الكبير» نجل خير أب
فإنه الملجأ الاقوى لقاصده * من أمه معدما لله لم يخب
وأنه العروة الوثقى لماسكه * لم تنفصم دائما غوثا لذي الكرب
مرقاه أسمى المعاني بل وأغمضها * أنى ترى غامضا يدريه عقل غبي
إن يسترب جاهل قولي فما درر لا * صداق معلومة للعمي باللقب
والناس أشياع من يبدي محامده * سعيا لهضم الحجا باللهو واللعب
او شائلا سبحة للغمر مصيدة * لا يرعوي باطنا للشرع والكتب
أعماهم الظاهر الاعمى فهم أبدا * عن رؤية الباطن اللماع في حجب
آل التجاني الكرام الغر حبكمو * فرض علينا نراه افضل القرب
لم يحل لي قط نظم مدح غيركمو * بل لم أقف موقف التجار في الادب
ما رمت من حلبة الافكار مدحكمو * إلا أتت تنظم العقيان في خبب
والان في حبكم أوقفت من قلمي * حسناه لله في فوج من العرب
ارجو رضاكم بلا حد فذرته * اغلى من التاج مع عرش من الذهب

نحمد الله تعالى بمحامده الخاصة والعامة البارزة من حضرة ذاته على ذاته، في ديمومية الوهيته وابدية احكامه وارادته، ونشكره الشكر الاحاطي الجامع المتضاعف ابدا مع ما في علمه القديم جل وعلا وما دق وما جل لا انفكاك لعمله وأدائه، ونستمنحه تعالى تمام النيابة عنا في إفاضة صلاته الطيبة الزكية الازلية الابدية وسلامه العاطر المتوالي على رسوله ومصطفاه وواسطة افاضة إمداداته، صلاة وسلاما تتم بهما حقيقة الرضا علينا من عينية

الذات العلية حتى لا نخشى وبالا عند دعوة الحشر ومناداته . وعلى آله وصحابته الكرام ومن تبعهم بإحسان في القيام بسننه وأخلاقه وعاداته

﴿ أما بعد ﴾ فهذا كتاب لخدمة المسلك المحمدي ألفته ، ولتوضيح معنى النسبة إليه قيدته ، وجزأته إلى ثمانية اجزاء فصلت فيها ما من الدقائق خصته ، وسميته ﴿ الابداء والاعادة * في مسالك سائق السعادة ﴾ . ومادته البيان الوافي لما قد أوجزته في رسالة « سائق السعادة » الجامعة لخلاصة شروط الطريقة المحمدية الاحمدية التجانية ، وما فيها من المواهب والاسرار السامية السنية ، وقد سلكت في هذا الكتاب مسلكا وسطا من الاسهاب ، متباعدا عن النقول جهد المستطاع إلا ما لا محيد عنه من اقوال المختم رضي الله عنه ودلائل السنة والكتاب ، ولا يرتاب أحد تلقاه بيمين الانصاف فيما أبديه حتى يتحقق حكم الله فيه ، فإن وجد مستندي مرتبطا برجال الحقائق فلا يتهمني بالتقليد الاعمى فإني في ذلك أسير اليقين ، المراقب لاحقية ما يقولون عن كثب وعن ذوق أمين . فإن كذبت وأوذيت في ذلك فلي إسوة بهم حيث كذبوا وأوذوا في غير ما زمان ، وان روعيت في ذمة التبليغ فالفضل لهم بسابق الاحسان ، وما ظنوني في القلوب الطاهرة من ران الضلال ، إلا أنها محل الاذعان لهداة الملك المتعال . ما عدى ذوي التعنت والغرور ، وأولئك شرهم على أنفسهم يدور . وان كانوا الاكثر لقوله تعالى وقليل من عبادي الشكور .

والله المسؤول أن يحقق نتائج مواهبه وأسراره . وينفع به كل من تلقاه بسلامة ذواقه وأفكاره . فهو سبحانه ولي التوفيق المستعان في البدء والختام

الجزائر في غرة ربيع الانور عام ١٣٤٤

عمر بن قدور الجزائري

المدخل إلى الجزء الاول

﴿ المنظومة السينية لعلامة افريقيا الشمالية سيدي ابراهيم الرياحي (١) رضي الله ﴾
﴿ عنه بتشطير صاحب كتاب « الابداء والاعادة » ﴾

﴿ ﴾

صاح اركب العزم لا تخلد إلى الياس * وارج النجاني ولذ في الناس بالراس
واهجر أخا اللوم ذا زيغ ووسواس * واصحب أخا الحزم ذا جد إلى فاس
واشرح متون صبابتي كبيرتها * وانشر عبير الجوى من طي أنفاسي
والثم لدى الختم أعتابا به شرفت * وحي حيا بهم قد كان إينانسي
واقرا السلام على تلك المعاهد من * صب غدا أنسه في قبضة الباس
واحشر لهم أصدق الانباء عن دنف * حيران تلفظه ناس إلى ناس
وقل لهم ذلك المضنى وحقكم * ما انفك ذا سكرة فيكم وذا كاس
قد عمه منكم الاحسان فهو لكم * باق على العهد ذو وجد بكم راسي
لا يبصر الحسن إلّا في وجوهكم ا * لتي بها قد أضاء الكون للناس
وما صبا قلبه يوما لغيركم * وليس يجنح في حب لوسواس
وعج الى حيث من عيني لفرقته * قد مجت النوم من آلام احساسي
ومن جفوني غدت من حبه بدم * تبكي وتزفر بالاشواق انفاسي
ومن انا فيه حيران يقلبني * بطش الصبابة في سجن بحراس
ومن رمى مهجتي حبا فأشغلها * دهري بأنواع تهيام وأجناس
ومن فؤادي به مضنى يحملني * أثقال شوق بلا عون على الراس
ومن به قام في صدري وضيقته * ما بعضه دك منه الشامخ الراسي
ذاك الذي نال ما لم يحوه بشر * منذ الخليقة من راج وذي يأس
ذاك الذي ضم بحرا لا محيط له * من العطايا ولم يعرف بمقياس
غوث البرايا أبو العباس أحمد من * حاز العلى فوق أقطاب وأجراس
امام أغواث أهل الله قاطبة * معناه أعظم أن يحلى بقرطاس
روح الوجود وقطب الكون مركزه * وعين ابداعه للرطب والقاسي
شمس الهدى بل منار الرشد مظهره * ومده سره الساري الى الناس

(١) انظر تعطير النواحي طبع تونس عام ١٣٢٢ و راجع كشف الحجاب طبع فاس عام ١٣٤٠ الصحيفة ١٤٤

رمز الوجود وسر الحق طلسمه * وغيث ربح همى من بعد افلاس
ينبوع صدق النهى مبناه مغرسه * مكنونه كنزه المخفي بحراس
حقيقة الكون معنى السر مجمعه * ميزانه كيله الوافي بقسطاس
نور الحقائق بحر العلم برزخه * فيض كالله بلا لبس ولا باس
أعني التجاني تاج العارفين ومن * تلفيه عند اشتداد البأس والياس
ختم الخصوص ومكتوم الفحول ومن * بسابغ الفضل من عرفانه كاسي
ومن محبته ديني وخلته * فهمي وذهني وإدراكي وإحساسي
وذكره قوتي ومن مودته * عقلي وروحي وجلاسي وأحداسي
ومسمعي وفؤادي وانبساط يدي * وهمتي وحياتي قيد أنفاسي
وجنتي وانتسابي في علا شرفي * ومقلتي ولساني بين جلاسي
ياسامعي إن تكن للسر ذا طمإ * فاستسق أحمد مزن السر للناس
وإن تكن كمور السر ذا طلب * فجئ لاحمد ساقي السر بالكاس
رد وارده العذب واستنشق روائحه * مثلي فمنه صفا كاسي وإيناسي
واسلك إلى روضه الزاهي ببهجته * تظفر بأعطار ذاك الورد والآس
واستعمل الجد في تحصيل واجبه * واحببه فردا ولا تشرك بوسواس
واسلك طريقته المثلى بهمته * إن لم تكن في بساط القرب ذاياس
واهرع إليه إذا ما كنت ذا ظمإ * يرويك من حوضه الفياض بالطاس
واعمل بسنته والزم محجته * واسرع إلى الله مشاة على الراس
وارض فقد لاح للاسعاد طالعه * من ورد أحمد ورد اللين للقاسي
واشكر إذا كنت بالاسعاد مغتبطا * وقم ولا تك للاسعاد بالناسي
واخلع ظلاما على قلب منعت به * فهم الحقائق من ران به راسي
وابحث بانصاف ذوق حولها فعسى * أن تستضيء إلى المعنى بنبراس
وما ظنونك بالورد الذي نظمت * عين الكمالات هل يعزى لاحداس
وما تظن ببنيان الذي رفعت * يد النبوة هل يبنى بلا ساس
وما تظن بمنهاج لسالكه * فضل عظيم قصى عن كل مقياس
أكرم بورد سمى قدرا لصاحبه * أمن من اهوال نيران وأرماس
يارب أدعوك بالاسما وأعظمها * قدرا وبالذكر في سر وإحساس
بالمصطفى فاتح الاكوان خاتمها * وأعظم الرسل ذي الاحسان والباس
وحمزة وعلي وابنه حسن * وجعفر ثم صهر في الحيا راس
باكمل في الغار والفاروق صاحبه * مع الحسين وزهراء وعباس
اجعل قلادة جيدي في أصابعه * حتى أرى سره سري ونبراسي
وانشر علي به منه الرضى أبدا * وارحم جوى قلبي المضنى به القاسي

وابعث له عند سمع النظم مرجمة * ترضيه عني وعن نظمي وجلاسي
واملأ فوادي فيوضا منه فائضة * تنفي علي شقاواتي وافلاسي
وعم مثواه تسليما فليس سوى * معناه تسليمك الجاري بأنفاسي
وامنحه تسليمك الذاتي فليس سوى * تسليم ذاتك كفو القطب في الناس

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب * في طي الاحكام الالهية أسرار بديعة تدق عن التعبير ، فإلى أي السبيلين زفت العبد قد تبلوه بالتعريف او بالتنكير. لقد كنت مثل كثير انجذب إلى المحسوسات والحق انطوى عني تحت قوله تعالى « قل الروح من امر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، فتقليل علم المحسوس قادني إلى البحث بغرام ، وحب الحقائق هزني إلى التفتيش باهتمام . لقد أبصرت الناس في فوضى من مساوي الاخلاق وفي شقاق بعيد مع الذكر الحكيم . فقلت رحماك ربي إن قبل الخلق بهذه الفتنة الظلمانية فما هو وجه الحق فيها وأنت نور السماوات والارض ؟. لقد تلوت صحف التاريخ ودرست علوم النشر والآراء والفنون الطبيعية والمذاهب الاجتماعية والاعتقادية فلم يزدني ذلك إلا إعظاما لشأن الربوبية حيث وجدت الانسان كما قال تعالى « إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » و بارتياع شديد تلوت بعد التفكير الطويل في طغيان هذا الانسان الضعيف . واستغفاته العنيف . قوله جل من قائل : « إن إلى ربك الرجعى » ، حيث تمحض الانذار الاخير . وتجلت الانشودة الوحيدة. منها المفر. وإليها الوزر . ولكن ما بين ذلك خرط القتاد . في ظلمة لا دليل بها ولا هاد. وبفضل من الله انتبهت إلى سراجه الوقاد الذي أقامه في كونه . داعيا إليه باذنه. وهو رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام. وعلمت أن كتابه المبين وسنته الواضحة قيمان معينان على البلوغ إلى السعادة الابدية. ولكن الناس عنهما معرضون . و بالاعراض عنهما أعرضوا عن أربابهما وميزوهم بالابتداع والمخالفة . فصحت العبارة عن كون الناظر إلى ذي العود الدقيق بعينه لا يبصر الخشبة التي ارتكزت ببصر نفسه . ومثل هؤلاء كنت . حيث كان اشتغالنا باختصار الاعمار . والانكار على الصوفية لما يتراآى لنا من تمسك غالبهم بالقشور من الاعتقادات والمعاملات . ولذا تأخرت عن فريقهم لاول مرة بقصد البحث والنظر . ولكني تبينت بعد ذلك أن ما عليه غالبهم عارض شخصي لا يؤبه به في الحكم والاستدلال . وانما مدار الحق على اللب الكامن في بواطن بعض الرجال. لذلك لما أتيح لي الاغتراب وصفا الجو للعمل عن انصاف وحرية ضمير وجدت لب الدين الحقيقي عند السادة الصوفية الحقيقيين . وانما كان على بصيرتي حجاب كثيف من الغرور مزقه حسن الذوق المكتسب بوسيلة الانصاف والتحليل الصناعي لتصاريف الاخلاق حيث

تسنى لي أن أضيف ما هو من ضلالات الاشخاص للاشخاص وما هو حق للحق. ومن حسن حظي أن الله تعالى أضافني إلى سميدع جليل. وعارف نبيل. ومرب الى ربه متبتل. وهو حضرة والدي الروحاني. ومربي شعوري الايماني. سيدي ومولاي الحاج محمد بن التاوتي حفظه الله لنا ذخرا. وأجزل له الجزاء دنيا وأخرى. فلقد وجدته على بينة من صدق القصد الى الله تعالى مستترا بظاهر البشرية مقيما الميزان الشريعة سالكا سبيل الحقيقة. فاستنطقت على يده موارد الانابة. وتناولت بواسطته كأس ذوق جديد صرت به فهم معاني الايات القرآنية بصفة لا تكيف حتى ان كل آية لتكاد تمزق فؤادي بعضب يماني فأحس لها مأخذا مزعجا يدعو الى الاخرى والى الاستعداد للرجعة الكبرى. وهكذا باشرت اسرارا واحوالا لا مسوغ لتعريبها بجهلي بتعبيرها. وتحققت باليقين الصدقي أن طريق القوم. لاسيما طريق القطب المكتوم هي أرقى ما يكون من معارج هداية القرآن والسنة النبوية وأن ما عداها فهشيم تذروه الرياح. ولما كان سائق السعادة في الحقيقة هو رائدي ودليلي الى حضرة صاحب الختمية العظمى بما أتيقنه بذوقي الخاص في التوجه نحو الاخرى باشرت السلوك بالورد المحمدي الاحمدي التجاني المتميز عن غيره بما سيأتي تفصيله في هذا الكتاب. الذي وضعته خاصا بارباب هذا اللباب * وغني عن البيان أن هذا المنزع مني غير واجب شرعا على كل مسلم وانما هو مسلك يقتضيه إمعان نظر المشفق على نفسه في مآل هذا الرجس النفساني والغي الشيطاني وما يجراند على المرء من المحن والكروب الابدية. فبناء على أن هذه النقطة هي الغاية الوحيدة فالمتحقق أن المادة الاصلية إجبار النفس على العمل بالكتاب والسنة لتحسين اخلاقها وتزكيتها و « قد افلح من زكاها ». فمنزع الاشخاص بعد ذلك نوعان، نوع العامل بالوسائل الاقتباسية والاجتهادية على تحصيل ذلك وهو الصوفي الصادق. ونوع العامل بذلك الزعم لغرض الدنيا فأداه تزويره طبعا الى الابتداع. فمسلكنا في هذا التصنيف تحليل الاعمال الشخصية عن اصل التزكية. فما كان منها مقتبسا من مشكاة النبوة أو اجتهاديا من طريق الكشف الصحيح ولم يصادم اصل التزكية اصفناه اليه. وما كان اختلاقا وابتداعا من جهل البشرية رمينا به وجه بشريته. وكان مردودا عليها. غير ان هناك نقطة هامة يجب ان تكون نصب الاعين عند المباحثة مع المنكرين. وهي انهم جميعا لا ينظرون الى السادة الصوفية إلا بعين واحدة اشعثها مبصرة وانسان عينها مطموس. يدعونهم الى الكتاب والسنة. ونعما الدعوة هي مع الصدق. ولكنهم لسوء الحظ لا يأتون من اوامرهما ولا يتباعدون عن نواهيهما إلا بالتمشدق اللساني. واما في البواطن والاعمال فهم عنهما في شقاق بعيد. فوجب عند البحث معهم جعل هذا البساط مهادا لارضاخ المنصفين منهم او لتبكيت المتعسفين. والله ولي توفيقنا وتوفيقهم اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه. وهو حسبنا ونعم الوكيل

الكلام على بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ بسم ﴾ الذات المقدسة المكنون الخاص بجلال المولى تعالى وجماله ومرتبة الحقيقة المحمدية في الازل الممدود ، بلاحد محدود . تقرر ذلك في تبسمل المتبسمل . وأضمر لفظه ومعناه في الباء المراد بها الاستمداد والاستعانة على الوصول إلى المرغوب من الاستنجاد بالقوة الذاتية العلية . وإلقاء القياد إلى إرادتها التامة النامية وقدرتها المتعلقة بكل موجود ، والتخلص من كل حول إلى حولها الاعظم المحيط بكل متحرك وساكن في الوجود . ولذلك لما كانت العرب في جاهليتها تكتب « باسمك اللهم » كان الضمير يصرح بالاشارة لذلك بقطع النظر عن انتباه الكاتب او العكس ، لان هناك لله اسما تتحرك القوى النفسانية من الانسان إلى الاستعانة بمدده الاحاطي الذي انغمس كل ما دق وجل من المعلومات والمكنونات في محيط إدارته وإناطته . فكانوا يقولون أو يكتبون « باسمك اللهم » أي نستعين باسمك يا الله . فما بين الباء من باسمك و ياء النداء إشارة دقيقة تشير إلى الاسم الاعظم الكبير الذي هو اسم الذات المتصفة بصفة الالوهية ، تسمت به جل جلالها وأناطت بتصرفاته كل دقيق وجليل مما أحاط به علمها الازلي

كان العرب هكذا يفعلون ولسنا بعالمين هل بلغهم ذلك عن مصادر الوحي النبي و رثوها عن سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، أو عن مصادر الالهام عن بعض أولياء الجاهلية الذين امتازوا بالتوحيد والايمان بالبعث . والاحتمال الاول لا شك راجح عند من تتبع عوائد الجاهلية وأحاط علما بما و رثه أهلها من الطقوس الدينية عن الملة الابراهيمية . ولذلك لما جاء الاسلام وكانت طلعته المحمدية طلعة رحمة ورحمت أضيف اسم الجلالة إلى بسم بعد أن كان منادى

فتعين أن الاستعانة ملحوظة بالاسم الاعظم الكبير لله المنعوت بالرحمن والرحيم المخففين لوطأة الجلال البازغ عن اسم الجلالة الفائض من بحر الاسم الملحوظ بالباء فالرحمة فائضة بالجمال على المستعين الواقف موقف الفناء عن كل حول وقوة أمام امدادات ما استمده بالباء . وتلك الامدادات بتحققات غزارتها الوهبية السارية مع جلال اسم الجلالة في مرتبة الالوهية ، سر جليل تنمحق لقاءه المعلومات والمجهولات

فكانت الحكمة الربانية بمقتضياتها العجيبة لابقاء النواميس قائمة بأسبابها مرتبة مع مسبباتها تنيط تصرفات الرحمة بنعتين أصبحا كخصيمين زاخرين بالحنان والرأفة والرحمة الازلية الدائمة لتحصل النتائج المقصودة من الاستعانة والاستمداد المراد بلفظ ﴿ بسم الله ﴾ ولهذه الاشارة ورد في الحديث الشريف « ما بين بسم الله الرحمن الرحيم و بين الاسم الكبير إلّا كما بين بياض العين وسوادها » . فهذه اشارة صريحة إلى الامتزاج الملحوظ فى هذه الكلمة الشريفة أعنى الامتزاج اللفظى والمعنوي

والاسم الاعظم المشار اليه هو الاسم الكبير لذات المولى جل جلاله وعينها والخاص بها ، وهو مكنون مخزون محجوب بأستار الكتمان لم يطلع الله عليه بجلالته إلّا خاصة الخاصة من خليقته من النبيئين والمرسلين ، وورثتهم من الاولياء المتقين . وشأنه عظيم عند أربابه وأهله لا يفشونه لغير من أهله الله لمعرفته . وفضل ذكره بالاذن الصحيح عن أربابه لا يعادله فضل في الوجود . ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحجة الله الكبرى أبي العباس أحمد بن محمد التجاني رضي الله تعالى عنه وأرضاه وعنا به « ان الاسم الاعظم مضروب عليه حجاب ولا يطلع الله عليه إلّا من « اختصه بالمحبة ولو عرفه الناس لاشتغلوا به وتركوا غيره ومن عرفه ودل القرآن « والصلاة علي فإنه يخاف على نفسه » (١) . ولذا كان لخاصة الخاصة من المقربين بهذه الطريقة المحمدية قصب السبق في معرفة هذا السر الجليل بخاصية المحبوبية وتأثيرات الدائرة الفضلية التي خصصها الله بهذه الطائفة السعيدة في هذا العصر العصيب . ولا غرابة في ذلك فإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . ومما يدلك على أن عليه حجابا مضروبا كثرة اختلاف العلماء في وجوده وعدمه وفي تعيينه عند القائلين بوجوده حتى صار ذلك الاختلاف سببا في جهله وعدم معرفته لان كثرة الاقاويل في وجود الشيء وفي تعيينه يزيده غموضا وانبهاما لان الوقوف على ذلك الاختلاف يتحير تحيرا يكون به جاهلا جهلا عظيما لعدم حصوله على طائل (٢)

والحاصل أن هذا الاسم الاعظم المكنون هو السر الساري في ادارة كافة الشؤون وتحريك جميع المعلومات والمجهولات والحسيات والمعنويات . فالاستعانة به في « بسم الله » استعانة بروح القوة السارية في كل جليل وحقير . وعندها تتلاشى كافة القوى والادعاآت خاضعة لجبروتها الازلي

ثم نسب هذا الاسم الكبير الذي هو عين الذات العلية المقدسة الى اسم الله الذي

(١) جواهر المعاني ج ١ ص ٥٧ الطبعة الاولى بمصر
(٢) الرماح ج ١ ص ٢٠٥ الطبعة الاولى بمصر

هو عين مرتبة الالوهية وهو الاسم الاعظم بالنسبة لبقية اسماء الله الحسنى . وهو مرتجل غير مشتق . وتسلطه أبدي على كافة الاسماء الخاضعة له سرمدا . فهو الاسم الاعظم لمرتبة الالوهية الظاهرة . « وما نطق به المتكلمون من قولهـم انه اسم جزئي لا « يصح لان الجزئي فيما شأنه أن يكون كليا أو جزئيا من الموجودات . فالكـلي « ما دل على جمع او جنس لم يختص بجزء من اجزاء ذلـك الكلي وانطواء الاجزاء « تحت ذلـك الكلي والجزئي ما دل على فرد من افراد الجمع او الجنس بحيث « أن لا مشاركة فيه لغيره . وهذا الاسم الاعظم خارج عن جميع الكليات والجزئيات « فلا يقبل دخول الجنس معه لعدم مجانسته لشيء من الموجودات ولا يقبل دخول « الكلي معه لنفي المشاركة معه في مرتبتـــه فبطل قولهم هو اسم جزئي فلا يصح « في اطلاقه إلّا القول بأنه اسم مرتجل علم على الذات الواجبة الوجود من حيث « المرتبة لا من حيث بطون الذات » (١) . فقد استعان المبتدئ بهذه الكلمـة الشريفة واستمد بالاسم الاعظم الكبير الذي هو اسم عين الذات المقدسة في بطونها أولا ومن الاسم الاعظم الظاهر الذي هو اسم الذات من حيث مرتبتها في ظهورها ثانيا . فهو الظاهر والباطن . فانتفت كل الاشـكالات الطبيعيـة . وتلاشت كل الشبهات الشركية . حيث رجع الامر إلى أصله . وفني العبد الناطق عند إرادته بذلـك من حيث لا يريد أمام بطش من هو الذي يريد من غير تردد . وحينئذ تكون القوى الفائضة من حضرة الاسمين الاعظمين وقد التقيا ببرزخ الباء سارية مع الاعمال الجارية من العبد الفاني لدنها مجرى البركة واليمن والخيـر والسعادة غير أنها مع ذلـك مصحوبة بجلال يخطف برقه الابصار ويأخذ بمجامع القلـوب فيهوى بها . وتروع البصائر فينكسها . فصار من المناسب تخفيف ويل ذلـك بالاستمداد من اسم الرحمن بعد اسم الجلالة وهو اسم جميل « من اسماء المرتبة وهي « مرتبة الالوهية ليس من اسماء الذات كالعظيم والكبير والجليل فان اسماء الذات « لا تعلق لها بالخلق واسماء المرتبة كلها متعلقة بالمخلوقات لان الالوهية اقتضت « وجود المخلوقات من غير حاجة بالاله لهم وانما المخلوقات اقتضاهم كمال الالوهية « لكونهم ابدا يعبدون الله تعالى ويسجدون له ويسبحونـــه وهي مرتبة الالوهيـــة « فالالوهية هي مرتبة الاله المعبود بحق ومن أكبرها اسمه الرحمن فانه محيط بجميع « اسماء الوجود . وفي الحديث انما قام الوجود كله باسماء الله تعالى الظاهـرة « والباطنة وجميع الاسماء التي يطلبها الكون بتمامها وكمالها داخلـة تحت « حيطة اسمه الرحمن لان هذا الاسم منه الفيض على جميع الوجود وبهـذه الحيثية « قارب الاسم الاعظم لا أنه هو قال صلى الله عليه وسلم في بسم الله الرحمن الرحيم

---

١) جواهر المعاني ج ٢ ص ٢٠١ الطبع الاول بمصر

« ما بينها و بين الاسم الاكبر إلّا كما بين بياض العين وسوادها . قلنا فالرحمن هو « من أكبر اسماء الالوهية لكون اسماء الوجود كلها تحت حيطته فليس شيء في « الوجود يخرج عن حيطة الرحمة الالهية . و رحمتي وسعت كل شيء . ولهذا الامر « وقع الاستواء بهذا الاسم على العرش لقوله تعالى الرحمن على العرش استوى . « كما أنه سبحانه وتعالى استوى على حقيقة الانسان باسمه الله . فكان الانسان هو « عرش الله لاستوائه باسمه الله . وليس في الوجود موجود يستوي عليه سبحانه وتعالى « بهذا الاسم الشريف إلّا هذا الانسان وهو الذي أطاق حمله وليس في الوجود « من يطيق حمل التجلي بهذا الاسم إلّا الانسان . كما أنه سبحانه وتعالى استوى « على الحقيقة المحمدية بالاسم الاعظم الكبير الذي لا تعرف له كيفية ولا يطيق حمله « في ذلك إلّا هو صلى الله عليه وسلم . فهو محل استوائه صلى الله عليه وسلم . « فلنا الرحمن هو محيط بكليات الوجود وبه استوى على العرش لان في العرش « نسب جميع الموجودات فلذا استوى عليه باسمه الرحمن ونسبة العرش بين « الموجودات اشرفه كنسبة القطب بين العالم » (١) .

والرحيم وصف لمن كثر منه صدور الرحمة وهو أشد مبالغة وتأكيدا من راحم الذي لا يوصف به إلّا من صدرت منه الرحمة ولو مرة واحدة . أما رحيم فهو صفة الكثرة جعل مرادفا للرحمن الذي هو النهاية في الرحمة والاستغراق تأكيدا لنسبة الرحمة التامة للذات الربانية المقصود استمداد الاستعانة من جلالها المقدس ليحصل التوفيق المناسب لحركة العبد الجارية بهذا المبتدإ الشريف . فالمقام مقام توحيد محض وفناء وافتقار وعجز تام تلاشت عنده كافة المزاعم فلا حول ولا قوة إلّا بالله ولا نجاح ولا توفيق إلّا برحمته البارزة من حضرة عين رحمته الغيبية حيث لا تحكم ولا إرادة لمخلوق البتة . جعلنا الله ممن وفقه لشم روائح هذه الرياض العاطرة . تحت ظل عنايته الباطنة والظاهرة . في بحبوحة عزه القاهرة . بسر بسم الله الرحمن الرحيم وما فيها من الفيوضات والمواهب الباهرة . آمين

ولما تقرر هذا البيان . وتعين ما لبسم الله الرحمن الرحيم من الاهمية الرفيعة في أعلى درجات الاعتبار عند ذوي البصائر والابصار فلا غرابة اذا كانت بصفة أساسية مفتاحا لكافة الاعمال والاحوال وجميع التعبدات والعادات . لاسيما في عمل الصلاة الهام . الذي هو ثاني اركان دين الاسلام . وذلك من حيثية افتتاح فاتحة الكتاب في القيام . ببسم الله الرحمن الرحيم على الدوام . حتى تقرر أن ذلك من الواجبات المؤكدة عند الائمة الاعلام . ومن الاركان التي تبطل بتركها الصلاة عند الشافعي الهمام

---

(١) جواهر المعاني ج ٢ ص ٢٤

ولما كانت طريقة شيخنا حجة الله الكبرى سيدنا ومولانا أحمد التجاني رضي الله عنه وأرضاه وعنا به طريقة سلوك وتسليك واستقامة وكرامة ، لزم لاربابها الكرام صيانة أعمالهم الدينية من الخلل والنقص والاعجاف ، وازالة كل خدش يمس بجوهر العبادات . لاسيما الصلاة الفرضية التي هي أساس القربات . وقوام الطاعات وان كان أئمة الفقه قد ذهبوا مع سبل مختلفة وانتهجوا مذاهب شتى متباينة في وجوبها وسنيتها واستحبابها وكراهتها مع الفاتحة في القيام من الصلوات المفروضة سرا وجهرا . فإنها عندنا معشر التجانيين لازمة لزوما يباعد بيننا وبين الخلاف المشار اليه لتتم لنا أمهات العبادات على وجهها الاصح الذي لا يخالطه خلل ولا نقصان ، فتكون الصلاة لدينا بفضل البسملة فيها مع الفاتحة سرا أو جهرا كاملة الجوهر تامة المعنى ، موافقة لمن أبطل الصلاة بفقدانها وقال بوجوبها وهو الامام الشافعي رضي الله عنه كما يقتضيه مذهبه . وموافقة لقول وجيه في مذهب الامام مالك رضي الله عنه وهو أحد الاقوال الثلاثة المتنافسة في هذا المجال ، وعليه كان عمل المتورعين من مشائخ المالكية ومن تبعهم من جهابذة الرجال (١) . وغاية حجتنا وقدوتنا الاكبر رضي الله عنه في ذلك مزيد التحري والخروج من الخلاف المذهبي وتصحيح أركان الصلاة بتكميل هيأتها ، وزيادة على ذلك فتحريه رضي الله عنه وأرضاه محمول على رتبته الاجتهادية وما لديه من المعلومات القدسية الباطنة التي رزقه الله بها وأولاه ، ومنحه وأعطاه ، حيث يتلقى الاوامر والنواهي عن الناموس الاكبر والجناب الاطهر وحضرة مربيه الافخم وممده الاعظم سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، فلطالما كان يحضه على وصل البسملة بفاتحة الكتاب ويبدي له ما هنالك من مزيد الاجر والثواب ، ومن كان من هذه الوجهة منبع اجتهاده (٢) . فقياسه لا يقابل بالنقد والتنكيت إلا من قلوب غافلة وبصائر مظلمة وعقول جاهلة . ومع ذلك فلسنا نقول ببطلان صلاة لا بسملة فيها أي في فاتحتها بل هي عندنا صحيحة ان تمت أركانها وحسنت أعمالها ، وانما اتباع وفعل الاحسن لدينا أمر لا نستهين بقيمته ، ولا نترك الاهتمام بهيأته ، ولذا قال سيدنا رضي الله عنه « عمري ما نترك البسملة متصلة بالفاتحة لا في الصلاة ولا في غيرها » للحديث الوارد في فضلها المؤكد باليمين ذكره الغافقي في فضل القرآن » (٣) وهذا السلوك عند المنصفين بلا شك عمل من حسنت لله نيته ، ودلت على الله حركاته وحالته ، ولا اغترار يصد العامل ان كان لله عمله ، ولو يجترئ العالم كله على تغريره ، أما ان كان المكابر جاهلا فلا كلام مع طغيانه وضلاله وان كان عالما فإن

(١) راجع الرماح ج ٢ ص ١٧١ — (٢) انظر الرماح ج ١ ص ٩٢ الطبع الاول بمصر
(٣) الافادة الاحدية حرف العين

كتب الفقه حافلة بما يرده إلى الانصاف . و يلبسه حلة الاقرار بالحق . اللهم إلا إذا كابر عن وان ملأ فؤاده ، وسواد حاك على صدره غشاء العناد وأجاده . فذلك نكله إلى عاقبة أمثاله عند الله إن شاء عفى وغفر . و إن شاء عذب ونكل وقهر

واعلم أن للبسملة خواص ومنافع فى التوجهات والتحاصين . ولها أسرارا جليلة فى درء المكاره وجلب المنافع اذا استعملت على القواعد المتينة المعروفة عند ارباب هذا الفن الواصلين

ولكى يكون لدينا بعض اشراف على هذه القواعد واحاطة ببعض معلوماتها نحرر نقطة طالما أغفلها متتبعو هذه الخواص والاسرار فى كافة التوجهات والاذكار ، فما حصلوا بعد الانعاب الشديدة والمكابدات العنيفة على طائل فيما يرغبون . وما ذلك إلا لضعف العزائم وانحلال الهمم دون تحقيق الفناء التام لمالك أعنة الامور سبحانه وتعالى والاخلاص له مع التفويض الكامل فى انتاج الرغائب وتحصيل المقاصد ، فانبثت فى عقول هؤلاء لما وجدوا الخيبة فى أعمالهم فكرة انكار حقائق الخواص وتكذيب مواهبها الجدية ، ومرافقها الفضلية . وسرى ذلك الى غيرهم من المادبين . فكان الجهل بالشروط المشروطة على الحقيقة فى هذا الباب من تقوى واستسلام وتفويض واخلاص رافعا لاسرار ما ذكرنا من بين أيدي طلابها ، فلما أقدموا بما عندهم من عيوب الحرص والاعتماد على نفس الذكر والاستعداد للعمل رغبة فى نيل الغرض الموضوع نصب الاعين حصل الفشل حقيقة ، ووجدوا الماء كسراب بقيعة . فى حين أن حصول الخاصية للاذكار مثل البسملة وغيرها منوط بكون الذاكر لا يتشخص فى نظره فاعلا مختارا سوى الله تعالى مع تفويض الاختيار اليه ان شاء أعطاه وأنالله من محض فضله وجوده فاستغرق اوقاته حمدا وشكرا . وان شاء منعه بحكمة اقتضاها الحال لا يدري سرها إلا ربها فقابل ذلك بالرضا والاستسلام من غير تنكيت ولا اكتئاب . فتبين من هذه النقطة أن هذه الصفة صفة روحانية عالية لطيفة قد دق مأخذها بحيث لا تروق لاكثر الخلق ولا تحلولهم بل ولا يستطيع كثير منهم أن يشم لها رائحة لمرارة مذاقها على النفوس الامارة بالسوء والتى لم تتريض بعد على سلوك مسالك ارباب هذا السبيل فى التخلق بما حسن من الاخلاق وصفا والانصاف بما هو لب التوحيد و زبدة الايمان الكامل ، ومن هذا الوجه كان سيدنا ومولانا ابو العباس احمد النجاتي رضى الله عنه وارضاه ينهى عن الاشتغال بالخواص كل من طلبها منه لاسيما القاصرين من اصحابه وضعفائهم وينصحهم باجتنابها . مبينا لهم وجوه هذا المأخذ الذي بسطناه (١) وحاثا لهم على التفرغ التام للتقرب الى المولى جل جلاله بأعظم الوسائل لديه . واكبر الموصلات اليه

(١) راجع جواهر المعانى ج ١ ص ١٥٣

وأقطعها نفوذا في تحقيق الرغائب الدنيوية والاخروية من غير خشية ضرر يعود على مستعملها . أو هول منها يكيد المشتغل بها . ألا وهي الصلاة على سيد الوجود وخلاصة جوهر الغيب والشهود سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام . فقد صح عنه رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول : « نهاني صلى الله عليه وسلم عن التوجه بالاسماء وأمرني بالتوجه بصلاة الفاتح لما « أغلق » (١) . لان الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم هي العامل الوحيد في تكفير الذنوب . وتحسين الرغائب وتنوير القلوب . وتحصيل المطالب ودرء العيوب . فانه عليه الصلاة والسلام الباب الاعظم للحضرة الالهية فلا مطمع لاحد في الدخول إليها من غير هذا الباب الافخم . ولا وسيلة اجل من وسيلته الكبرى وجاهه الاعظم . لعلو مقامه عند ربه جل وعلا ولكونه الجوهر الفرد الوحيد القائم بوجود كافة جواهر الكون . فلا بدع اذا كان اول بشر اوجده الله في عالم البشرية متوسلا بجنابه في طلب افاضته من عشرته . لما اطلع عليه مما علمه الله من الاسماء سر قدر هذا الرسول الكريم الذي جعله الله رحمة للعالمين . ثم تتابع الخلق سرا وجهرا جهلا وعلما على الانحياش الى ظله الظليل عند حدوث النكبات ونبوغ الويلات . فمنهم من صادف الحقيقة وعثر على السر فآب بمناه ، ومنهم من جذبته مظاهر الكون التي هي مظاهر نوره الكريم . فوقف عندها مستكينا اليها والحق قد واعده على فهم ذلك عند كشف الغطاء ، وستعلمن نبأه بعد حين

(١) الافادة الاحمدية حرف النون

﴿ مبحث فرعي عن ﴾

الحديث المؤكد باليمين

بتوفيق الله تعالى بعد تحرير المبحث السابق المخصص بالكلام على بسم الله الرحمن الرحيم وقع الحصول على رواية الحديث القدسي المختص بفضل تلاوة البسملة متصلة بالفاتحة في نفس واحد . وهو الذي وقع التنبيه إليه من جناب سيدنا الشيخ رضي الله عنه (١) . وقد ورد في الفصل الخامس والاربعين من « الرماح » نص هذا الحديث مع سلسلة إسناده (٢) ولكن بكيفية غير موفية باتصال السند وقاصرة عن ألفاظ في نص الحديث قد تمت في النص الذي نرويه هنا بالسند المتصل الصحيح

وبعد لاستئذان بادرت الى ادراج هذا السند المنيف مع الحديث الشريف في هذا المبحث الفرعي رغبة في تعميم نفعه بين الاخوان ، وافادتهم بهذا الفضل النفيس الذي لا يستغني عنه أحد من المشفقين على أنفسهم من أهوال مطلع القيامة . وحسب المحسن في احسانه أن يحصل له التوفيق . بمجرد التصديق لما يزيده إيمانا وإقبالا على مرضاة مولاه . أما المناقشون بسذاجة عقولهم لاستبعاد حصول فضل المالك لاعتة الفضائل العامة والخاصة بما قل من الاعمال فحسبهم غيهم ولغو ألسنتهم وموازين أذهانهم حبائل لايقاعهم في مهاوي الحرمان . فللهم زدنا إيمانا عند كل ذرة من ذرات افضالك ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا واحشرنا مع القوم المحسنين

يقول العبد الفاني . خديم اعتاب التجاني . عمر بن قدور الجزائري . غفر الله ذنوبه . وستر زلاته وعيوبه . أروي الحديث في تلاوة فاتحة الكتاب متصلة ببسم الله الرحمن الرحيم في نفس واحد الى آخر السورة من غير قطع عن حضرة والدي الروحاني . ومربي شعوري الايماني والنفساني . صاحب مبرات الاهتداء .

---

(١) راجع ص ١٤ من هذا الجزء

(٢) انظر الرماح ص ١٨٩ ج ٢ الطبع الاول بمصر

ومفاخر الاقتداء . سيدي ومولاي الحاج محمد بن التلاوتي (١) أبقى الله وجوده . وأفاض على المسلمين فضله وجوده . وهو يروي ذلك عن حضرة الشريف سيدي محمد الكبير بن سيدي محمد العربي نجل سيدي الحاج علي التماسيني (٢) رضي الله عنه وهو يروي عن حضرة العارف ربه المقدس سيدي علي بن عبد الرحمن بن ولي الجزائري (٣) وهو يروي عن شيخيه سيدي مصطفى بن السيد الحاج أحمد الحرار والسيد الشيخ الحاج علي بن الحفاف (٤) وهما يرويان عن أستاذهما الشيخ الحاج محمد صالح الرضوي البخاري (٥) وهو يروي عن سيدي رافع الدين وهو يروي عن مولاي الشريف محمد بن عبد الله وهو يروي عن عبد الله بن سالم البصري مسند الحجاز وهو يروي عن شيخه شمس الدين وشهاب الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ علاء الدين البابلي القاهري وهو يروي عن أحمد بن خليل السبكي وهو يروي عن النجم محمد بن أحمد وهو يروي عن البدر الشهدي وهو يروي عن محمد بن مقبل الحلبي وهو يروي عن عبد الوهاب بن يوسف بن السلام وهو يروي عن أبي العباس أحمد بن الطيب الصالحي وهو يروي عن الحافظ محب الدين بن النجار وهو يروي عن الشيخ الاكبر سيدي محي الدين بن العربي الحاتمي (٦) رحمه الله تعالى . قال رضي الله عنه فإني اقول بالله العظيم لقد

---

(١) حسبما تقدم في نبذة الاهداء والنبذة الاستطلاعية فان حضرة هذا السيد المقدم البركة المفضال الوالد الروحاني الحقيقي للمؤلف وهو صاحب كافة المبرات الاحسانية التي يتمتع بها صاحب «الفاروق» في مسلكه المحمدي ومفيده بأسرار الطريق ومواهبها ومجيزه فيها . وسياتي تفصيل ترجمته ونصيحته وارشاده واسرار تربيته وجملة اسانيده في مبحث الاذن الصحيح من هذا الكتاب نسأل الله ان يرعى وجوده رحمة للمستفيدين من المسلمين آمين . (١) توفي حضرة الخليفة الاشهر سيدي الحاج علي التماسيني رضي الله تعالى عنه عام ١٢٦٠ راجع كشف الحجاب ص ١٢٧ الطبعة الثانية بفاس . (٢) هو مفتي حاضرة وهران توفي قدس الله روحه عام ١٣٢٥ وستأتي ترجمته في مبحث نشأة الطريقة التجانية بالجزائر من هذا الجزء . (٤) هو مفتي المالكية بعاصمة الجزائر توفي رحمه الله عام ١٣٠٧ انظر «تعريف الخلف برجال السلف» ص ٢٦٠ ج ٢ طبع الجزائر عام ١٣٢٧ . (٥) هذا السيد الجليل رحمه الله هو الذي يروي كتب الحديث الصحاح عن السيد شمهورش الصحابي الجني رضي الله عنه وأجاز بذلك عدة فطاحل من رجال عصره كانوا يتنافسون على رفعة هذا السند لاهمية روحانيته من حيثية التبرك واليمن لانه مرفوع بكيفية خارقة للعادة حصلت بوجهة إحسانية . (٦) هو العارف الرباني المشهور صاحب الفتوحات المكية توفي رحمه الله تعالى عام ٦٣٨

حدثني أبو الحسن علي بن أبي الفتح المعروف والده بالكناري بمدينة الموصل سنة احدى وستمائة وقال بالله العظيم لقد سمعت شيخنا أبا الفضل عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر الطوسي الخطيب يقول بالله العظيم لقد سمعت والدي أحمد يقول بالله العظيم لقد سمعت المبارك بن احمد محمد النيسابوري المقري يقول بالله العظيم لقد سمعت من لفظ أبي بكر الفضل بن محمد الكاتب الهروي وقال بالله العظيم لقد حدثنا أبو بكر محمد بن علي الشاشي الشافعي من لفظه وقال بالله العظيم لقد حدثني عبد الله المعروف بأبي نصر السرخسي وقال بالله العظيم لقد حدثنا أبو بكر محمد بن الفضل وقال بالله العظيم لقد حدثنا ابو عبد الله محمد بن علي بن يحي الوراق الفقير وقال بالله العظيم لقد حدثني محمد بن يونس الطويل الفقير وقال بالله العظيم لقد حدثني محمد بن الحسن العلوي الزاهد وقال بالله العظيم لقد حدثني موسى بن يحي وقال بالله العظيم لقد حدثني ابو بكر الراجعي وقال بالله العظيم لقد حدثني عمار بن موسى البرمكي وقال بالله العظيم لقد حدثني أنس بن مالك وقال بالله العظيم لقد حدثني علي بن أبي طالب وقال بالله العظيم لقد حدثني ابو بكر الصديق وقال بالله العظيم لقد حدثني محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم تسليما وقال بالله العظيم لقد حدثني جبريل عليه السلام وقال بالله العظيم لقد حدثني ميكائيل عليه السلام وقال بالله العظيم لقد حدثني إسرافيل عليه السلام وقال قال الله تعالى لي

« يا إسرافيل وعزتي وجلالي وجودي وكرمي من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم
« متصلة بفاتحة الكتاب مرة واحدة اشهدوا علي أني قد غفرت له وقبلت منه
« الحسنات وتجاوزت له عن السيئات ولا احرق لسانه بالنار وأجيره من عذاب
« القبر وعذاب النار وعذاب القيامة والفزع الاكبر ويلقاني قبل الانبياء
« والاولياء اجمعين »

الكلام على صلاة الفاتح لما اغلق

ولاجل شرف البسملة الكريمة وتيمن بركة الاسم الذاتي الجليل. والاسم المرتبي الجميل. في تيسير ما الكاتب آخذ بصدده من جمع هذه الصحائف جعلها في طالعتها اقتداء بالكتاب الحكيم والسنة النبوية . حسبما جرى ذلك مجرى الواجب المؤكد. لكون كل أمر ذي بال لا يكون في طالعته « بسم الله الرحمن الرحيم» لابد وأن يعتريه الخلل ، وتكدره طوارئ الزلل . فيكون ناقصا مبتورا لا بركة تحصل من زبدته ، ولا منفعة تأتي من خلاصته

ثم إنه لما فصل عليها مجملها كما ترى أخذ في قرع باب المولى جل جلاله . وتقدست صفاته وأسماؤه — بناء على ما تقدم آنفا — بالصلاة على عين رحمته الوهبية . والسر الساري في كافة معلوماته ومعمولاته الشهودية والغيبية . فقال .

﴿ اللهم ﴾ . حيث وقف موقف الذل والخضوع . واستكان استكانة الضعيف العاري من كل حول وقوة وطول . بما تقدم من تأثيرات اسرار البسملة وتسلط تجليا تها . وكأن الشارع في سلوك هذا السبيل الاستوائي . بهذا الاستمداد الروحاني والافتتاح الفتائي . قد هيجته بلابل اضمحلال قواه . وتذكرت طبيعته لما شاهدت في مرآة الفناء صور أسوائها وجواذبها الترابية المادية ، ما ارتكبته من المخالفات والمعاصي. فازداد بذلك خجلا وحياء . حتى ذاب هيكله . وانطمست هيأته ، واندك بناؤه . فلما شاهد باب الحضرة العلية أمامه بأنوارها الوقادة . ورحابها المهيأة لارباب الارادة . تقهقر حالا يبحث عن موئل ولا موئل . إلا ما لديه من عمل حسن او خير يديه . وبقي مترددا بين الاقدام والاحجام . حتى تذكر وسيلة جده آدم عليه الصلاة والسلام. فانتعشت روحه بعد الازهاق. واستأنس جاشه بعد الوحشة والارهاق . وتذكر بهذه المناسبة ما حصل لكاتبه عند حدوث الكرب العظيم ، ووقوعه في الضيق الشديد والهول الجسيم . حيث رأى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم في رؤيا مباركة . وقد أخذ بيمينه وسلك به دربا طويلا في آخره نور يتلالا . وهو عليه الصلاة والسلام يقول «قل اللهم صل على سيدنا

محمد » . فقال كاتبه امتثالا للامر الشريف « اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم » . وقد استيقظ واسانه يكرر هذه الصلاة فكان الفرج حاصلا بأوسع مما كان منتظرا . مع تحقيق سلوك الدرب على صورة « كل من سار على الدرب وصل » ولله الحمد ومزيد الشكر .

ولفظة « اللهم » لفظة استغاثة وابتهال . ففيها النداء للمولى تعالى مع مزيد لالحاح ولاجتهاد في الطلب . لانالة ما الداعي فيه رغب . ولما كان الطلب هنا بهذه الكيفية وهذا السلوك لا غرض فيه خاص يعود على المتوجه إليه ، فإنه بهذا لابتهال الذي تحويه لفظة « اللهم » يكون مجابا قطعا من طرف المادي الكريم وهو السميع القريب المجيب العليم

والطلب المذكور هو طلب الصلاة الكاملة التامة الشاملة العامة التي لا أول لها ولا نهاية ولا حد ولا إحاطة . الصلاة التي لا يدرك معناها ولا يفهم حقيقتها ولا يحيط بتجلياتها ومشاهدها ومظاهرها سوى المتفضل بها .

وذلك في قوله ﴿ اللهم صل ﴾ .

فلما عجز بهيكله الانساني ، وحجابه الجسماني عن أن يقوم بهذه الصلاة المطلوبة والمأمور بتاديتها بقوله تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبيء يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » . لم يرد من الوقوف بموقف التذلل والخضوع . والالحاح والخشوع . والاستغاثة والخنوع . أمام الحضرة القادرة القاهرة القوية يقول « اللهم صل » الصلاة التي تستطيعها بقدرتك وجلالك وقدرتك . ولا أستطيعها بضعفي ووهني وعجزي . الصلاة التي تعلمها بعلمك القديم المحيط بكل معلوم ومجهول . والتي أجهلها بجهلي الذي غرستني في ظلمات بحوره فلا أدري كيف ولا أين . « اللهم صل » الصلاة التي ذهلت عن فهمها عقول العارفين من عبادك . وتلاشت قوى المدركين من اصفيائك . ولم يدركوا حقيقتها سوى من أنت الذي تصلي عليه وملائكتك من لازل إلى لابد . « اللهم صل » الصلاة التي لا يذوق مذاقها إلا هو ولا يعرف كنهها سواه . فأنت القادر على أن تقوم بإسبالها عليه . وهو القائم بقبولها منك واليه .

﴿ اللهم صل على سيدنا ﴾ معشر المكلفين والمخلوقين والموجودين استشعارا من نفسه وهو الحقير رغبة لاستنجاد في هذا الموقف الرهيب لهذا الطلب الجليل بألسنة كافة المخلوقات مع زيادة الاجلال لقدر الراغب في الصلاة عليه بتعميم سيادته على جنس بني آدم الذي هو أكرم جنس خلقه الله تعالى . ولان هذه السيادة أصلية طبيعية مخلوقة في جبلة الاكوان ومعمريها لانصمادها كلها وافتقارها الى المدد الوجودي . الساري من سيدها الغيبي والشهودي . بحيث لا

مناص لها من هذا الهيع ولا انصراف . فهنا قد تمت السيادة بكل معانيها ومدلولاتها وصار الناطق بالصلاة عليه يأتي بضمير الجمع المتكلم ليلاحظ هذه الاشارة . ويعرب عن هذه العبارة . في قوله ﴿ اللهـــم صـل على سيـدنـا محمـــد ﴾ كما سماه جده عبد المطلب لما ولد عليه الصلاة والسلام ليلة سابع ربيع لانور على التحقيق من عام الفيل . مشرقا نوره الكريم على الوجود من أمه الزكية الطاهرة آمنة بنت وهب من غير مجرى المخاض الطبيعي في بنـات آدم تنزيها لذلك الجسم المقدس وتطهيرا (١) . ولما بشر به جده شيخ قريش وعمدة أبطح مكة سيدنا عبد المطلب وأنه ولد لابنه سيدنا عبد الله من زوجه سيدتنا آمنـة المذكورة هذا المولود القائم بتوحيد العوالم وتحميدها ألهم أن يسميه محمدا. وقال رجوت أن يحمده اهـل السماوات وأهل الارض . فحقق الله رجاءه . وكتم امر ازدياده خوفـا عليه من طغام اليهود الذين كانوا يراقبون اوقات ولادته حسبما هو مسطـور في كتبهم ورامـــوا القضاء عليه حسدا من عند انفسهم. وقد انتشر خبره في اليوم الثاني عشر فاشتهر رسميا في التاريخ كيوم الولادة . وقد كانت الارهاصات وتنبؤات الكهـان وتطاير الشهب ونزوغ الكواكب الغريبة وظهـور الآيات المفزعة تتـوالى قبل ابان ميلاده الشريف مما صير العرب وهم اهل فراسة وتطاير واهتمام بالفال والكهانة والحوادث السماوية يهتمون بهذه الوقائع الخارقة للعادة . ويتوقعون حدوث شأن خطير في جامعتهم . وانقلاب هام في هيـأتهم . بينما هم في جاهلية عمياء موحشة وقد تقطعت ارحامهم . وتباينت مراحلهم . لما كانوا عليـه من التنافـس والتقاتل والتنافر ووأد البنات واتباع خزعبلات الاوثان وضلالات الكهان . وهم في سفك الدماء آخذون . مع العيش الضنك وقلة الرفد . وتسلط الفرس على منازل الثروة من بلادهم كالعراق واليمن

ولم يكن سوى العرب في هذا العصر العصيب في منعة من المفاسد والضلال والاختلال . بل كانت الامبراطورية الرومانية بعد انشقاقهـا تتدهور في دركات السقوط . حيث اشتغل مترفوها بلذائذ التمدن ونعيم الحضارة حتى آل بهم الحال إلى اعلان الفواحش والمنكرات في عواصمهم إعلانا اعتبروه من مكملات نظام أمرهم وقوام شأنهم . وما أمة الفرس ببعيدة عن هذا المنزع وإن كان يحكمها آنئذ الملك العادل . أما بلاد الغرب وما جاورها من المواطـن التي نعتبرها اليـوم من أرقى ما خلق الله في زخرف الحياة الدنيا واشتداد القـوة فإنها كانت في هـذا الابان أرضا موحشة مظلمة الارجاء . وقد حاكت عليها الطبيعة أرديـة من الغابـات المشتبكة الممتلئة بالوحوش الكاسرة . وفي أطرافها قد انحاز بعض القبائل المتوحشة

(١) راجع جواهر المعاني ص ٩١ ج ٢ الطبعة الاولى وانظر الجامع (لم يطبع)

النازحة من الشرق . تسكن الكهوف والاكواخ وتقتات من الصيد والسلب والنهب . والعالم يموج في همجية عمياء

بينما العالم في هذه الظلمة الحالكة ظلمة الفوضى الاختلالية التي تترامى بأمواج كالجبال مع ضلالات الاعتقادات وفساد المروآت وانحطاط الاخلاق ونفوذ الاوهام على الادمغة والرؤوس . بينما الخلق كذلك أراد الله أن يشق من أبطح مكة حيث بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام مرفوع شق الاجتباء والاصطفاء ليطلع من هناك الكرامة والعز لامة العرب الجاهلة الضالة ويظهر نور « سره الاعظم » الذي كان مكنوزا مكنونا في حجب غيوبه . فيرسله بشرا سويا لخليقته أجمعين ليكون شاهدا عليهم ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا

﴿ مبحث فرعي عن ﴾

السر الاعظم

ولنقف معاً أيها القارئ الكريم هنا وقفة نستجلب بها افكارا استنفرت طبعا عند قولنا « السر الاعظم » . وذهبت من هنا ومن هنا تسبح في هذا الفضاء الواسع الذي لا حد له. تستطلع كنه هذه الموجودات الطبيعية من حيثية حسها وملموسها وتحوم حول غيبها ومكتومها . فتجد سر ما هنالك إبداعا بهولها تركيبه . و يذيب جوهرها شرره ولهيبه

فاعلم أن الحقائق في هذه الموجودات المترائية بين ايدينا بصورها الحسية من حيوان وجماد هي غير صورها المشار اليها . بل هي غيوب مستورة عن قوى ابصارنا بطبيعتها النورانية . وقد قامت الطبيعة المحسوسة نفسها تمثل عجائب اسرارها المكتومة بما فيها ايضا من الغرائب والمدهشات

ولهذا ثبت مع هذه الظواهر الحسية اقوام ما انفكوا يتتبعون حوادثها ومعجزاتها. و يتوسعون في علومها وفنونها . و يخترعون لها القوانين والتعليلات . ليستطيعوا ربط السنن ببعضها . ولكنهم لم يلبثوا أن وصلوا في ابحاثهم وتقصاتهم الى حد أقروا فيه بالعجز . ونسبوا الى علومهم القصور . وأحالوا العوالم والاكوان الى حدوث بلا مبدا والى استقرار بلا نهاية . بل وما زالوا يقولون ان هذا الفضاء المتسع الذي انتشرت فيه الكواكب والنجوم لا حد له معلوم للخلق

ولا نفارقهم دون أن نأتي ببعض أمثلة من أمثلة عجزهم التي أقروا بها فان في ذلك وسيلة الى فهم ما نحن بصدده من الدهش والانزعاج عند قولنا «السر الاعظم».

فلقد قالوا في نسبة عظم اجسام العوالم الكونية ان حجم الشمس أكبر من جرم الارض بـ ٣٢٤٠٠٠ مرة . وان هناك نجما أكبر من الشمس بأربعين ألف ألف مرة . وقال الراوي لهذا القول لا نخال القارئ إلّا مترددا في تصديق هذا الخبر فان عقولنا المحدودة تعجز عن تصور هذا الحجم الهائل . ولاسيما اذا فكرنا بأن ذلك كله ليس إلّا حجم كوكب واحد ! . فلقد توصل الفنيون منذ مدة غير بعيدة الى ايجاد طريقة تمكن من معرفة مقدار اجرام الكواكب والسيارات السماوية وتفاصيل قواعد هذه الطريقة طويلة تحتاج الى دروس وعمليات وآلات . ومما ذكروه عن هذا الكوكب انه يسمى « بتجلوز » وهو واقع قرب برج الثور .

وتفصل بينه و بين الارض مسافة ١٥٠ سنة نورية . والمراد بسنة النور أن نور هذا الكوكب يستغرق ١٥٠ سنة في مسيره حتى يصل إلى أبصارنا . واذا علمت أن سرعة النور ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية و إذا ضربتها في ٦٠ تحصل على سرعته في الدقيقة واذا ضربته في ٦٠ ايضا تحصل على سرعته في الساعة ثم في ٢٤ تحصل على سرعته في اليوم ثم في ٣٦٦ تحصل على سرعته في السنة تحيط حينئذ علما بمقدار السنة النورية . أما حجم هذا الكوكب المشار إليه فنحو ٥٢٦٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠ مرة كحجم الارض ونحو ٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠ مرة كحجم الشمس أي اذا وضعت مثلا ٣٥٠ شمسا الواحدة بجانب الاخرى كانت بطول قطره فقط

ثم ذكروا ما هو أعظم من هذا بعد سرد أبحاثهم الدقيقة وأدلتهم الفنية وهو أن الكوكب المسمى « عنترة » وهو النجم الاحمر المضيء في قلب برج العقرب أكبر من الشمس بمائة وثلاثة عشر الف الف مرة

ثم قرروا لتعريف عدم نهاية الفضاء الكوني أن نور الشمس التي تبعدنا بما قدره ١٥٠ بليون متر يصل إلينا بثمان دقائق و١٣ ثانية . ويقطع النور عالم السيارات بثمان ساعات وعشرين دقيقة . ويقطع المسافة التي بيننا وبين الكواكب الثابتة في عشرة آلاف الف سنة . فإذا كان هذا البعد جزء من هذا العالم الواسع فما هي نسبته الحقيقية أمام العالم بأسره ؟

وبعبارة اخرى فإنهم ذكروا أن اقرب الكواكب الثابتة الينا كوكب يسميه الفلكيون « ألفا » بهيأة المنطقة حذو برج العقرب قدروا ان نوره يقطع في سيره الى ابصارنا ثلاث سنوات وستة اشهر نورية . ولتقريب هذه الهيأة الى الافكار فرضوا وجود سكة حديدية ممدودة من عندنا الى هذا الكوكب القريب وان قطار هذه السكة يسير بسرعة ستين كيلو متر في الساعة الواحدة . ولاجل الوصول الى محطة اقرب كوكب ثابت الينا يتحتم ان يسير هذا القطار بهذه السرعة المذكورة سيرا متواصلا لا انقطاع له مدة ستين الف الف سنة من سنواتنا الارضية

فتأمل هذا الخلق العجيب ! . وسواء صح هذا التقدير او لم يصح فالواقع لا يدخل تحت إحاطة اقل مما ذكروا لان في تفاصيل براهين ابحاثهم الفنية آيات وعبر تزيد المؤمن إيمانا و إجلالا لعظمة قدرة الخالق تعالى و إبداعه في إحداث هذا الوجود العجيب

وهم لتقدير الوقت الماضي على الوجود قد ذهبوا مذاهب شتى واخذوا يظنون ظنونا مختلفة . فظن بعض علمائهم ان الحياة البشرية ظهرت على الارض منذ عشرات الالاف من السنين . وحياة الحيوان منذ ٢٥٠ الف الف من الاعوام . والعصر الاول الذي تجمد فيه سطح الارض يرجع الى عهد ٥٠٠ الف الف سنة . فإذا كان هذا تاريخ تكون الارض فما ذا عسى ان يكون الوقت الذي تكونت فيه

الشمس وغيرها من العوالم الكونية . فاردفوا كل أقوالهم هذه بأن ذلك كله سر في طي الغيوب يدل على أن الوقت والمكان غير محدودين . لان أبعد نجم من النجوم الثابتة إذا انتقلنا إليه مثلا تظهر لنا في ما وراءه بين أيدينا نجوم أخرى ثابتة بأبعاد ومسافات أخرى كالتي تركناها وراءنا . وهكذا إلى ما لا نهاية له من كل جانب

فأنت ترى كيف أن هذا الفريق وصل الى حدود العجز في وقوفه مع المحسوس الطبيعي بالرغم من فنونه التي رتبها والتعاليل التي اخترعها والحسابات التي بسطها والآلات التي صنعها . ورجع اليه مع ذلك طرفه خاسئا وهو حسير

وما ذلك إلّا لان لهذه الماديات في صورها المتشخصة أحكاما قائمة باسرارها وخاضعة لنواميسها الغيبية السارية فيها سريانا لا يعتريه قبض ولا بسط . ولم يتقيد بتعليل ترتبه أدمغة البشر الجاهلة

وعند هذا الحد تصادف أقواما آخرين انطبعت في مرآة بصائرهم صور الكائنات بنواميسها الغيبية بهذا السريان المكتوم . فهم يشاهدونها في أقرب محل لديهم بلا احتياج إلى آلة ولا حساب ولا فرض ولا تقدير ولا توقيت ولا دخول لعقولهم الدماغية في هذا الميدان . فيصفون كل ما بلغت إليه أبصار وعقول ومدارك وآلات الفريق المتقدم الذكر ويحصرونه في مقدار ذرة ما هو بباطن العرش العظيم . ثم هم يخرقون ما وراء ذلك إلى حدود الحجب السبعين . ويحسبون الاحقاب التي مضت قبل ظهور الارواح فضلا عن الاشباح في مهد التربية الربانية وما بين ذلك من آلاف القرون . فقد أخبروا أن عدد العوالم الالهية البارزة للعارف الاعظم من عارفي البشر يبلغ ثمانية آلاف عالم . العرش بكل ما في جوفه عالم واحد من هذه العوالم . وفي جوفه الكرسي وهو بالنسبة إليه كرملة بالصحراء . ثم الفلك الاطلس وهو بالنسبة إلى الكرسي كرملة في الصحراء ثم فلك الكواكب الثابتة والسماوات السبع والارضون والجنة والنار وكلها مملوءة بالمخلوقات . وهناك أرض السمسمة الواسعة جدا الى حد أنه لو وضع العرش فيها بجميع ما في جوفه لكان كحلقة ملقاة في فلاة . وهي مملوءة بما لا يحصي عدده إلّا الله تعالى الذي خلقه وقدره . وهؤلاء المخلوقات بأرض السمسمة لا يموتون بل يتزايدون في كل طرفة عين ومجبولون على طاعة الله وعبادته . وقد ذكروا أن حول العرش ستمائة الف سرادق والسرادق هو الصور . بعد ما بين كل سرادق وسرادق قدر مسافة السماوات والارض وذلك ثلاثة عشر الف وخمسمائة سنة . وكلها مملوءة بالملائكة . وأن وراء العرش سبعين حجابا غلظ كل حجاب سبعون الف عام سيرا . وسعة ما بين كل حجاب وحجاب مسيرة سبعين عام هواء . وبين الحجاب الاول والعرش مسافة سبعين الف عام هواء ايضا . ومن وراء العرش حجاب عالم الرقا . وكله حجب

حجاب فوق حجاب مثل الحجب التي فوق العرش . حتى ان كشف العارفين وصل الى رؤية سبعمائة حجاب وراء العرش من مثل الحجب السبعين في الغلظ والاتساع . ومن وراء ذلك عالم الطوق الاخضر الذي لم يكن حدا للعوالم الالهية بل وراءه حجب كثيرة لا تحصى بين كل حجاب وحجاب منها سبعون الف حجاب بالغلظ والاتساع المذكورين . ولفظة حجاب عبارة عن ستر ما وراء العرش علمه العارفون بهذه العلامة تمييزا عما دون العرش والحجاب ما هو في الحقيقة إلّا مناطق من العوالم والاكوان الالهية السابحة في الغيب الذي لا حد له

أما كشف ساداتنا العارفين في اطوار ما سبق من الزمان فقد بلغ الى غاية بعيدة جدا حتى انهم ذكروا أن الماء قبل خلق الارض كان يضطرب مدة الف حقب والحقب فيه الف قرن والقرن فيه الف سنة والسنة فيها الف يوم واليوم فيه الف ساعة والساعة مثل عمر الدنيا سبعون الف مرة وعمر الدنيا من نشأتها الى النفخ في الصور تسعة وسبعون الف عام من اعوام الدنيا

ولكنهم رضي الله عنهم مع كل هذا الاطلاع يصلون ايضا في دورهم الى حد معلوم من العجز والقصور يقفون عنده خاضعين وتتلاشى لديه مداركهم ومشاهداتهم وكشوفاتهم حيث يحتجب عنهم ما وراءه من الفيض المتمادي بلا نهاية ولا بداية . والسر الابدي بلا إحاطة ولا حدود . فتلوح لهم كل هذه الاكوان التي اطلعوا عليها كقطع الهباء التي تظهر في أشعة الشمس المنتشرة من كوة بمحل مظلم تتحرك من فوق الى أسفل ومن أسفل الى أعلى ثم تتلاشى في حيطة النظر وتفنى الى لابد

فالعجز حينئذ حد لكل مخلوق وفي بحره المحيط تفنى كافة الادراكات وتتلاشى ، ويضمحل الوجود في نظر العاجز الفاني بفناء ادراكاته . ويبقى الوجود المجهول وراء كل هذا الاعتبار مصونا بحجب الجبروت الرباني لا لحقه ادراك الحوادث بحال

فالبشر بمجموعهم في هذا الهيع كنملة في الصحراء أبرزت رأسها من جحرها وأجالت نظرها في البسيط حولها فلما رأت ما في مد بصرها اتساع ما رأت هزت رأسها إعجابا واعتبارا . وقالت ما أوسع هذا الوجود ! وما أجمل خضرته ونباته ! مع أنها لم يعطها مد بصرها إلّا رؤية ذراع او ذراعين من التراب بين يديها . وقد خفي عنها طبعا ما تبصره الضفدع . وهذه خفي عنها ما تبصره الدجاجة . وهذه خفي عنها ما يبصره على الترتيب ما هو اكبر منها حجما وادراكا . وهكذا يقع التفاوت في مد البصر مع تفاوت الادراك إحساسا وشعورا ووزنا وفهما . فسبحان الذي لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير

ونحن معشر المحجوبين لا نذهب بعيدا بنظرة أخرى في هذه القضية . بل نظر بين ايدينا الى ما هو على التراب فانا نجد مآله الى التراب . فاستحالت في نظرنا كل هذه الصور والظواهر والمظاهر المتحركة والجامدة الى مراد عرضية تقضي في وظائفها أطوارها المحدودة ثم تنعدم وتتلاشى ومنها ما ينقلب ترابا وما أشبهه من المواد العنصرية وقد تترك وراءها حقائقها وأعيانها قائمة مستورة في أطوار الغيوب تؤدي تكاليفها التي تعينت عليها من غير فتور . فأطوار الغيوب بهذا المفهوم فضاء وبراح هما غير هذا الفضاء المشهود . يمتدان دائما ويتزايدان وخلائقهما ومعمروهما في نمو وانتشار بكيفيات لا يشم لها العقل البشري رائحة . ولا زمان عندئذ ولا ساعة ولا تقديم ولا تأخير ولا بطون ولا ظهور . فلها اندمج في هذا البراح والفضاء الغيبي الكون المادي المتراثي لابصار المحجوبين وبصائر العارفين لم يشغل منه محل ما تدب به نملة ، ولا ما تطوه ذرة . فانهدمت آنئذ جميع النواميس والتعاليل . وتلاشت كافة المدارك والافكار . واضمحلت كل البصائر والابصار . وانقلبت الحقائق الى أصولها مضيئة من نفسها كما كانت في أزل الحق تعالى عن الكون والاينية . وقد غلب عليها الدهش والفزع من هول الاضطرار والافتقار المجبولة عليهما من طبعها . فثم انضمت لبعضها والتأمت وصارت قطعة واحدة . ثم ذابت تذللا وخضوعا لجلال ذي الجلال . فتراأت لانوارها بعد أن كانت تضي من نفسها أسلاك جوهرية تنم عن الاصل الذي عنده القول الفصل . وقد اعترى الحقائق الفناء . واضمحلت أنوارها . اذ غشيها نور حقيقة واحدة قد أحاطت بالكليات والجزئيات . وانطوى تحتها مجموع الحسيات والمعنويات . فكانت أول موجود ظهر في حجر الحق تعالى . وهو « السر الاعظم » الذي حدا بنا إلى هذا البيان تذكاره . أي سر الحقيقة المحمدية . وباطنه السر الباطني المعروف بالحقيقة الاحمدية . حيث كانت تتربى وتفاض عليها أنواع اللطائف والتحف من قبل بارئها تعالى

فالحاصل انه قد تبين معنا وان السر الساري في كل موجود كان اول موجود في الوجود . وجميع الحقائق الكونية معدومة بصورها واعيانها . موجودة بأسمائها وعلومها . ما عدا هذه الحقيقة الوحيدة . والجوهرة الفريدة . فإنها قطعة النور الازلي المتعالي لكل ما هو معلوم لله بسره الروحاني . ومنه بعد آلاف القرون والاحقاب حصل إيجاد الارواح العالمية تدريجا في برزخ الغيب ، اذ ظهرت الارواح والحقائق والاعيان وتصاريفها المتعلقة بها . ثم الماديات واجسامها التي هي آخر ما تخلص من الخلق الاكرم فالاكرم من حيثية النورانية والحقائق والارواح . ثم اخذت تظهر الاشباح شيئا فشيئا . فكانت الارض بعد وجودها التدريجي مهدا لامم وخلائق لا تحصى كثرة وعجائب وصورا ، حتى اتاها بنو آدم وهم الذين كرمهم الله وجعل خيارهم زبدة شرارهم ما بين فترات من الاوقات ، والدهر يطوي تلك الآونات .

حتى ظهرت طلعة « السر الاعظم » بشبحها الجشماني الزكي الذكي في آخر حلقة من حلقات هذا المهد الترابي

فتراآى لنا مع هذا البسط أن المصلي الذي سايرناه آنفا لما قال ﴿ اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ﴾ يشير بالفاتح إلى أن السر الاعظم الباطني الافخم لروح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهي الحقيقة الاحمدية قد فتحت ما كان مغلقا من المعدومات والمجهولات. فصيرته بفتحها موجودا بصورته. معلوما بحقيقته البارزة عنها. وروحه السارية منها. فما انفك كل مكنون يبرز عند حلول أجل بروزه. وطور تجليه في حلة الظهور. مستمدا قوة عروجه وبروزه من عين القوة الكبرى و« السر الاعظم » ولما يقضي ما قدر له ويؤدي وظيفه في عالم الاشباح والارواح. وتطوى عينه المادية وصورته الحسية. تعود حقيقته كما كانت أول مرة منوطة بأم الحقائق. فتختم هذه الكلام بتأثيرها الرباني المتأصل فيها عند انتهاء الاعراض المادية على جمع الحقائق بانطوائها تحت رحمتها ومددها

فكان هو هو الخاتم لما سبق. كما فتح الحقائق ختمها. وكما ابتدأها أنهاها. وختمه لدور إخوانه الانبياء والمرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام مثال عياني لهذا الاصل الروحاني. فهو الاول والاخر والظاهر والباطن والفاتح والخاتم (١)

لقد بشر بمقدمه الجشماني جمع من الرسل. وأشهر ما ورد في ذلك ما لم يزل مثبتا في صفحات « العهد القديم » بالرغم من تحريف القدماء لبعض كلمه ومن ذلك قول سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام لبني إسرائيل « إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم » (واخوة بني اسرائيل هم بنو إسماعيل) ومما جاء في الاصحاح الثاني والاربعين من « أشعياء » « ١ هوذا عبدي الذي « أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي. وضعت روحي عليه فيخرج الحق « للامم ٢ لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته ٣ قصبة مرضوضة لا يقصف « وفتيلة خامدة لا يطفأ. الى الامان يخرج الحق ٤ لا يكل ولا ينكسر حتى « يضع الحق في الارض وتنتظر الجزائر شريعته ٥ هكذا يقول الله الرب خالق « السماوات وناشرها. باسط الارض ونتائجها. معطي الشعب عليها نسمة. والساكنين « فيها روحا ٦ أنا الرب قد دعوتك بالبر. فأمسك بيدك. فأحفظك وأجعلك « عهدا للشعب ونورا للامم ٧ لتفتح عيون العمي. لتخرج من الحبس المأسورين « من بيت السجن الجالسين في الظلمة ٨ أنا الرب هذا اسمي ومجدي. لا أعطيه

(١) انظر الكلام على الحقيقة المحمدية بجواهر المعاني ص ١٢٢ ج ٢

« لآخر . ولا تسبيحي للمنحوتات ٩ هو ذا لاوليات قد أتت . والحديثات أنا مخبر « بها . قبل أن تنبت أعلكم بها ١٠ غنوا للرب أغنية جديدة ، تسبيحة من « أقصى الارض . أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها ١١ لترفع « البرية ومدنها صوتها . الديار التي سكنها قيدار . لترنم سكان سالع من رؤوس « الجبال ليهتفوا ١٢ ليعطوا للرب مجدا و يخبروا بتسبيحه في الجزائر »

هذه هي النعوت التي نعت بها العهد القديم خاتم النبيئين عليه الصلاة والسلام وصرح بموطنه ومهد نشأته في قوله « لترفع البرية صوتها . الديار التي يسكنها « قيدار » أي شعب مكة حيث تناسلت ذرية قيدار الذي هو ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام . وأشار إلى دار هجرته بقوله « لترنم سكان سالع » وسالع او سلع جبل قرب مدينة يثرب « المدينة المنورة » وهو من أشهر جبال تلك الناحية المعروفة عند الذين أوتو الكتاب من ذرية إسرائيل

ظهر عليه الصلاة والسلام في مظهره الجسماني على فترة من الرسل والعالم يموج بالحروب والفتن . والهمجية عامة . والفوضى تامة . من الشرق إلى الغرب . والوثنية سائدة على أطراف المعمور . وفساد الاخلاق مستول على مجموع البشرية فلما لاحت طلعة مولده الشريف على الوادي المقدس من بيت الله الحرام حيث الامن واليمن رأت والدته آمنة ما رأت من بشائر وصور من وراء المادة تبدت لها واشخاص الارواح النورانية تجسمت في نظرها . وتراأت لها قصور بصرى من الشام لانجلابها إلى السمو والارتفاع في هذه الساعة المباركة . او لانزواء الارض نحوها تستمد من مولودها الزكي البركة واليمن . ولقد رئي في حضن جده عبد المطلب شيخ قريش بعد أن تم رضاعه عند حليمة السعدية و وفاة والدته في ابان تزعزعه . ولما قضى عبد المطلب نحبه آواه عمه أبو طالب . وكان يرعى في صباه الغنم وغنائم الحق تصبو له . لما جبل عليه من التربية الالهية الجليلة الكامنة في فؤاده الطاهر المغسول بماء البقاء . والمضمخ بعطر التقوى حتى ان قريشا مع عزة رجالها وكبرياء طغاتها كانت تبجله صاغرة وتعظمه مرغمة لما ترى فيه من دماثة الاخلاق ولطف الشمائل وصدق اللهجة وحسن المعاملة وعفة الظاهر والباطن . حتى انه اشتهر عندها من بين كافة فتيانها « بالامين » .

لقد كان عليه الصلاة والسلام يشغل أسمى مرتبة بين بني عبد مناف حيث انهم لم يلاحظوا منه هفوة من هفوات الصبا المجبور كل شاب على ارتكابها حيث كانت لديه شواغل باطنية تنبع في فكره . وتلهمه فعل الخير والتقرب الى أهله . ودواع الى التفكر في اسرار الوجود . وتراكيب الكون . يستلذ حديثها و يصبو اليها . فتحلو له الخلوة و يهوى العزلة . وكلما اقترب من أجل النبوة وطلوع الوحي تنمو تنمو تلك الدواعي والالهامات وتتوسع دائرتها . وتتزايد الشواغل الباطنية بفكره

الساري السري . وصارت لذلك تصدق رؤياه وتطلع كفلق الصبح . إعلانا بدنو زمن ارتفاع الستار عن ما وراء المادة لعيني قلبه الساهر السهر الابدي يتمتع في هذه المشاهد الجليلة والمناظ الجميلة

ولما بلغ أشده سافر الى الشام في عير لخديجة م المومنين يتاجر لها ، فأسعد الله حظها رضى الله عنها فتزوجها و رزقه الله منها كافة اولاده ما عدى سيدنا إبراهيم عليه السلام . وعندها كان يتزود ويذهب إلى غار حراء حيث تحلو له الخلوة فيقضي الايام المتعددة منقطعا لربه صامتا خاشعا يناجي سره النوراني و يتتبع مواهبه ومعارفه . وعندما ينفد زاده يرجع إلى أهله فيتزود من جديد لايام أخر . حتى بلغ الاربعين من عمره . وآنئذ ارتفعت بينه و بين الكنم النوراني الذي كانت تسبح فيه حقيقته الاعجب كلها . ونودي وهو مقبل في غار حراء على مناجاة أفكاره النورانية من تلك الناحية القدسية التي لا ياتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها « اقرأ » . فقال « ما أنا بقارئ » فغطه منادية غطة ثم أرسله وقال له « اقرأ » فقال « ما أنا بقارئ » . فغطه ثانيا . ثم ناداه وغطه ثالث مرة ولما أرسله قال له « اقرأ باسم ربك الذي خلق » . وعندئذ ظهرت وظيفة « السر الاعظم » ومأموريته في عالم هذا الظهور المادي . وتنزله في ميدان التعرف للخلائق بين الاميين في أم القرى فشمر عليه الصلاة والسلام عن ساق أجد والاجتهاد لتأدية ما كلف به من التبليغ والانذار والتبشير والتحذير والتنفير . وقام بمفرده داعيا إلى الله باذنه . وسائقا الى التوحيد ونبذ عبادة الاصنام والاوثان . وأعزة قومه وعظماؤهم في نفور مستمر . لكونهم رأوا عجبا أن يبعث الله فيهم مثله نذيرا . وكانوا يتوقعون حصول ذلك من عظمائهم المتجبرين . وما ابعده من المنيبين إلّا السابقون من الضعفاء المقلين . وهم يذوقون سوء العذاب والاذاية من طغاة قريش وزعانفهم . ومع ما كان يجادلهم به و يرهقهم من أدلته القولية القاطعة و براهينه الحسية الخارقة للعادة من المعجزات الباهرة وما يتلوه على مسامعهم من آي الذكر الحكيم الذي اذهلهم تركيبه واذهشتهم بلاغته مع انهم افصح من تكلم من العرب ولم يستطيعوا ان يجاروه ولو بجملة واحدة فانهم ما فتئوا يتصامون عن إجابة دعوته . و ينأون عن انابته ومبرته . وقوفا مع عيوب بواطنهم والحاد اهوائهم . لاسرار اقتضتها الحكمة الالهية حيث اوحي اليه « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء » . وهو مع ذلك عليه الصلاة والسلام يعاملهم معاملة الشفقة والمبرة . يواصلهم وهم يقاطعون و يرحمهم وهم لا يرحمون يخفض لهم جناح التسامح واللطف واللين . لا يحمل واحدا منهم على محمل خشن ولا يضايقهم بشر او يجاهرهم ببذاءة . لسمو لطفه الغريزي وكمال لينه الطبيعي . وحبه لبني جلدته في عالم الاشباح ، وموارد امداداته عليهم في عالم الارواح . لاسيما وان الله قد عين مأموريته بقوله تعالى « وما ارسلناك إلّا رحمة للعالمين »

فكان عليه الصلاة والسلام يعامل العرب الاميين والاعراب المتوحشين في أولية تبليغه وبعثته بتلك السياسة اللينة اللطيفة برحمات القدس الاعلى . ثم ما زال ذلك دأبه حتى لما أذن له في تأييد القول بالفعل والانس بالباس بقي على تلك اللطافة والرأفة والرحمة . وأجرى المعاملة نفسها في عالم الارواح — حيث يدري ذلك أهل الذوق بهذا الجراح — بامداداته الممتدة مع الارواح والاشباح . ومع كل سائل وجامد . ومتحرك وساكن . وعالم وجاهل . تلك الامدادات الغيبية النورانية التي ما انفكت تؤثر على كل معلوم ومجهول . بتسييره في السبيل الميسر له والمختص به لارادة البر الرحيم بوجوده كما سبق في علمه القديم . وكذلك ما برحت عاملة بسريانها الروحاني في عالم الادراكات الكامنة بذوات الصدور تنقش على صفحات الافئدة المتحفة بانوار هذا الجلال والجمال آيات الهدى وبينات الارشاد . واذاك بقيت الاميال والاشواق تنبعث في قلوب الرجال الموقنين البررة جيلا بعد جيل نحو هذا الرسول الكريم . عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم . وهو باعتنائه الكامل واهتمامه التام بهؤلاء الاعيان ما انفك مؤثرا عليهم بتربيته الايمانية . ومتعهدا لهم بارشاداته التوفيقية الروحانية . بذلك السريان النوراني الساري من حضرته العلية إلى أعماق أفئدتهم ، أي سريان « السر الاعظم » الحاوي لما هو معلوم لله الباري . وذلك لاجل تحقيق الغاية المقصودة من إقامة هذا الوجود في نفس كل موجود . وعند هذا المقام . تذكرت مرشحا مدحت به هذا الجناب والمقام . وتذللت به في طوافي بدار الغربة حول هذا البيت والركن والمقام . ولمناسبته الموضوع . أدرجته تخليدا لذكراه في هذا المهيع المشروع . وهو

رامني رام وما رام رمى * بسهام ما رماها بقسي
فؤادي قلبا غوى لم يسر ما * بالحجا رب الحجا لم يقس
يانفسي ما دهاها من نصب * حيث ولى الانس عنها وانثنى
وصباها غادر عنها رغب * بعد ما جرعها كاس العنا
راعها الرفق بها يالعجب * بؤسها للصعب أنس يقتنى
فتمادت تعذل القلب وما * بؤسه إلا بعذل الانفس
فغمام الجفن من ذاك همى * وروى زهرا ذوى من نرجس
معشر العشاق طبتم من ثقات * هل هويتم والهوى فيكم عذول
أنا أهوى والهوى مني ثبات * ونفور واعتراض وقبول
فاعتراض النفس خسر وفوات * وقبول القلب ربح ووصول
لست أدري مسلكي بينهما * ضاع رشدي بالجوى الملتبس
أين صبري والتقى أين هما * خلفاني تائها في حندس

جرت في حكمك ياقاضي الملام * هل تراني مذعنا ألقى السلاح
قد كفتك النفس حرب المستهام * فهي خصم في الحشا هز الرماح
كف عني لا تلمني في الغرام * فالحشا مني ضرام وجراح
لست أصغى والتزمت الصمما * فالتزم عني حدود الخرس
ما بكاني جفنك اللاهي وما * رق لي قلب عنيف ومسي
جئت تبدي لي لدى الخطب النكير * تدعي النصح بتزويق الخطاب
ما كفاك الصدر مني في سعير * قد رمى الجسم بنصب وعذاب
ما أرى لي من نجاة في المصير * غير صدق الحب من بعد المتاب
وابتهالي عند من منهم حمى * قلب صب دنف مبتئس
برحيم الخلق ياأهل الحمى ال * رحب رقوا للخيال المكتسي
أين ألفي لي طبيبا ماهرا * يذهب الضير عن القلب سواكم
بات جفني في هواكم ساهرا * يكتم الدمع فيبديه هواكم
إن علتم لي ضميرا طاهرا * نحوكم منوا وجودوا برضاكم
لو درى العاذل من أهوى بما * كان يهذي في الهوى لم ينبس
أنا أهوى من له أهل السما * للثرى طوعا هووا بالأرؤس
أنا أهوى حضرة فيها انطوى * سر هذا الكون في رمز الغيوب
نحوها أسرع بي داعي الهوى * فله بالقلب ركض ووثوب
علم الحظ قصدا فاستوى * في فؤاد ضاع في بحر الذنوب
جل ربي إن ذا فضل هوى * من كريم المعي القبس
جئته بالحب عبدا مجرما * قد ينقيني به من دنسي
مبتدا الحسن به والمنتهى * منه طيب الفتح والختم يضوع
انبل الرسل بأخلاق النهى * اصلهم بدءا فهم منه فروع
دابه الرفق ويسمو بالبها * طاب نفسافي جلال وخشوع
قوم المعوج اروى هما * طمئت من عذبه المنبجس
قوض الشرك وانجى امما * ضمها ناب الضلال النجس
رحمة الرحمن عنوان الخلاص * ورفيع الليث بالليث يسود
ولطيف العطف شهم في القصاص * ينتضي العزم إذا حد الكدود
ومجيد النفس لا يزري انتقاص * بمزاياه وفي المجد الصعود
ينجز الوعد ويشفي ايما * الم منه لطيف الملمس
شيم قيه تعالت سيما * طهره الذاتي وطهر المغرس
عين نور الحق ينبوع الصفا * سلم الصدق سراج الاهتداء
بهجة الاكوان نبراس الوفا * صفوة السر صراط الاقتداء

بحر حلم وعلوم واصطفا * وانتهاء في حدوث الابتداء
خص بالاسراء فاجتاز السما * وارتقى فوق الجواري الكنس
خص بالقرآن ذكرا محكما * ومنار الرشد الملتمس
تاج إعزاز على هام التقى * ضاء قلبا في هجوع ونهوض
فهو سر الذات بالكس التقى * وجمال الكون في طي الغموض
وصفه الاسنى جلال الارتقا * كيف تحويه موازين العروض
ما كفاك الله زكاه وما * لله زكى خير كل الانفس
جئته صبا عليلا معدما * ووطابي كوطاب المفلس
يا رؤوفا بالورى خذ بيدي * ضاع رشدي بين بؤس وانزعاج
وامنحوا الصب الرضا ياسندي * فرضاكم يورث القلب ابتهاج
عللوني او أفيضوا مددي * لي لديكم بالرضا نوع العلاج
وعلى داتي فشدوا المرهما * إن دائي إن طغى مفترسي
كيف يطغى وهواكم حسبما * قد علمتم في الحشا كالقبس
بعتكم صالح فعلي بالرضا * هل رضيتم إن فعلي لسقيم
إن رضيتم ذاك نهجي لي أضا * واستوى السير بخط مستقيم
وإذا حسي تلاشى وانقضى * راق سري وسعى مني المقيم
ارفقوا بي وانصبوا لي سلما * للترقي وانتقوا لي ما بسى
أو ردوني حوضكم يوم الظما * ومعينا من دهاق لا كؤس
هاكها ياكنز إبداع لازل * بهجة تخجل إسنار العريس
فاح منها عنبر الاشواق بل * طامة تزري باشراق الشموس
صاغها ذهن أسير معتقل * في هوان الغي من بغي النفوس
يا إلهي باسم سرقد سما * صل في محراب أنس القدس
وأفض ذاك على المختار ما * أزعج الفجر نجوم الغلس
وعلى الاصحاب والآل البدور * من إليه ارتكنوا أي ركون
والتجاني قطب أقطاب الدهور * ومدد الكل في طي السكون
واسقني كأس الهوى أين تدور * علني صحبة من أهوى أكون
للعلى خذ همة لي كلما * أودمت ثبطها فعلي المسي
طهر القلب بصدق لانتما * واجعل الحسنى ختام النفس

﴿ إبـــداء وإعـــادة ﴾

النقـــد على «الاسـم والسر الاعظمـين»

١ ـــ قبل أن نفارق الكلام باتصاله على « الاسم الاعظم » و« السر الاعظم » يجدر بنا أن نبدي ونعيد عليه النقد بمناقشة الآراء إن كان ثمة آراء شخصية . وتوضيح المصادر التي لا تقبل النقد بحال مثل مصادر الكتاب والسنة والكشف المقتبس من نور صاحب العصمة عليه الصلاة والسلام ، وهو الكشف الذي لا يناقض الكتاب والسنة الصحيحة بحال

٢ ـــ والمراد بهذا التعقيب الذي سنردف به كل موضوع وموقف هام من مواقف هذا الكتاب تنوير بصيرة القارئ اللبيب في فهم مستندنا الصحيح في ما نعتقده ونتبعه فيكون في حرز حريز وأمن من أن تزعزعه عواصف الانكار بأول نظرة بسيطة في موضوعاتنا المؤلف منها « الابداء والاعادة »

٣ ـــ لا نريد بهذا التعقيب مقاومة أجناس المنكرين او اسماعهم دعوة الحق الصريح لعلهم يرجعون إليه فلقد قال في هذا الشأن حجة الاسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى يشير الى المنكرين على اولياء الحق « واياك ان تشتغل بخصامهم « وتطمع في إفحامهم فتطمع في غير مطمع وتصرت في غير مسمع » . فما صرح بهذا التصريح حتى عانى من المنكرين ما عانى . وانما أنشودتنا الوحيدة خدمة المسلك المحمدي الذي نحن سالكوه بنعمة الله علينا وعلى أهله . وحفظ عقول الضعفاء مثلنا من الزيغ والانتكاس على الاعقاب . ولتكون هذه معذرتنا إلى الله ولعله يهدي بها سبحانه اليه من ينيب

٤ ـــ لا نبحث في هذا الوقت في خصال الانكار والمنكرين بل أرجأنا ذلك الى مبحثنا الاخلاقي من هذا الجزء . ولكن نلاحظ ان جمهور المنكرين متفق على القول في مواجهة كل موضوع من موضوعات الصوفية بلهجتهم التهكمية «ايتونا بدليل من القرآن العظيم أو سنة النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم » . والواقع منهم شاهد على أنهم منغمسون فيما يأباه الكتاب والسنة انغماس فرعون وآله في اليم .

٥ ــ يردون اقوال الرجال على وجوهها . لان الحالة في اختلاط حاباها بنابلها قد شوهت توجهات هذه الاقوال في نظرهم . ولان النور لا ينعكس إلّا إذا صادم جسما صقيلا ، فكذلك يجدر بك أيها الاخ ان تتذكر عند هذا الموقف ما أجيب به صاحب العصمة عليه الصلاة والسلام من طرف المكذبين حيث قالوا « لولا أوتي مثل ما أوتي موسى » . فلقد اعاد الله مسؤولية كفر من عاصروا موسى عليه السلام وأوقعها على كواهل من عاصروا نبينا صلى الله عليه وسلم وصيرها كأمة واحدة عاشت في العصرين . وردت نبوءة الرسولين . فقال « أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل » (١). فكذلك معاصرونا بإنكارهم لقد ردوا على رجال هذا السبيل وهم السلف الصالح . وهم يقولون الآن أقيموا لنا حالة السلف الصالح واستقامتهم . أفما هم الذين آذوا من سلف من الصالحين وقالوا انهم ضالون فقد صدق الله العظيم « وقد خلت سنة الاولين » (٢).

٦ ــ يقولون ان الكتاب والسنة هما الدين الصحيح . فلا نتبع بعدهما قول احد من الخلق كائنا من كان . وان هذا لنعم القول ونعم الاتباع . ونحن نقول مثلهم . ولا نرغب عن الدين الصحيح . لانا إذا رغبنا عنه نكون من الخاسرين . بل القرآن العظيم والسنة النبوية الثابتة هما أساس اعمالنا وكافة توجهاتنا لهذه الدنيا وللاخرى . ولكن عند تجسيم معاني تلك الالفاظ القدسية منهما يتبين المحق من المبطل من الفريقين . ولكن هذا التعقيب لا يظهر إلّا في الآخرة « وربك أعلم بمن اتقى » (٣) . فلينتظروا إنا منتظرون

٧ ــ نقول تجسيم معاني الالفاظ الواردة في الكتاب والسنة . أي تحقق الاوامر والنواهي في القلوب . وتوقيف كافة الاعمال الدينية والدنيوية على مراجعتهما . إن هذا القول هين على الالسنة والاقلام . ولكن هل ترتاع الافئدة عند مواجهة حقيقته الوقادة ؟

٨ ــ نحن لا نقول إن احوال الصوفية ومظاهرهم التي تنكرونها هي من الدين وصرح بها الكتاب والسنة حتى ياخذوا في جلنا على الاتيان بالادلة من القرآن والحديث . بل نقول لهم كما قال سلفنا الاولون عليهم الرضوان . « معارف الصوفية وعلومهم وكشوفاتهم واحوالهم النورانية هي دور ثالث نتج عن دورين اثنين . اولهما العلم بالكتاب والسنة . وثانيهما العمل بهما . أي تجسيم معانيهما في حركات الذوات وسكناتها . فهذا المظهر الثالث بنسبة تولده عن العمل بالكتاب والسنة يمكن ان نقول انه منهما و بنسبة حصوله مستقلا وكونه غير واجب شرعا على كل مكلف اتباعه يمكن ان نقول إنه خارج عنهما . ألا ترى ان الشبع نتيجة

(١) سورة القصص . (٢) سورة الحجر . (٣) سورة طه

الاكل . والري نتيجة الشرب . فاذا تمكن لك القـ ـول ان المأكول هو الشبع . والمشروب هو الري فقل ان التصوف هو الدين ولا عليك من حـــرج

ومن هنا يتضح لكل عاقل ان الشبع هو المقصود من الاكل لا الاكل ولا المأكـول وان الري هو المقصود من الشرب لا الشرب ولا المشروب . فبأي مبرر بقي لنـا أن نعين بعد الدين من غير الدين . او الشريعة من دون الحقيقة ؟ او نفضل شقا على شق بتلك المناقشة الفاضحة لاربابها بين يدي الحق تعالى

ولكن لنتساءل هل الاسم الاعظم موجود في الكتاب والسنة ؟

وهل هو من الدين ؟

فالجواب على ذلـك

١ ــ إن الاسم الاعظم الكبير الذي هو اسم الذات المقدسة الخـاص بها موجود في كل سورة وجزء من سور واجزاء القرآن وفي غالب آياته . وسار فيه سريان الماء في العود الاخضر . ولا يظهر في شكله الخاص إلّا لارباب الاختصاص الذين اكرمهم الله بمعرفته وميزهم بنعمة ادراكه . فبهذه النسبـة نقـول ان القرآن نطق به . فهو من الدين . ويتلوه كل قارئ للقرآن في الصـلاة وفي غيرها . ولا تصح الصلاة إلّا بوجوده فيها . اما ثواب مرتبته السامية فانه لا يمنح إلّا لمن عرفه مستقلا . وحازه باذن خاص من عند ارباب الاذن فيه

و بنسبة اخرى يمكن لنا ان نقول ان معرفته ليست من واجبـات الدين التكليفي الذي امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بتبليغه لكافـة النـاس . وانما هي رتبة تحدث لارباب تجسيم معاني الدين في انفسهم . فهو شأن خاص ينالـه ارباب الاختصاص . بسابقية فضل الله عليهم

وقد عرفه صلى الله عليه وسلم بما انه هو عين مرتبته والقائم بتجلياته الكبرى ولما كان سرا من اسرار الربوبية كسر القدر والروح كتمه صلى الله عليـه وسلم عن العموم ولقنه لجماعة من خواص الصحابة الكـرام عليهم الرضـوان لاسيما الخلفـاء الاربعة وامرهم بكتمانه عن العامة والخاصة إلّا لمن أهله الله لمعرفـه بسرايـة الاذن والاختصاص والفضل بيد الله يؤتيه مـن يشاء

فوجود الاسم الاعظم في القرآن حيث يعرفه جماعـة من العـارفين وهو غير اسم الجلالة كما سبق معنـا دليل محسوس لمن شعر به على صفاء اذواق الصوفية الصادقين وكفى به تبكيتا لجاهلي رفيع ادراكهم وما هم عليه من تمام الانابـة في السر والعلانيـة

وليبقى هذا السر مكنونا أسبل الله اردية الغفلة بينه وبين الخلق . حتى ان جمهور مفسري القرآن وجهوا تفسير الفاظه الى عكس المراد منها ومن يعرفـه منهم لاحظ عليه بما يزيده احتجابا واستتارا طاعة لمراد الله في كتمانه عن غير اهله الصالحين

٢ ــ فإذن كل مسلم مصل هو متحقق بتلاوته في الصلاة فلا تصح صلاته بدونه فهو من الدين . في حين أنه غير مكلف بمعرفته لانه سر مكتوم من اسرار الربوبية التي لا تظهر إلّا لاهلها وأرباب أذواقها ، فتلاوته ضرورية ومعرفته كمالية

٣ ــ لم يكلف الدين احدا بمعرفته كما أنه لم يكلف المومنين من الاعاجم بفهم جميع ما يقرأون في صلاتهم وما يتلون في مصاحفهم من التنزيل العربي المبين. فما بين الاعجمين و بين العربية من مشاق دروس اللغة بفنونها المتعددة والابحاث العميقة والعمليات الاكيدة لفهم آي القرآن حق فهمها هي نفس المشاق التي توجد بين العالم العربي السليق وبين معرفة الاسم الاعظم من إجراء عمليات ما علم تخلقا وتحققا . فإذا عمل بما علم من ضروريات دينه وصل الى تخوم هذه المراتب الكمالية من المعاني والمعارف الاحسانية

٤ ــ ولكون الاسم الاعظم مكتوما مكنونا لم يرد فيه تصريح لا بالقران ولا بالحديث كما لم يرد فيهما التعريف بكافة الانبياء والرسل « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » (١) . والمعنى يعود على كافة المحجوبين . « واياك أعني واجارة » ، واما حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم فإنه عالم بهم واحدا واحدا في خاصة سره لكمال عرفانه . و زاخر امداده

٥ ــ لما لم يرد تصريح ولا اشارة صريحة الى وجود الاسم الاعظم وما ضارعه من الاسرار المكنونة لا بالقرآن ولا بالحديث الصحيح فليس من الانصاف الاسراع الى إنكار وجودها بالمرة بل يجب النظر قبل كل شيء في مأمورية القرآن الحكيم ومأمورية السنة النبوية في هداية الخلق وبسط الحق . فاذا علم أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أرسله الله بالهدى والكتاب وليبين للناس ما نزل إليهم وأتى بدين يحوي حسنة الدنيا وحسنة الآخرة في آن واحد . وقام بهذه المأمورية بين أمة أمية جاهلة ذات افكار بسيطة وعقول ساذجة وجب بالبداهة استجلابهم واستمالتهم للدين ببساطته الاصلية . والكلام معهم على قدر عقولهم فكان من المستحسن ترغيبهم في الاستفامة بالنعيم الاخروي الذي يعرفون محسوسه في الدنيا من مأكل ومشرب وملبس ومنكح . وترهيبهم بالعذاب الاخروي الذي يخشون محسوسه في الدنيا من أليم عذاب الحريق. حتى اذا ذاقوا حلاوة الايمان ولازموا و واظبوا على اعمال الدين الاساسية المادية والمعنوية وتأدبوا بآدابه في السر والعلانية يحصل لهم الذوق العرفاني التابع للايمان في زيادته ونموه. وتأتي النتيجة القصوى المقصودة من الدين و بسطه للعالمين . وما كل الناس مستعدون لقبول هذه النتيجة النهائية لضعف العزائم البشرية عن صدق القصد في التزكية

(١) سورة النساء

النهائية . وقد وصفها الله تعالى بهذا في غير ما آية من التنزيل المبين . فقال « وخلق الانسان ضعيفا » (١) . وقد عين تعالى ايضا قلة أرباب العزائم فقال « وقليل من عبادي الشكور » (٢) . « وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » (٣) . فمراد الله من الناس كحكمة يحويها علمه القديم فئة صادقة القصد تكون آنا بعد آن قد يصطفيها للاطلاع على بعض اسرار ربوبيته ومواهب ألوهيته ويجتبيها كالخلص عبوديته . كما أن له مرادا في فئة يختصها الاختراع والاكتشاف في نطاق الطبيعة والمعارف والعلوم المادية من صناعية وفلاحية وحربية وما يقوم بنظام المجتمع الانساني في هذه الحياة . « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم اعمالهم فيها وهم « فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلّا النار وحبط ما صنعوا « فيها وباطل ما كانوا يعملون » (٤) . وتدبر قوله جل من قائل « من كان يريد « العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * « ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مومن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا « نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك * وما كان عطاء ربك محظورا * انظر كيف « فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » (٥) . فهذا المدد المصرح به في هذه الآية الكريمة هو نفس الاسرار والمواهب الربانية الخارجة عن نطاق العقل وادراكها . وهي أنوار لا تحويها ألفاظ اللسان . ولا تصورها عبارات الاقلام . وتلك التعاليم الصادرة من مشكاة النبوة بصفة خاصة إلى خواص من العباد المومنين هي من هذا الصنف الامدادي الذي يظهر بعد السعي للآخرة بسعيها الخاص بها . فالمنصف لقائلها مسلم لها . وتسليمه يوتيه أجره في عاقبته بمشاركة أهلها ومجاورتهم . والبالغ عندها فائز بحظه الموفور . والمكذب بها محروم وهو أجهد الناس تعنيفا لوساوسه يوم يرى الحقائق تتجلى ببصر حديد

٦ — إذا كان الامر سرا خاصا كهذا فليس من التكاليف الدينية اعتقاده ولا تتبعه وفي تسليمه لاربابه او العكس محل النظر لان إنكار وجود السر الغيبي الذي هو من شؤون الاله والذي يأتي له يوم ينكشف فيه عنه الغطاء يؤدي إلى الندامة الاليمة . ومن سقط في يده يوم الدين يكن في شغل عن هواجسه وفضوله ويود لو أن بينه وبينها بعد المشرقين . فمن هذه الحيثية وجب تسليم الاسم الاعظم لاربابه الاختصاصيين به . واعتقاد وجوده بنية الاستمداد من بركته الوهبية وأسراره الربانية الاحاطية

(١) سورة النساء . (٢) سورة سبأ . (٣) سورة ص . (٤) سورة هود . (٥) سورة الاسراء

٧ — ودليلنا على وجود الاسرار الخاصة مثل الاسم الاعظم التي لا تلقن إلّا للخاصة من صالحي المومنين ما ورد في صحيح البخاري ونصه

« حدثنا إسماعيل قال حدثني أخي عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن « أبي هريرة قال حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين فأما أحدهما « فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم »

٨ — ودليلنا أيضا على وجود الاسم الاعظم وكونه سرا خاصا اختص الله بمعرفته بعض الخواص من اصفيائه المومنين اطلاع اولياء الله تعالى عليه وعلى ألفاظه ومواضعه الصريحة من القرآن والخفية وعلى تراكيبه واسراره ومواهبه . وهو متبادل لديهم متوارث التلقين فيما بينهم . لا يستعملونه إلّا في ذكر مسماه تعالى ومزيد التوجه إليه بالعبودية الخالصة . وهذه درجة عليا في معرفة الله تخلف عن الوصول إليها أهل الظاهر والمنكرون . وسيكون تخلفهم عليهم حسرة . ثم يوقنون أن الله يجتبي من يشاء ويهدي إليه من ينيب

٩ — وليس في القرآن ولا في السنة الصحيحة نص تلويحي أو تصريحي يقضي باستحالة وجود هذا الاسم الكبير للمولى تعالى . فليس لمنكره أي مستند صحيح ما عدى الميزان العقلي المتعرض لاخطار الخطإ في كل حين . او المكابرة التي هي في الحقيقة آخر ما في جعبة المعاند العاجز المنهزم

١٠ — وعلى ذكر الاستناد إلى الميزان العقلي . ونصوص الكتاب والسنة . والكشف الصحيح تولد لدينا من مجرى الحديث ثلاثة مباحث يجب علينا قبل الخوض في شؤون « السر الاعظم » أن نبسطها بنظام الابداء والاعادة

إبداء قصور العقل الانساني

إن العقل الانساني في نظرياته العلمية مادية كانت أو معنوية غير معصوم من الخطإ والقصور عن إدراك الصواب ما لم يكن لديه نص مادي في الماديات كقولنا « الواحد نصف الاثنين » . أو معنوي في المعنويات كقولنا خالق العالم واحد إذ « لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا »

والداعي إلى قصور العقل الانساني اختلاط نورانيته بأبخرة العنصريات المتركب منها جسد الانسان . فهذه العنصريات المادية آخذة بزمام العقل تسيره حسب عجزها وقصورها . وتضطره إلى الوقوع في الاغلاط الاعتقادية والعملية بطبيعة حالها

وقد أقر بهذا العجز والقصور كافة العقلاء في كل عصر من ماديين ومعنويين

ولنورد هنا مثالا من قاعدة ابتدائية في علم الجغرافية تصور لنا كيفية قصور العقل الانساني عن تحقيق بعض المواد الطبيعية بصورة ثابتة . وهي أن الليل والنهار جزآن يتركب منهما الوقت يعرف أولهما بغياب قرص الشمس وثانيهما بطلوع الفجر . وفي الدروس الابتدائية من الجغرافية تمثل الارض بكرة في الفضاء ترمي عليها الشمس أشعتها النورانية فتصيب منها جانبا و يبقى الجانب الآخر مظلما . وفي انتقال النور والظلة يتقلب الليل والنهار . فغاية العبارة ان هذا الانسان الذي يعيش في الارض و يرى الليل والنهار يتعاقبان الذهاب والاياب بغروب الشمس وشروقها كيف يقبل عقله الاعتقاد بأن الليل والنهار لا وجود لهما في الخارج . وانما الفضاء الكرني الاحاطي يسبح بعوالمه في براح لا يوصف بالليلية ولا بالنهارية ولا بالظلمانية ولا بالنورانية وذلك عندما يمثل نفسه خارج النظام الشمسي ينظر عن كثب . وقد تنعدم عنده الكيفية والمركزية والجهات الست بانعدام المركزية . ويبقى حائرا كيف تكون الفوقية والتحتية للخلق المعمرين للجهة التي تقابله من الكرة . فبحسب حسه هم واضعون أرجلهم في مقابل وجليه ورؤوسهم إلى أسفل وهم بحسب حسهم يعتقدون العكس . فتأمل هذا القصور العقلي مع المحسوسات الذي ارتاح له الناس واستأنسوا به لطول المدارسة والمساكنة ولم يصدهم ذلك القصور عن أن يجادلوا فيما استتر عن شهودهم من معلومات الله

ولقد عللت عقول العلماء الباحثين في طبيعيات الاكوان وقوف الكواكب كالشمس والقمر والارض وما ملأ الفضاء من النجوم وامساكها لما فوقها من الموجودات بالجاذبية العامة . واذا قيل لهذه العقول ما هذه الجاذبية هل هي محسوسة أو مغيبة يقولون هي قوة مغيبة جارية بين المحسوسات تجذب بعض الكواكب إلى بعض كما يجذب المغناطيس الحديد وبذلك تكون سيرها في دوائر افلاكها . وما لهم على هذا التعليل من دليل محسوس يقع على هذه الجاذبية الخفية مباشرة إلّا ما هو في القياس الخارجي كجذب المغناطيس للحديد . ولكن ما لهم اليها من وصول بالمشاهدة والملامسة . وهذا من أبشع ما يكون من فضائح قصور العقل . لان تكون الكواكب وكونها متماسكة في الفضاء عن السقوط أمر غيبي لا وصول اليه بنظرية محسوسة هي أقصى ما يكون من مقدور العقل . وان تجاسر العقل على تصوير معنى لذلك الامر الغيبي تقريبا لادراكه من غير مشاهدة فقد تعدى طوره وأوقع نفسه في مجاهل الريب والشك

ومن هذا النوع تفننات الاثريين المشتغلين بالبحث على طبقات التراب وفق فن الجيولوجي وما فيه من تقسيم الزمان قبل التاريخ . وكيفية حياة الجماد والحيوان والبشر حتى توصلوا الى اختراق أطوار الغيوب التي خلق الله فيها السماء والارض فقالوا ان الارض انفصلت عن الشمس كرة من النار تلتهب مثل الكواكب الاخرى ثم أخذ سطحها يبرد شيئا فشيئا حتى تكونت الطبقة الترابية الموجودة الآن جيلا بعد جيل . في حين أن القرآن الحكيم يتلو علينا آياته الصريحة بإعجاز البشر في هذا المناخ حيث قال تعالى « ما أشهدتهم خلق السماوات والارض ولا خلق أنفسهم وما « كنت متخذ المضلين عضدا » (١) . فإن كانت أبحاثهم تمس بعض المواقف الخلقية بنوع من اليقين فإنها مع الاكثر محض ظنون وتخيلات عقلية قد تصدق وقد تكذب فلا مناص من التحيز عنها إلى ما يوافق النظر الصحيح

ومن جملة هذه الظنون والتخيلات ما ذهب إليه الفيلسوف الانكليزي داروين من القول بفلسفة النشوء والارتقاء التي أسسها على قواعد النظريات الجيولوجية فاتخذ سننا أضاف بمقتضاها كل مادة جمادية أو حيوانية الى أصلها في بدء الخلق حتى انه أضاف الانسان الى أصل القردة وأنه قرد ترقت أفكاره وتهذب نوعه فأصبح انسانا متمدنا بعد أن كان قردا متوحشا !

حصل كل هذا الغلط الفاضح من العقل لتجاسره على فتح أقفال الغيوب المستورة عنه بحجب الجبروت الالهية وهو على حال خبثه وتدنسه . ولكن المادة نفسها لم تدعه يذهب معها مذهب الظافر ببغيته من الحقيقة المحسوسة بل لا زالت في كل

(١) سورة الكهف

حين تذيقه من آلام العجز عن الاحاطة بأسرارها كل عذاب . ولهذا لم يدع الشارع للعقول مجالا في عدة مسائل غيبية كالروح والقدر ونفي الطيرة والعدوى وحرم تصديق الكهان ومقارفة السحر و رصد النجم لاكتشاف الغيب . وقيد العبادات بالثبت الحسي من غير تخمين ولا قياس عقلي فوقت للصلوات أوقاتها بتغيرات محسوسة من تغيرات الليل والنهار ولم يبح ذلك للساعات الصناعية ولا لخواطر البال . ومنع الاعتماد على الحساب والقواعد الفلكية في الصيام والافطار . ولم يعط للمجتهدين في التشريع إطلاقا تاما بل لاحية ما يسنون بل أوقفهم في معرض الخطإ والاصابة . فوعد المخطئ بأجر والمصيب بأجرين . على أن الخطأ والاصابة لا يظهران إلا في الآخرة

فالحاصل أن الميزان العقلي ان كان بقصوره مع المحسوسات غير كامل التصرف فيما هو ملموس ومنظور فهو في الغيوب الالهية أعجز وأقصر وأذل وأحقر . وما كان لبشر أن يوتيه الله الحكمة بعقله الممتزج بعنصريته ولكن بعقله الممتزج بنورانيته هو بهذه المثابة يستطيع اكتناه الاسرار المغيبة والاطلاع عليها فتظهر له تامة ثابتة لا يحتاج معها الى وزن أو دليل

و بهذه المناسبة ننقل هنا لسيدنا الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وعنا به مقالا نفيسا طويل الذيول ونصه

« قواعد العقل هي أمور حسية أو فكرية انحصر فيها وجود الاشياء من حيث ما ثبت وجوده أو وجب عدمه مطلقا من غير تقييد ولا اختصاص من كل ما عدى ذات الله وصفاته وأسمائه . فكل موجود منها لابد له من تناه وغاية وانحصار في القدر والكم وكيفية يباين بها سواه لونا ومادة . وهذا يعم ما صح فناؤه بعد الوجود وما ثبت بقاؤه أبدا . فكل ما خرج منها عن هذا المقدار لا يقبل الوجود ولا يصح ثبوته بحال. ومن قال فيه بغير هذا كذب و وجب تركه

« هذه احاطة العقل عند المنحصرين في سجن العقل . وعند الصديقين ان هذا الحصر في امر الله باطل محال . بل عند الله تعالى في أمره وعلمه ما لا يتناوله حكم العقل ولا يطيق حصره فيما حصر فيه الاشياء . وان الذي أوقع اصحاب العقل في هذا هو عدم ادراكهم لما وراء طور العقل فإنه سبحانه وتعالى اجل واعز من ان ينحصر علمه او امره في احاطة العقل . قال سبحانه وتعالى « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » (١) وقال جل جلاله « ويخلق ما لا تعلمون» (٢) . وفي مظهر المرآة الصقيلة مما يتجلى فيها للناظر امر يخرج الناظر عن قواعد العقل . فإن الظاهر في المرآة هو امر معلوم مجهول موجود معدوم مدرك غير مدرك وهذه الاحوال فيه تخرج امور

(١) سورة البقرة . (٢) سورة النحل

العقل عن الانحصار في طور العقل والحس . فإن حقيقة أمور العقل لا يتأتى فيها شيء واحد يكون موجودا معدوما في الآن الواحد . ويكون معروفا مجهولا في لحظة واحدة . ويكون مدركا وغير مدرك في آن واحد. وبهذا نعرف أن انحصار الأشياء في طور العقل والحس باطل . وكذا في الامر الحقيقي أن هناك امرا واحدا يتصف بصفتين متناقضتين في الآن الواحد لا يتأتى اجتماعهما في شيء واحد وهو الآن الدائم عند العارفين . فإن حقيقته استمرار وجود الحضرة الالهية بلا بداية ولا نهاية . ثم هذا الوجود الواحد يتصف بكونه قديما أزليا بلا بداية ولا نهاية ويتصف بكونه حادثا له بداية ونهاية . وهذا أكبر خروج عن دائرة العقل . فإن هذا الاستمرار إن أضيف إلى الحق سبحانه وتعالى كان كما وصف أولا . وان أضيف إلى الحوادث كان كما وصف ثانيا . وهو شيء واحد لا يقبل الاثنينية ولا يقبل المغايرة

« وهذا أيضا أكبر دليل على ما قلنا من عدم انحصار الاشياء في العقل

« قال بعض العارفين لما ظهرت الحقائق انعدمت فيها البدايات والنهايات . وعجب العقل بنفسه . وقال أنا الفلك المكوكب . ظنا منه ان ما ظهر من الحقائق هي منه وعنه وله وبه . فقالت له الرياضة الزمني وتعرف قدرك . وهذه الرياضة هي الانقطاع باطنا عن كل ما سوى الله . فإنه متى دام هذا كانت كل لحظة بالنسبة لما بعدها كنقطة في بحر في اظهار الحقائق والعجائب والتجليات والعلوم والمعارف الى لابد . فيعرف حينئذ ان لا شيء له مما رأى وانما هو مفاض عليه فقط . فان الله عز وجل حكم على نفسه ان كل من انقطع اليه بالاعراض عن كل ما سواه يفيض عليه سبحانه وتعالى في كل لحظة من العلوم والمعارف وتجلي الحقائق والاسرار والتجليات والمنح والعطايا والتحف ما يكون منه كل لحظة بالنسبة لما بعدها أعني الى اللحظة التي بعدها كنقطة في بحر . ولهذا أشار الجنيد (١) رضي الله عنه بقوله « من أقبل على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة واحدة كان ما فاته في تلك اللحظة أكثر مما ادركه في ألف سنة »

. . . . . .

« ولذلك كانت الصحابة لا يلتفتون الى الفتوى واستنباط الاحكام لاشتغالهم بما ذكرنا . ويردونها الى التابعين في بعض الاحيان

« ثم لنرجع الى ما نحن بصدده وهو ان دليل العقل على الالهيات من نفسه باطل اذا لم يستند الى النقل الصحيح . فان قيل ما وجه بطلانه . نقول اذا اثبت من الاوصاف ما هو ثابت عندنا بالنقل فلا فائدة اذن عنده لانه من تحصيل الحاصل

(١) هو ابو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج توفي رضي الله عنه عام ٢٩٧

واذا اثبت ما لم يرد به النص فلا يلتفت اليه لان الاجماع على عدم اطلاق اسم او صفة لم يسم الحق بها نفسه تصريحا او ضمنا

« فإذا فهمت هذا تبين لك بطلان وجه الدليل العقلي على الالوهية اذا استبد بنظره . وظهر لك أن الحجة القطعية في هذا الفن هو الخبر المتواتر لا العقل وحده لان النقل المتواتر قطعي بالاجماع وهو حجة الله على خلقه . قال عز من قائل « وما « كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(١) . وقال عز وجل « رسلا مبشرين ومنذرين ئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (٢) . الى غير هذا من الاخبار

. . . . . .

« واذا فهمت هذا علمت أن الوصول الى حضرة الربوبية والاطلاع عليها لا يكون إلّا من طريق النبوءة ، او بفتح من الله على بعض خواصه وكلاهما بعيد عن نظر العقل . ودليل صحة هذا الكلام أن الدليل النقلي معصوم من الزيغ والضلال قال سبحانه وتعالى « لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » (٣) . وأما الدليل العقلي فليس بمعصوم من الخطإ في كثير من قضاياه ، بل كل من استند اليه وأعرض عن طريق الخبر جملة لا تجده إلّا ضالا . ومن تأمل مذاهب أهل الضلال من هذه الامة وجد سبب ضلالهم تحكيمهم للعقل في كثير من الامور كقياسهم الغائب على الشاهد . وقالوا ما حسنه العقل فهو الحسن وما قبحه كذلك . وحكموا باستحالة العفو على الكافر وهو خطأ صريح حتى من جهة العقل . وهذا الفساد كله جاء من طريق العقل حتى نسوا ما هو مقرر عندهم في قواعدهم وهو أن من شرط القياس المساواة فسووا بين الفاعل المختار الذي عنده الاشياء على حد السواء في الخلقة ولا تفصيل بينها إلّا من عنده و بين خلقه العاجز عن نفع نفسه فضلا عن غيرها . وما جاء هذا الغلط إلّا من عدم التفريق بين الحكمة والمشيئة والغفلة عنهما عند تقريرأحكامهم ولو تفطنوا للفرق بينهما وتكلموا في كل مقام بما يناسبه لم يقعوا في هذا التخليط . ولكن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء . نسأل الله أن يصرف قلوبنا فيما يحبه و يرضاه آمين

« تفكرت قاعدة تهدم جميع قواعد العقل التي أسسوها من كونه يتوصل الى الالاهيات بأدلته من نفسه وذلك لان مدار العقل وادراكه وغاية وصوله المحسوسات ولا يقدر أن يجاوزها الى الغيب الالهي إلّا أن يستند الى غيره من خبر النبوءة . فإن فهم هذا تبين أنه كلما نصب العقل من الادلة على الالهيات من نفسه فهو غير مصيب . وانما الدليل عليها خبر النبوءة فقط كما قدمنا . فهو الاصل والدليل تابع له فقط

---

(١) سورة الاسراء . (٢) سورة النساء . (٣) سورة فصلت

« وغاية ما يحصل للعقل من دليله من نفسه حكمه بالاستحالة والامكان على ما يصله من دائرة المحسوسات. واما الواجب الوجود فلا يقدر ان يحكم له بشيء من جهة نفسه

« فإن قيل إذا لم يكن للعقل اطلاع على الغيوب وحكم عليها بنفي او اثبات من نفسه كما ذكرتم بطل حكمه كله ولم يخاطبه الحق سبحانه وتعالى بمطالبة النظر والاعتبار في بعض الامور. قلنا خطابه جل وعزله تنزل له بحسب دائرة وسعه وأودع فيه قوة ليفهم الخطاب و يتفطن لما يراد به ومنه ليكلفه فيعمل بمقتضى ما سمع. لا ليستند لنفسه في الاحكام. فلما أحس العقل بما أودع الله فيه من القوة المذكورة وأسمعه الله خبره الصادق على لسان النبوة أخذ يساميه وينسب لنفسه الاحكام الغيبية التي كانت محجوبة عليه قبل سماع الخبر فسمى حكمه قطعيا. والخبر اقناعيا

« والدليل على ان العقل لا وصول له الى الالوهية من نفسه ايضا لان ادراكه من بدايته الى نهايته المحسوسات. وهي في غاية المخالفة والمناقضة للالوهية بكل وجه واعتبار. فلا نسبة بين القديم والحادث. والعقل من الثاني فلا مطمع له في الوصول من نفسه الى القديم لما ذكرنا من عدم المناسبة بينهما وذلك ظاهر

« فإن قيل اذا صح ما ذكرتم عن العقل وانه لا يتجاوز دائرة الحسية وما ماثلها. و بطل وصوله من نفسه للغيب الالهي كما ذكرتم بطلت النبوة من اصلها و بطلت الاخبار الالهية جملة. لان صدورها لا يكون إلّا من نبي وهو بشر. وقلتم ان الانسان لا وصول له الى الالاهيات من نفسه بل لا يتوصل اليها إلّا من خارج وهو الخبر. وهذا الخارج لا يصح إلّا بخارج كما ذكرتم وكذلك هذا الثاني لا يصح إلّا بخارج ثالث. وهكذا فيؤدي الى التسلسل وهو محال

« قلنا لا يلزم ما ذكرتم من ابطال النبوة وابطال الاخبار الالهية وان بطل وصول العقل للغيب الالهي من جهة نفسه. وذلك لان النبي وان كان انسانا من جملة البشر فهو ليس كالبشر في كل وجه بل هو كياقوتة بين الحجر لان الحق سبحانه وتعالى باختياره ومحض فضله أودع في باطنه نورانية صافية في غاية الصفاء معارة له من حضرة الحق يشاهد بها المغيبات حسا عينيا. فهي له بمثابة البصر لنا فكما نشاهد المحسوسات ببصرنا فكذلك الانبياء يشاهدون الغيوب. فلا شك ولا ريب ولا غلط فيما يشاهدونه من الغيوب

« والدليل على هذا اخبارهم بالمغيبات. فإنه لا يقع فيها اختلاف ولو في ذرة واحدة. بل لا تقع إلّا على طبق ما أخبروا به في نفس الامر

« فإذا فهمت هذا تبين لك ان طريق الوصول الى الالهيات هو خبر النبوة فقط ولا سبيل للعقل اليها من جهة نفسه كما قدمنا

« وأما الدليل على صحة الخبر الالهي فهو المعجزة . والدليل على صحة المعجزة كونها خارجة عن طوق البشر . ولم تمكن معارضتها بوجه من الوجوه . ومعلنة بصدق محلها ومن أتى بها من نفسها لا من خارج

« فإن قيل يلزم مما ذكرتم من ابطال حكم العقل ووصوله من نفسه الى الغيب الالهي تغليط من تكلم في علم الكلام لأن مدار كلامهم في فنهم على حكم العقل وفيهم أئمة الحق والهدى من أهل السنة كالامام الاشعري والقاضي والاستاذ والقطب سيدي محمد السنوسي وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين

« قلنا لا يلزم ما قلتم في حقهم . لان من تأمل كلامهم رضوان الله عليهم وجدهم كلهم واقفين مع النقل الصحيح ولم يقل أحد منهم ببطلان الدليل النقلي . بل لا يقولون بصحة الدليل العقلي في غير المحسوسات إلّا اذا وجدوا له ما يعضده من النص بل أدلة العقل عندهم موضوعة للفهم في خبر الله وخبر رسوله . ولذلك اشتغلوا بتحريرها ليعلم منها أدلة النقل . ولانهم يقولون ان من يفهم أدلة النقل على الصواب لا يحتاج لتركيب الدليل العقلي . وانما يحتاج له من لم يفهم معاني الاخبار .

« وهذا دليل على ان مذهب اهل السنة رضي الله عنهم هو الوقوف مع النقول الصحيحة

« واما ما مالوا اليه في مبنى قواعدهم على الدليل العقلي في هذا الفن انما قالوا به حين فاضت المبتدعة فأرادوا الرد عليهم بما بنوا عليه أصلهم الفاسد قبحهم الله وظن اهل الحق رضوان الله عليهم انهم يسدون ما خرقته الفرق الضالة بأقيسة العقل وحدسه . فاتسع الخرق عليهم وكثرت الشبه . لان تخمينات العقل لا تقف على رأي واحد . فما صححه هذا يظهر بطلانه لغيره . وهكذا . ولهذا كثر الخلاف بينهم واتسع ميدان الكلام للمعاند . وهذا والله اعلم هو سبب ترجيحهم الدليل العقلي . ولا يظن مؤمن بأئمة الحق والدين انهم يقولون ان الدليل العقلي المتواتر غير قطعي في هذا الفن وغيره ولكن حاميهم حمية الدين ان يردوا على اهل الضلال بما هو اقوى عندهم فأداهم ذلك رضوان الله عليهم الى ان رجحوا العقل وحضوا على تعليم أدلته فكثرت الشبه ووجد المعاند فسحة للكلام

« ورضي الله عن الامام احمد بن حنبل حين كان في زمان محنة اهل السنة اذا كلمه المعتزلة بأدلة العقل يقول ما ادري ولا يكلمهم إلّا بما يقطع حجتهم ويسكتهم من كلام الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم . لانه حد محدود لا يقدر المعاند على هتكه . فليس له إلّا الانقياد له او يبقى على عناده من غير تلبيس الحق بالباطل بخلاف الدليل العقلي فإنه دائما يجد التلبيس فيه

« فإن قلتم يفهم من هذا أن أئمة الكلام لم يعلموا ما كانت عليه الاوائل حيث كان يفحم الخصم وتقطع حجته جملة من غير تعب وعدلوا عنه الى ما يجد الخصم فيه متسعا للكلام كما قدمناه قلنا حاش لله أن ينسب فرسان العلم من اهل الحق لعدم العلم لما نفهمه ونحن في غاية القصور ولكنهم عدلوا عما وقفت عنده الصدور الاولى والله أعلم لامرين . الاول ما قدمناه من ردهم على أهل الضلال بما رأوه انه الاقوى عندهم ظنا منهم انهم اذا ارتكبوا هذا يردونهم على ضلالتهم فاتسع أكثر فلهم من الله لاجر لانهم اجتهدوا بوجوه التحيل لرد الضالين عن ضلالتهم فلم يقع إلّا ما أراده الله . الثاني قال بعض اهل الحق ليس للعالم ان يعلم كل مسألة ولعل فحول الائمة غفلوا عن هذه المسألة وهي ما كان عليه الاوائل من الوقوف مع النصوص الصحيحة وتركهم تخمينات العقل لئلا يكثر الضلال في الامة وقد وقع قال الله تعالى « ليقضي الله امرا كان مفعولا » (١). ولان العالم غير معصوم من الزلل فقد قال مالك (٢) رضي الله عنه « كل كلام يؤخذ منه و يرد إلّا كلام صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم » . وقد يعلم الله المتأخر ما لم يعلمه المتقدم . قال صلى الله عليه وسلم أمتي كالمطر الخ الحديث »

انتهى المراد من كلام سيدنا الشيخ رضي الله عنه وارضاه وعنا به . وهو كلام نفيس في بابه . وقد تمحض لنا من زبدة الموضوع خلاصة تنحصر باختصار في نقطتين

١ — لا مجال لحساب العقل وتخميناته في قبول ورد شؤون الغيب واخباره إلّا اذا كان بيده نص منقول من حضرة الغيب بواسطة النبوة

٢ — ولما كانت أذواق الصوفية ومواهبهم وأسرارهم العامة والخاصة - كالاسم الاعظم - من جملة شؤون الغيب فلا يمكن بعد تتبع أي مبحث من مباحث احوال القوم بالعقل المجرد . وعليه ان أنصف حضرة القاري فلنفارق ميزان العقل المجرد من هنا موجهين الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وجوه الانابة الصادقة والله ولي التوفيق

(١) سورة الانفال . (٢) امام دار الهجرة ولد سنة ٩٣ وتوفي سنة ١٧٩

كيف يكون الاستدلال بالكتاب والسنة ؟

ان ما هو محسوس في نظر الانسان قد يصل إليه عقله بواسطة الاحساس . وقد كان هذا الاحساس قائده إلى الاعتقاد في المحسوسات ، والعكوف على تتبع مواردها ومصادرها . حتى اداه إحساسه عند وصوله الى أقصى ما يمكن من مصادر المحسوسات وموارده الى الانتقال انتقالا تخمينيا الى ما وراء الاحساس . وصار يتخيل اشخاصا غيبية ، وقوى روحية . تجري فيما وراء المادة لاصدار خيرات المادة الى حيز الوجود . وهذا التخمين منه طبيعي الوقوع لانحصار حدود المادة وسعة خواطر العقل بنسبته الروحانية ، ولكن تخميناته هذه بالطبع كانت ايضا تنتهي في بيداء الاختلاق والتخيل بلا مبدإ صحيح في نفس الواقع . فاليونانيون ومن قبلهم من عبدة الاوثان والرومانيون بعدهم ومن كان في الشرق من البوذيين والبراهمة اجتزأوا على تتبع اسرار المادة حتى وصلوا الى حدودها عند مبدإ اسرار الغيوب من حيثية القوى الروحية فخاضوا في بحورها ما شاء الله أن يخوضوا وخمنوا بما في وسعهم من القوى العقلية في عجائب مظاهرها فأفاقهم عجزهم وبلغ بهم الشطط من الاذواق النفسية فلم يروا بدا من تجسيم تخميناتهم في قوالب المادة ليريحوا قواهم الفكرية من الاضطراب المعجز فيما لا مفهوم وراءه يثبت في صحائف الادراك . فكان اليونانيون يشكلون للقوى المعنوية آلهة بأجسام من صخر منحوت أو معدن مسبوك يقيمونها في الهياكل بين أيديهم ليؤدوا لها التبجيل اللائق باستمناح الامداد المرغوب منها . فكان لهم للحرب اله وللسلم اله وللحب اله وهلم جرا . وقد يجدر بنا ان نقول ايضا ان لاوائل المصريين مثل هذا المنزع في اضافة القوى المعنوية التي هي من عوامل الغيب السرية الى مؤثرات جسموها وسموها أربابا . وشكلوها أصناما في اشكال آدمية وحيوانية متجسمة لانظارهم ، وبالطبع كانت أربابا متفرقة بتفرق تخيلات أفكار مخترعيها

هذا مبلغ تخمين العقل البشري في تتبع ما وراء المادة من اسرار الغيوب إذا استبد بنظره واستقل بأفهامه المضطربة . وذلك لان الله سبحانه وتعالى جعل فيه قوة حب البحث . بل باعث وجاذب نحو المصدر الاصلي الروحاني للوجود . فهو بهذا الباعث والجاذبية الروحانية يبحث باهتمام . ولكن اجزاء المادة وما فيها من المشاكل المتراكمة بين يديه صيرته مضطربا قلقا لا يهدأ له بال . ولا يأوي إلى مبدإ صحيح حتى يأتيه بلاغ الحق من ربه فيكون حجة عليه في الدلالة إلى سلوك أقوم السبل نحو الحقيقة الوجودية بلا تعب ولا مشقة ولا مكابدة أوهام

وليكون هذا البلاغ الالهي مؤثرا في العقول البشرية كان من آحاد البشر له لمن حوله من بني جلدته وجهته المادية ياكل مما ياكلون منه ويشرب مما يشربون ، وله بحضرة الغيب وجهة الادراك والذوق فيتلقى من هناك الارشادات بواسطة الوحي الروحاني ليفيضها على هذا الوسط الانساني . ومن شرط هذا القائم بالبلاغ وهو المبلغ حقيقة أن يكون في عقله وصف خصوصي قائم به وهو عدم الغلط والخطإ والاضطراب والوهم فيما يتلقاه من حضرة الغيب . فان كانت العقول البشرية بأجمعها ـ ما عدى العقول المعصومة المخصوصة بهذا التبليغ ـ مصيبة في إدراكاتها المادية واحساساتها الطبيعية مخطئة فيما عداها فإن هذه العقول المتوسطة بين عالمي الغيب والشهادة مصيبة تمام الاصابة في ادراكها لما وراء المادة من الغيوب الالهية لا تخطئ في أي قضية من قضاياها ، غير أنها لا تخبر عموم البشر إلّا بما يهمها منها من أمور الترغيب والترهيب معلقة على العمل للرغبة والبعد من الرهبة وصول البشر عند انقضاء دور المادة إلى حقيقة الاذواق الغيبية مباشرة وبصفة أبدية قائمة بأعيانها

وقد كان خاتم المبلغين سيدنا محمد بن عبد الله رسول الله وعبده ومصطفاه من خليقته صلى الله عليه وسلم . فلقد جاء بدين الله الحنيفي ببساطة خاصة إبراهيمية . ولم يشأ أن يقلق العرب الاميين بتعداد عجائب الغيب واسراره بتفصيل وتبيين . لان ذلك أمر فوق طاقة العقول المحجوبة عن العصمة . بل ما أمر إلّا بتبليغ الناس أن يعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويوتوا الزكاة . وكان أهم شيء لديه تخويفهم من هول ما وراء الموت وحوادث المعاد . وهذا الاجمال أحق بإجماله من غير تفصيل لكون الوقوف عليه من كل نفس أمر واقع لا ريب فيه . فالاجمال باعث لتوجه الناس نحو نقطة واحدة بذاتية واحدة من أعلاهم إلى أدناهم

اهل القرآن من أوله إلى آخره وتدبر أحكامه . فما من آية فيه إلّا ولها بالتصريح أو بالتلويح تذكير للنفوس البشرية بوجوب الاهتمام بما في المعاد قبل كل شيء لانه حق وما عداه باطل . وكل ذلك باعجاز في البلاغة مع بسط الاشارة من غير

اتعاب للاذهان . فلم يبد للناس تحبيذا للمحسوسات إلّا ما فيه توجه نحو الغيوب فدلهم بخلق الارض والسماوات على وجود خالقهما . وبخلق أنفسهم على وجود ربهم . إيذانا بأن الدليل سبيل للمقصود من الوجود لا أنها نفس الوجود . ولذلك عد الدنيا متاعا زائلا ، وانها متاع الغرور . وأنها « كماء انزلناه من السماء فاختلط به « نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح » (١). فالقرآن يضرب الامثال لارباب الاحساس بحسب احساسهم ليفهموا بسهولة بلاغ ربهم . وبحصل المقصود من تنزيله على قلب النبي الامي بين الامميين

هو عليه الصلاة والسلام أمي بظاهر احساسه فيما يباشر به بني جنسه . أي لا يعلم من المحسوسات تراكيب الفنون الفكرية المعروفة عند العاكفين على متعلقات الحياة من علوم الجماد والنبات والحيوان واصطلاحاتهم التي ذهبوا في الشغف والاعجاب بها كل مذهب . وقد كان ذلك في ايامه شائعا عند احبار ورهبان الروم والفرس والقبط واهل الكتاب . كما أن ذلك الاحساس نفسه المخالف لطبع الامي خلف الدين بعد السلف . فانقلب التوجه المأمور به نحو حضرة الغيب إلى التوجه نحو المحسوسات والعكوف على متعلقاتها من الفنون والمعارف النظامية والاختراعية

فالامية في رسول الله صلى الله عليه وسلم طبع روحاني شريف يميز بين الحق والباطل والدائم والزائل . ويفصل بين نورانية توجهه الغيبي وظلمانية الفضول الاحساسي الساري في جميع الناس وان كان غالبه من المباح ، ألا إن صرف الوقت اليه تضييع لنفائس العمر فيما لا طائل تحته بالنسبة لعظمة ما يستقبل الناس من مشروعية صاحب البلاغ المبين أي حجته الكبرى التي يبسطها عند المعاد

ولولا أن لامية صفة سامية القدر بهذا المعنى لما بعث الله خاتم النبيئين أميا . وقد لازمه صلى الله عليه وسلم هذا الطبع ليتمحض فيه التوجه الغيبي بكافة تصاريفه

والحاصل ان الانشودة الوحيدة من مجموع التنزيل على المبلغ الاعظم صلى الله عليه وسلم انذار الخلق بين يدي عذاب شديد يحين وقته بغتة فتنقضي عنده المادة بجميع عناصرها . ويبقى الحكم لحضرة الغيب بجميع بنودها . وذلك أوان رفع الغطاء حيث يشاهد الناس بابصارهم الحديدة حقيقة ما كانوا به ينذرون . فمن كان في عصر المادة أعمى عن التوجه لحضرة الغيب يحشر فيها أعمى ضالا ضلالا أبديا ولله أن يتصرف فيه بمشيئته . والعاقل من يتصف نفسه بتعيين غاية التوجه في هذه الدار نحو وجهة الغيب ليكون من الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة

---

(١) سورة الكهف

فما جاءنا بواسطة هذا المبلغ الاعظم صلى الله عليه وسلم من كتاب أوحي إليه وحديث صح عنه هو بيان لكيفية العمل في هذا التوجه نحو حضرة الغيب فقد أمر بتوحيد الله الخالص . وهو الايمان الاعتقادي في القلب . وبالطهارة التعبدية و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة والاحسان الى الخلق وفعل المعروف والتباعد عن الفحش في القول والعمل . واجتناب المنكر والبغي والعدوان . وكانت الاحكام لاقامة الدين في العبادات والمعاملات تصدر بالتدريج عند حدوث مناسباتها فوافق ما للعرب من بساطة التعامل . فكان الدين لديهم بسيطا سهلا يعرفه الراعي في البادية كما يعرفه السري في الحاضرة

وهذه الاحكام الاساسية القائم بها منطوق القرآن والتي تم بيانها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في آيات محكمة لا اشتباه فيها ، وهي التي فيها أحكام الايمان والعبادات والمعاملات ، وهي أصول الكتاب وأمهات تشريعه . وذلك قوله تعالى « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم « الكتاب وأخر متشابهات * فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه « ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله * وما يعلم تأويله إلّا الله * والراسخون في العلم « يقولون آمنا به كل من عند ربنا * وما يذكر إلّا أولو الالباب » (١) . فالآية المحكمة ما ظهر ولم يختلف على الافهام وجوه مآخذها عند اتضاحها كالامر والنهي وما كان فيه الدليل محسوسا أو شبيها بالمحسوس كقوله تعالى « لو كان فيهما آلهة « إلّا الله لفسدتا » (٢) . فالمعنى في هذا الباب واضح لا يحتاج فيه العقل الى النظر والاستفهام . والمتشابه هو ما يعطي لفظه وجوها متعددة من المعاني التي وان لم يتصورها عقل واحد فقد تتصورها العقول الكثيرة لاختلاف أمزجة أصحابها . فهذا يفهم من قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » (٣) من المعاني غير ما يفهمه ذاك . ويرى ذاك ما لم يره آخر . وقد قيد الله تعالى معرفة معاني المتشابه من الذكر الحكيم بعلمه القدسي القديم فقال « وما يعلم تأويله إلّا الله » . وهذه النقطة من الآية نفسها كانت من المتشابه ، حيث أن الاقوال اختلفت في عطف « والراسخون » على « الله » وفي فصلها بجعلها مبتدإ بصفة تثبت العلم لله وحده بتأويل المتشابه . وحجة الذين أشركوا « الراسخين » في علم التأويل مع الله استبعاد حصول الخطاب من الله تعالى لعباده بما لا مفهوم له . وهذه حجة واهية لان في القرآن عدة ألفاظ لا مفهوم لها في العربية وهي فواتح السور التي ذهب المفسرون في تحليلها كل مذهب فلم يستطيعوا لها حلا . والثابت عن أساطين الصحابة رضوان الله عليهم الوقف عند قوله تعالى « وما يعلم تأويله إلّا الله » .

---

(١) سورة آل عمران . (٢) سورة الانبياء . (٣) سورة طه

والذين قالوا باطلاع الراسخين في العلم على معرفة التأويل فصلوا المتشابه إلى نوعين . أضافوا نوعا إلى علم الله . وخصصوا نوعا بامكان اطلاع « الراسخين » على تأويله . ولكن الثابت عن رجال السلف الصالح رضوان الله عليهم أنهم ما كانوا يتجاسرون على التأويل بأي حال بل يفرون منه جهدهم ويرونه فضولا وضلالا . فلقد سئل الامام مالك رضي الله عنه عن معنى قوله تعالى « الرحمن « على العرش استوى » فعرق وأطرق وصار ينكت بعود في يده . ثم رفع رأسه وقال « الكيف منه غير معقول . والاستواء منه غير مجهول . والايمان به واجب . والسؤال عنه بدعة . وأظنك صاحب بدعة » . وأمر به فأخرج . والسر في تباعد هؤلاء الرجال عن التأويل رسوخ قدم الايمان في قلوبهم . فعليهم يعود معنى قوله تعالى « والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو « الالباب » . فهم كانوا يقبلون بالمحكم من الآيات . ويعطونها حقها من التوجهات . ويفوضون أمر المتشابه لربهم الذي يتجلى عليهم بمعارف المتشابه فيصونونه عن غير أهله من أولي الالباب . بل يتركونه اذواقا إيمانية تتعرفها القلوب وتتحلى بها الارواح . وهم على حد ربهم باخلاص العبودية له عاكفون

ولقد سئل الامام مالك رضي الله عنه عن تفسير الراسخين في العلم فقال « العالمون العاملون بما علموا المتبعون له » . وهو معنى ما روي من أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل من الراسخ في العلم فقال « من برت يمينه وصدق لسانه واستقام به « قلبه وعف بطنه فذلك الراسخ في العلم »

وبدلا من أن يكون المسلمون وسطا لا إفراط ولا تفريط عندهم في اسلامهم لم بهم فإن عقول أكثرهم أثارت فتن الاختلاف والتنازع بعد انقضاء عهد الصحابة الكرام حيث نشأ الناس الذين مازجوا الفرس والروم والقبط وطالعوا فنون الفلسفة وأحكام العقل ومذاهب المفكرين الاقدمين وما لهم من أساطير الاولين . فاقتبسوا منها ما شاء الله أن يقتبسوا وترجموا كتبا عدها المتأخرون حسنة من حسنات خلفاء بغداد ، مع أنها في الحقيقة كانت فتنا متلاطمة كقطع الليل انتشرت بين صفوف المسلمين فألزمتهم بالانشقاق عن دينهم . يتتبعون المتشابه من كتابهم ولا يعملون بالمحكم . وهم في ما بين ذلك يحكمون العقل فيما لا طاقة له بالحكم عليه . حتى آل الامر إلى ما يتلوه التاريخ علينا من قصص الفرق والطوائف الاسلامية التي تنازعت الدين ورامت إتمامه بالتأويل وسلطان العقل بعد أن أتمه الله على يد نبيه صلى الله عليه وسلم بالتفويض لله والاستسلام له والايمان بالغيب

روى البخاري في باب « منه آيات محكمات » فقال « حدثنا عبد الله بن « مسلمة حدثنا يزيد بن ابراهيم التستري عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد « عن عائشة رضي الله عنها قالت تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية

« هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر
« متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة
« وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من
« عند ربنا وما يذكر إلّا أولو الالباب * قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم »

فالحق أن الدين الصحيح هو الموجود بين دفتي المصحف الشريف والمبلغ لاعظم صلى الله عليه وسلم هو مبينه ومفسره الوحيد الموثوق بتبيينه وقد أكمله الله على يده . وحاشاه صلى الله عليه وسلم ان يكتم تفسير خبر تحتاجه لامة في دينها المادي لمعادها الغيبي . وحيث اتضح في السنة الصحيحة انه صلى الله عليه وسلم بين ما تدعو اليه حاجة العموم للعموم وما تدعو اليه حاجة الخصوص للخصوص فالواجب على كل ذي لب طاهر ان يقف عند ما حده الله والرسول ويدع ما لا يعلمه لعلم الله و رسوله ولا يرده بميزان عقله فلربما يرد ما هو صدق عند الله داخل في ضمن المتشابه الذي استبد الله بمعرفته على القول الراجح او خص بعلمه الراسخين في العلم على القول المرجوح

لا ذهول عن القصد بعد اتضاحه في هذه الخطة . فإن المراد بالحدود هنا حدود لاسرار الغيبية التي حوتها الآيات المتشابهة . فما هو محكم من آي القرآن العظيم قد دل على ما دل عليه من التشريع في الاحوال المحسوسة للبشر من عبادات ومعاملات فلا كلام لنا عليها . لان الذين تصدوا الى تدوين الفقه قد وجهوها الى تبيين الحلال والحرام والمكروه والواجب والمسنون والمندوب . وانما الكلام على كيفية الاستدلال بما عدى ذلك على ما يجده الصوفية الصادقون من الاذواق والمعارف والتجليات في احوالهم التعبدية والتعاملية الجارية وفق منطوق السنة والكتاب . فهل لاحد من غير الراسخين في العلم — وهم كما علمت وصفهم آنفا — ان يستدل على صدق تلك الاذواق والاسرار او على بطلانها ؟ . او يتجاسر على التأويل في حين ان مذهب الصحابة والسلف الصالح عدم التأويل ؟

ان التأويل نشأ اول مرة عند معركة صفين بانشقاق الخوارج عن الامام علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه فنتج عنه انقراض الخلافة الصحيحة وظهور الملكية المؤيدة بالعصبيات المختلفة الاغراض . ومن ثم تسلسل التنازع ولعب ادوارا متعددة يحصيها التاريخ . وتفرقت لامة الاسلامية آنئذ الى مذاهب وآراء واقوال في الدين كلها اهواء واضطرابات عقلية اعتماداتها على التأويل . فكان بإرادة الله ان ما نهى الله عن قربه وارتكابه يتم به وبال ذهاب الدين وحدوث ضعف الايمان في القلوب . وتدهور المسلمين بفتن التأويل في مزالق الزيغ ومهاوي الفجور

في القرآن عدة آيات تصرح بصحة مكاشفات الصالحين من عباد الله بظاهر الفاظها ومعناها البديهي . وفي الحديث الصحيح من ذلك ايضا أمثلة متعددة . وسنأتي على المشهور من ذلك في المبحث الذي يلي هذا المبحث ، وهي نصوص صحيحة يصدق بعضها بعضا . وبما تقدم معنا في هذا المبحث نريد أن نفهم هذه النصوص بما يعطيه ظاهرها من المعاني متباعدين عن التأويل طاعة لله والرسول واتباعا لسنة السلف الصالح . ولما كان غالب هذه النصوص القدسية داخل في ضمن القصص والمواعظ المراد بها حمل النفوس على الاطمئنان لامر الله فالمأخوذ منها بصفة خاصة تعظيم شأن ما وراء المادة وكون الحق تعالى أراد بها سبك النفوس المكلفة في مسبك الاستسلام الصحيح لاحكامه التي لا ضبط لاجراآتها في عالم الشهادة فضلا عن عالم الغيب

***

وقد بقي علينا في هذا المجال أن نحل مشكلا واحدا يتم به البيان . وذلك انه قد ثبت معنا أن العقول عموما لا أهلية لها تامة الجوهرية بادراك الغيوب الالهية لان ادراكها لا يتعدى حدود المحسوسات

وثبت معنا أن هذه العقول قد تدرك الغيوب الالهية واخبارها بواسطة واحدة وهي واسطة النبوءة . وعليها ان تصدق بها بالبداهة بلا التفات الى التنازع الموجود بين الذوق الحسي والذوق الغيبي

وثبت معنا ان الايمان والاسلام اعتقاد وعبادة ومعاملة . والمقصود منهما تزكية البواطن البشرية وجعلها مستعدة تمام الاستعداد للحياة الغيبية الدائمة التي لا ريب في المصير اليها عند كل مؤمن

وثبت معنا ان للايمان حلاوة ذوق مراتب في زيادته ونموه تظهر عندها لارباب اسرار وعلوم ومعارف تتعلق بالغيوب الالهية لا يثق بها الحس لمعاكسته لها وانما تطمئن لها قلوب الذين آمنوا ليزدادوا إيمانا واحسانا في معاملة ربهم « ويزيد الله « الذين اهتدوا هدى » (١)

وثبت معنا ان هذا الذوق الاحساني قوة في اليقين تحدث بعد الاخلاص في العبودية لله تعالى وانه لا يلزم من عدم اعتبارها من مؤسسات الدين التجاسر على الحاقها بالمزاعم الكاذبة او بالبدع الطارئة في الملة بمحض ما يدركه الشعور الحسي من نفور عنصرياته الاصلية عنها

وثبت معنا ان الاقتصار على قوة العقل في تتبع اسرار الغيوب تكليف له بما ليس في وسعه القيام به لكونه مناقضا في اصل خلقته لهذا الذوق الاحساني

---

(١) سورة الكهف

ولما كان الحس العقلي لا سلطان له في إدراك هذا الذوق لا يلزم منه بطلانه. وانما المدار على منطوق الكتاب والسنة وموافقته له . وهذا المدار يحتاج الى كيفية الاستدلال . وهذه الكيفية الاستدلالية بصريح الآية الكريمة ممنوعة عن جميع الناس ما عدى « الراسخين في العلم » على القول المرجوح . أو ما عدى الله تعالى على القول الراجح . وهو مذهب الصحابة ومن تبعهم باحسان رضي الله عنهم أجمعين

فحل المشكل لا يكون إلّا بملازمة سنة السلف الصالح . بحيث أنه لا يسوغ لنا أن نحول الآيات والاحاديث التي تدل على صدق مشاهدات أرباب الايمان الكامل عن أصولها . ولا أن نؤولها تأويلا يحكم فيه العقل بنفي ما ليس بمحسوس عنده أو غير معقول لاحساسه . بل الواجب أن نقنع عقولنا بأن هذا الاحساس الوجودي فيها عرض دوري محدود بأولية وجوده ونهايته العدم . وما ذلك إلّا كلمح البصر أو هو أقرب . وأن الغيوب الالهية هي المقصودة بالذات من الثمرة الايمانية للتعرف بها فيما تبسطه حجة الله في شخص النبي وأتباعه الصادقين عليها

⁂

ومن جهة أخرى فقد لا يلزم من وجود الفضل الالهي الغيبي — كالاسم الاعظم والسر الاعظم — كونه مؤيدا بصريح الكتاب والسنة إذا جارينا الناس الذين يبتغون التأويل سبيلا لمصاكة الاهواء الحديثة في زيغ التمدن وفلسفة المنازع الطبيعية . ولكن عدم مناقضة السر الغيبي لمنطوق الكتاب والسنة من هذه الوجهة يؤيد صحته وصحة مورده الغيبي بلا منازع . ولا علينا في ذلك إذا حكم علينا بالكفر كافة جماة الاحساس والطبيعة . وكيف لا نبتغي بذلك مخرجا من المآزق التي يريد أرباب الزيغ ايهامنا بالكبيرة فيها وهذا الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رحمه الله يقول « اذا صح مذهب داروين فإنه لا يناقض القرآن » وكل الناس يعلمون من هو داروين وما هو مذهبه . فإن داروين فيلسوف انكليزي استنبط فلسفة النشوء والارتقاء بأدلة حسية وأخرى تخمينية ظنية قاسها بما ظهر له من الحس فادعى في النهاية بقضاياه أن الانسان نشأ من جنس القردة ثم ارتقى تدريجيا حتى حاز العقل والتمييز وصار الى ما صار اليه من الاستئناس والمدنية بعد التوحش والهمجية . فإذا صح هذا المذهب الداروينى على رأي المرحوم الشيخ محمد عبده (١) فإنه لا يناقض القرآن . اذ ليس بالقرآن ما يحصل به نفي هذا الرأي بصورة صريحة . فإذا كان هذا مبلغ الاستدلال بالكتاب الحكيم على نفي أو اثبات الامور المطوية تحت حجب الغيوب مراعاة لارباب الاحساس الطبيعي في

(١) لقد رأيت هذا القول للشيخ محمد عبده رحمه الله في مجلة « المنار » . وبما أن العدد الذي نشر فيه ضاع مني فليراجعه من شاء في المجلد ١٣ او ١٤ من « المنار ».

في منازعهم الظنية فإن مشاهدات الصوفية وأذواقهم وأسرارهم الالهية من باب أولى وأحرى غير مناقضة للقرآن لانهم رضي الله عنهم هم أولياء القرآن الحقيقيون وحماة اسراره ومواهبه . والعاملون عليه . والمقيمون في قلوبهم معانيه وأحكامه

وعليه فالاستدلال بالكتاب والسنة على ما قررناه من أسرار الصوفية ومواهبهم صحيح المأخذ اذا راعينا نفي التأويل أو عدم المناقضة . أما اذا كلفنا عقولنا أن تتأول الاستدلال بتوجيه النظر الى المسائل الغيبية من كل ناحية اعطت للتخمينات الفكرية حريتها من البحث والانبساط الذي هو من شهواتها الفضولية فقد كلفناها ما تريده من لذائذها وان حل بها الزيغ والضلال من وراء ذلك وفي الحقيقة ما كلفت إلا بما ليس في طوقها الاحاطة به من معارف الاله وعلومه التي اختص بأن يعز بها من يشاء ويذل من يشاء

فالذي يتلو القرآن الكريم والاحاديث النبوية الصحيحة بتدبر وفهم صحيح وايمان كامل بالغيب وعجائب احكام الله لا يرتاب أبدا مهما مر بآية او حديث فيهما اجحاف بنظريات العقل وخرق المعتاد للافهام في أن لله سبحانه وتعالى التدبير المطلق والعمل المختلف الاطوار والادوار والوجوه والمعاني بإرادته الازلية كما أنشأ الاكوان من العدم وأقامها في هذا الوجود الذي هو بإزاء وجوده تعالى بمثابة العدم . مثلها تضيف حبة من خردل الى جانب جبل عظيم او ترمي في المحيط قطرة ماء . فأنى للعقول من مجال في هذا النطاق المحسوس الذي هو بالنسبة الى فضاء الغيوب الواسع كخرم ابرة في الاتساع والعرض والطول . فكيف يخطر بعد هذا اليقين بالبال البشري قبول او رد المسائل التي لا توافق احساس العقل بحجة استحالتها او امكانية وقوعها في نظرياته وانه اذا وجد آية او حديثا غير موافق لنظرياته أوله تأويلا يجعل بينه وبين حقيقته بونا بعيدا لا يرضاه الله و رسوله والايمان الصحيح ؟

فالراسخون في العلم المومنون بما جاء من عند الله هم اقرب الناس الى فهم المعنى الذي يريده الله و رسوله من المتشابه في التنزيل . وما في بيان السنة من المخاطبة المخصوصة بالخاصة من الخلق والعمومية للعامة منهم . وقد علمت ان المقصود بالعلم العلم بالله تعالى واسرار طاعته الذي يتحقق به ارباب الراسخون فيه وجود الله تعالى فيفنون فيه فناء الخشية والتقوى والحب والانابة . فهم الموسومون بقوله تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » (١) وقليل ما هم . ووصفهم قد تقدم معنا في اثناء هذا المبحث . فخرج بذلك علماء الدنيا والعارفون بنظامها والمشتغلون بفنون اللسان والاجتماع والعمران

(١) سورة فاطر

دلائل الكتاب والسنة

ولتحقيق هذا التقييد التصريحي من الكتاب والسنة لاذواق الصوفية الكرام وما لديهم من الاسرار الفضلية الالهية . ننقل ما تيسر من الآيات الكريمة والاحاديث الامينة استدلالا بها على صحة وجدانيات ارباب الصدق من القوم ومشاهداتهم . ومنع التأويل في ذلك عن غير صريح الالفاظ . ومع وجود الاستدلال الاثباتي بصريح الكتاب والسنة بهذا التطبيق السلفي يبقى لنا ايضا فقدان الدليل من صريح القرآن والحديث الصحيح على بطلان ما ذهبنا اليه . وكيف يتصور عاقل وجود التناقض فيما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ . فاذا تعين الدليل الصريح وبطل عكسه بتعينه لم يبق للخصم استناد إلّا على أدلة العقل . وقد فندنا تخرصات العقول فلم يبق لها من مجال . او يميل الى التأويل وقد علمت أيها القاري مما تقدم ان التأويل في المغيبات ممنوع . اذ لا يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلّا أولو الالباب

١ — قال تعالى « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل احياء ولكن لا « تشعرون » (١) . « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل احياء عند « ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم « من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢)

فصريح هذين الآيتين الكريمتين يوضح لنا حالة الشهداء في دار الحرب الشرعية بعد مفارقة الدنيا وأنهم لا زالوا احياء باجسادهم مع عدم شعورنا بحياتهم . ولما كان مقام الشهادة أدنى من مقام الصديقية فصاحب مقام النبوة بل الصديقية من باب أولى وأحرى جدير بالحياة بعد الانتقال من الدنيا الى الاخرى . ونبينا صلى الله عليه وسلم بصفته خاتم الانبياء - واخوانه الرسل والانبياء عليهم الصلاة والسلام على قدمه متقدمون - أجدر بهذه الحياة الدائمة بكيفية أرقى من الحياة في الدنيا . كل ذلك وهم بذواتهم الطينية التي نشأوا عليها في الدنيا بين البشر . يتصرفون بها في الذهاب والاياب ولم ينقصهم شيء سوى أنهم محجوبون عن أنظار العالمين .

(١) سورة البقرة . (٢) سورة آل عمران

ما عدى المتنورين من الراسخين في العلم الذين يتوصلون بتقوى الله والعمل بعلوم الشريعة إلى مشاهدة ذوات هؤلاء الاحياء في العالم الاخروي ومكالمتهم . ويؤيد ذلك تصريحات السادة الكمل في ما يدعون من مواجهاتهم للحضرة النبوية واقتباسهم من اسرارها في حالة الحس والشعور . كما سيأتي تفصيل ذلك ان شاء الله تعالى . وقد يؤيده من السنة والآثار الصحيحة ما أخرجه أبو داود والحاكم عن أوس بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة « علي في يوم الجمعة فان صلاتكم معروضة علي . قالوا يارسول الله وكيف تعرض « صلاتنا عليك وقد أرمت يعني بليت . فقال ان الله حرم على الارض اجساد « الانبياء » . واخرج ابن ماجه عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان احدا لن يصلي علي إلا عرضت علي صلاته حين يفرغ منها قلت و بعد « الموت قال و بعد الموت ان الله حرم على الارض اكل اجساد الانبياء » . واخرج الطبراني عن ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤذن المحتسب « كالشهيد المتشحط في دمه واذا مات لم يدود في قبره » . واخرج مالك عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة انه بلغه ان عمرا بن الجموح وعبد الله بن عمرو الانصاريين كان قد حفر السيل قبرهما . وكان قبرهما مما يلي السيل . وكانا في قبر واحد . وهما ممن استشهد يوم أحد . فحفرا ليغيرا من مكانهما . فوجدا لم يتغيرا كأنهما كانا بالامس . وكان احدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك فأميطت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت . وكان بين أحد و بين يوم حفر عنهما ست واربعون سنة . واخرج البيهقي في الدلائل من وجه آخر و زاد بعد قوله فأميطت يده عن جرحه فانبعث الدم فردت الى مكانها فرد الدم . ولما اراد معاوية ان يجري كظامة نادى من كان له قتيل بأحد فليشهد . فخرج الناس الى قتلاهم فوجدوهم رطابا يثنون . فأصابت المسحاة رجل رجل منهم فانبعثت دما . فقال أبو سعيد الخدري لا ينكر بعد هذا منكر

وقد يذهب التغليط الفكري ببعض المنتسبين الى العلم الى انكار هذه الحياة المادية للاجساد الاخروية بدعوى عجزها عن القيام بانجاد الامة الاسلامية في ابان انحطاطها ولو بالآراء الصائبة . وهذا محض جهل بذلك الدور الحيوي النوراني الذي أطلع الله اهله على اسرار قضائه وقدره في خلقه . فما لهم من نفوذ إلا على من اهله الله لمباشرتهم فهم يرشدونه الى اللحوق بهم بنبذ الدنيا وشؤونها . ولا حجة لمعتبر ومتكلف للوزن بالعقل في كيفية كون الحي في القبر يخرج منه بجسده ويتصرف بالاتصال مع الاحياء لان ذلك امر غيبي محض لا يفهمه إلا من باشره . ومن لا ذوق له فيه فالاجدر به التسليم والتفويض والايمان بالغيب شأن المنصفين المقتصدين

٢ ــ وقال جل من قائل « كلما دخل عليها زكرياء المحراب وجد عندها « رزقا * قال يامريم أنى لك هذا * قالت هو من عند الله * ان الله يرزق من « يشاء بغير حساب » (١)

فصريح هذه الآية بيان ما أكرم الله به سيدتنا مريم من الرزق الغيبي المحسوس الذي حدث وجوده عندها بخرق العادة . مع أنها ليست بنبيئة وانما هي صديقة . ولو كان عاديا لما استغرب وجوده عندها نبي الله زكرياء عليه السلام. ويضارع هذه الكرامة ما ورد في صحيح البخاري وفحواه :

« حدثنا أبو اليمان اخبرنا شعيب عن الزهري قال اخبرني عمرو بن ابي سفيان « ابن اسيد بن جارية الثقفي وهو حليف لبني زهرة وكان من اصحاب ابي هريرة « أن أبا هريرة رضي الله عنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط « سرية عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الانصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب « فانطلقوا حتى اذا كانوا بالهدأة وهو بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل « يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريبا من مائتي رجل كلهم رام فاقتصوا آثارهم « حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة فقالوا هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم « فلما رآهم عاصم واصحابه لجؤا الى فدفد وأحاط بهم القوم فقالوا لهم انزلوا واعطونا « بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم احدا فقال عاصم بن ثابت امير السرية « أما انا فوالله لا انزل اليوم في ذمة كافر اللهم اخبر عنا نبيك . فرموهم بالنبل « فقتلوا عاصما في سبعة فنزل اليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الانصاري « وابن دثنة و رجل آخر فلما استمكنوا منهم اطلقوا اوتار قسيهم فأوثقوهم فقال الرجل « الثالث هذا اول الغدر والله لا أصحبكم ان في هؤلاء لاسوة يريد القتلى فجروه « وعالجوه على ان يصحبهم فأبى فقتلوه . فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما « بمكة بعد وقعة بدر فابتاع خبيبا بنو الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف « وكان خبيب هو قتل الحرث بن عامر يوم بدر فلبث خبيب عندهم اسيرا. فأخبرني « عبد الله بن عياض ان بنت الحرث اخبرته انهم حين اجتمعوا استعار منها موسى « يستحد بها فأعارته فأخذ ابنا لي وانا غافلة حين اتاه قالت فوجدته مجلسه على « فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي فقال تخشين أن اقتله « ما كنت لافعل ذلك والله ما رأيت اسيرا قط خيرا من خبيب والله لقد وجدته « يوما يأكل من قطف عنب في يده وانه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر « وكانت تقول انه لرزق من الله رزقه خبيبا فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل « قال لهم خبيب ذروني اركع ركعتين فتركوه فركع ركعتين ثم قال لولا ان تظنوا ان

(١) سورة آل عمران

« ما بي جزع لطولتها اللهم احصهم عددا
مـا ابالي حين اقتل مسلما * على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الاله وان يشأ * يبارك على اوصال شلو ممزع

« فقتله ابن الحرث فكان خبيب هو سن الركعتين لكل امرئ مسلم قتل صبرا « فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم اصيب فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم « اصحابه خبرهم وما أصيبوا . و بعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا « انه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرف وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر فبعث على « عاصم مثل الظلة من الدبر فحمته من رسولهم فلم يقدروا على ان يقطع من لحمه « شيئـا »

فيؤخذ من صريح هذا الحديث الشريف ثبوت وقوع كرامتيـن لصحابيين جليلين . الاولى كرامة الرزق الغيبي لخبيب . والثانية حمايـة جسد عاصم من الكفار بالدبر

٣ — وقال جل جلالـه . « واذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك « واصطفاك على نساء العالمين * يامريم اقنتي لربك واسجـدي واركعي مع « الراكعين » (١) . « اذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه » (٢). « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل « حنيذ * فلما رأى ايديهم لا تصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة قالوا لا تخف « انا ارسلنا الى قوم لوط * وامرأته قائمة فضحكت فبشرناهـا بإسحاق ومن وراء « إسحاق يعقوب * قالت ياويلتا آلد وانا عجوز وهذا بعلي شيخـا ان هذا لشيء « عجيب * قالوا أتعجبين من امر الله رحمة الله و بركاته عليكم اهل البيت انـه « حميد مجيد»(٣). «واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من اهلها مكانا شرقيا فاتخذت « من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت اني اعوذ بالرحمن « منك ان كنت تقيا قال اني رسول ربك لاهب لـك غلاما زكيا قالت انى يكون « لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله « آية للناس و رحمة منا وكان امرا مقضيا » (٤) . « هل اتاك حديث ضيف ابراهيم « المكرمين * اذ دخلوا عليه قالوا سلاما قال سلام قوم منكرون * فراغ الى اهلـه « فجاء بعجل سمين * فقربه اليهم قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفة قالوا « لا تخف وبشروه بغلام عليم * فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت « عجوز عقيم * قالوا كذلـك قال ربك انه هو الحكيم العليم » (٥)

فكلام الملائكة الصريح في هذه الايات مباشرة مع سيدتنا مريم ومع زوجـة

---

(١) و(٢) سورة آل عمران . (٣) سورة هود . (٤) سورة مريم . (٥) سورة الذاريات

سيدنا ابراهيم عليه السلام مباشرة من الادلة الصحيحة على امكان مكالمة الملائكة الكرام وهم اجساد روحانية للاولياء من البشر و رفع الحجاب بين الفريقين وهو أعجب من رفعه بين الاحياء الماديين والاحياء البرزخيين . فان قيل ان هذه المكالمة بين الملائكة ومريم وسارة معجزة لرسولي الله عيسى وابراهيم عليهما الصلاة والسلام . فالجواب ان ما يحصل للاولياء المحمديين من هذا القبيل هو معجزة لخاتم النبيئين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم . ويبينه ما ورد في صحيح البخاري . قال « حدثنا يحي بن قزعة حدثنا ابراهيم بن سعد عن أبيه عن أبي سلمة عن أبي « هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد كان فيما قبلكم « من الامم محدثون فان يكن في أمتي أحد فانه عمر . زاد زكريا بن « أبي زائدة عن سعد عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم « لقد كان فيمن كان قبلكم من بني اسرائيل رجال يكلمون من غير أن « يكونوا أنبياء فان يكن من أمتي منهم أحد فعمر . قال ابن عباس رضي الله « عنهما ما من نبي ولا محدث »

فتعين بهذا أن لا تحجير على الله تعالى في بعثه الملائكة لمن شاء من خلقه ولو لم يكن نبيا يباشرونه بالكلام في اليقظة . وقد يجرون له خوارق العادة لامر يريده الله كما جاء بصحيح البخاري في « حديث أبرص وأقرع « وأعمى في بني اسرائيل » . قال « حدثنا أحمد بن اسحاق حدثنا عمرو بن « عاصم حدثنا همام حدثنا اسحاق بن عبد الله قال حدثني عبد الرحمن بن أبي « عمرة أن أبا هريرة حدثه انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم . ح . وحدثني « محمد حدثنا عبد الله بن رجاء اخبرنا همام عن اسحاق بن عبد الله قال اخبرني « عبد الرحمن بن أبي عمرة ان أبا هريرة رضي الله عنه حدثه انه سمع رسول الله « صلى الله عليه وسلم يقول ان ثلاثة في بني اسرائيل أبرص وأعمى وأقرع بدا لله « عز وجل ان يبتليهم فبعث اليهم ملكا فأتى الابرص فقال أي شيء أحب « اليك قال لون حسن وجلد حسن قد قذرني الناس . قال فمسحه فذهب عنه . « فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا . فقال اي المال احب اليك قال الابل او قال « البقر هو شك في ذلك ان الابرص والاقرع قال احدهما الابل وقال الاخر « البقر فأعطي ناقة عشراء . فقال يبارك لك فيها . واتى الاقرع فقال اي شيء « احب اليك قال شعر حسن ويذهب عني هذا قد قذرني الناس قال فمسحه « فذهب عنه واعطي شعرا حسنا . قال فأي المال احب اليك قال البقر . قال « فأعطاه بقرة حاملا وقال يبارك لك فيها . واتى الاعمى فقال اي شيء احب « اليك قال يرد الله الي بصري فأبصر به الناس . قال فمسحه فرد الله اليه بصره « قال فأي المال احب اليك قال الغنم . فأعطاه شاة والدا . فأنتج هذان وولد

« هذا فكان لهذا واد من الابل ولهذا واد من بقر ولهذا واد من الغنم . ثم انه
« أتى الابرص في صورته وهيأته فقال رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري
« فلا بلاغ اليوم إلّا بالله ثم بك اسألك بالذي اعطاك اللون الحسن والجلد
« الحسن والمال بعيرا اتبلغ به في سفري . فقال له ان الحقوق كثيرة . فقال له
« كأني اعرفك الم تكن ابرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله . فقال لقد ورثت
« لكابر عن كابر . فقال ان كنت كاذبا فصيرك الله الى ما كنت . واتى الاقرع
« في صورته وهيأته فقال له مثل ما قال لهذا . فرد عليه مثل ما رد عليه هذا . فقال
« ان كنت كاذبا فصيرك الله الى ما كنت . واتى الاعمى في صورته فقال
« رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلّا بالله
« ثم بك اسألك بالذي رد عليك بصرك شاة اتبلغ بها في سفري . فقال قد
« كنت اعمى فرد الله بصري وفقيرا فقد اغناني فخذ ما شئت فوالله لا اجهدك
« اليوم بشيء اخذته لله . فقال امسك مالك فانما ابتليتم فقد رضي الله عنك
« وتسخط على صاحبيك »

ويضارعه ظهور جبريل عليه السلام للصحابة رضي الله عنهم في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه وان لم يباشرهم بالمكالمة . وكظهوره في صورة الاعرابي السائل عن الايمان والاسلام والاحسان في الحديث الصحيح المشهور . فالمأخوذ من صريح القرآن والسنة في هذا الشان دوكون المباشرة بين الجنسين الروحاني والبشري غير مستحيلة وانها ممكنة قطعا وغير متوقفة على النبوة بل متحققة لكثير من صالحي البشر . غير انها مع النبي مطلقة ومع غيره مقيدة بتشكل الملك في الصورة المادية ليقرب للمادة مباشرته بكيفية توافق كثافتها وإلّا لانصدعت وتبدد نظامها . ولذا يلتبس على الصالح ان يفرق بين الادمي والملك المتشكل في الصورة الادمية لولا الفتح والمعرفة التي يكرمه الله بها

⁂

وقد تتشكل بعض المعاني الغيبية فتعرض للصالحين في صور مادية كما ورد في صحيح البخاري ونصه

حدثني محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن ابي اسحاق سمعت البراء
« بن عازب رضي الله عنهما يقول قرأ رجل الكهف وفي الدار الدابة فجعلت
« تنفر فسلم فاذا ضبابة او سحابة غشيته فذكره للنبي صلى الله عليه وسلم فقال
« اقرا فلان فانها السكينة نزلت للقرآن او تنزلت للقرآن »

⁂

٥ — وقد صرح القرآن ايضا بكون العبد الصالح يتصرف بارادة الله وبما يهبه من المعارف والعلوم الغيبية في الآيات الآتية

وقال جل من قائل

« واذ قال موسى لفتاه لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين او امضي حقبا * فلما
« بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا * فلما جاوزا قال لفتاه
« آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا * قال ارأيت اذ اوينا الى الصخرة فاني
« نسيت الحوت وما انسانيه إلّا الشيطان ان اذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا *
« قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه
« رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما * قال له موسى هل اتبعك على ان تعلمني
« مما علمت رشدا * قال انك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم
« تحط به خبرا * قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا اعصي لك امرا * قال
« فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا * فانطلقا
« حتى اذا ركبا في السفينة خرقها قال اخرقتها لتغرق اهلها لقد جئت شيئا
« امرا * قال الم اقل انك لن تستطيع معي صبرا قال لا تواخذني بما نسيت ولا
« ترهقني من امري عسرا * فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال اقتلت نفسا زاكية
« بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال الم اقل لك انك لن تستطيع معي
« صبرا قال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا *
« فانطلقا حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها فأبوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا
« يريد ان ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا * قال هذا فراق بيني
« وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا * اما السفينة فكانت
« لمساكين يعملون في البحر فأردت ان اعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل
« سفينة غصبا واما الغلام فكان ابواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا
« فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما * واما الجدار فكان لغلامين
« يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحا فأراد ربك ان يبلغا
« اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن امري ذلك تأويل ما
« لم تسطع عليه صبرا » (١)

ويبينه ما ورد في صحيح البخاري ونصه

« باب ما ذكر في ذهاب موسى في البحر الى الخضر عليهما السلام وقوله تعالى
« هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا * حدثني محمد بن غرير الزهري
« قال حدثنا يعقوب بن ابراهيم قال حدثني ابي عن صالح عن ابن شهاب حدث
« ان عبيد الله بن عبد الله خبره عن ابن عباس انه تمارى هو والحر بن قيس بن
« قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى فقال ابن عباس هو خضر فمر بهما

(١) سورة الكهف

« أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال اني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب
« موسى الذي سأل موسى لقيه هل سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه
« قال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بينما موسى في ملإ من بني
« اسرائيل جاءه رجل فقال هل تعلم أحدا أعلم منك . قال موسى لا . فأوحى الله
« إلى موسى بلى عبدنا خضر . فسأل موسى السبيل اليه . فجعل الله له الحوت
« آية . وقيل له اذا فقدت الحوت فارجع فانك ستلقاه . وكان يتبع أثر الحوت
« في البحر . فقال لموسى فتاه أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فإني نسيت الحوت
« وما أنسانيه إلا الشيطان ان اذكره . قال ذلك ما كنا نبغي . فارتدا على
« آثارهما قصصا فوجدا خضرا . فكان من شأنهما الذي قصه الله في كتابه »

« حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا سفيان قال حدثنا عمرو قال أخبرني سعيد
« بن جبير قال قلت لابن عباس ان نوفا البكالي يزعم ان موسى ليس بموسى
« بني اسرائيل انما هو موسى آخر . فقال كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب
« عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قام موسى النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا
« في بني اسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال انا اعلم فعتب الله عليه اذ لم
« يرد العلم إليه . فأوحى الله اليه إن عبدا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم
« منك . قال رب وكيف لي به . فقيل له احمل حوتا في مكتل فإذا فقدته
« فهو ثم . فانطلق . وانطلق بفتاه يوشع بن نون . وحملا حوتا في مكتل حتى
« كانا عند الصخرة وضعا رؤوسهما وناما . فانسل الحوت من المكتل فاتخذ سبيله
« في البحر سربا . وكان لموسى وفتاه عجبا . فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما . فلما
« أصبح قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، ولم يجد موسى
« مسا من النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به فقال له فتاه أرأيت اذ أوينا الى
« الصخرة فإني نسيت الحوت . قال موسى ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما
« قصصا ، فلما أتيا الى الصخرة اذا برجل مسجى بثوب او قال تسجى بثوبه فسلم
« موسى فقال الخضر وانى بارضك السلام فقال انا موسى فقال موسى بني اسرائيل
« قال نعم قال هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع
« معي صبرا ياموسى اني على علم من الله علمنيه لا تعلمه انت وانت على علم علمك
« الله لا اعلمه (١) قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا اعصي لك امرا فانطلقا

(١) وفي رواية « قال فما شأنك قال جئت لتعلمني مما علمت رشدا قال اما
« يكفيك التوراة بيديك وان الوحي يأتيك ياموسى ان لي علما لا ينبغي لك
« ان تعلمه وان لك علما لا ينبغي لي أن أعلمه . » الحديث

« يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة فمرت بهما سفينة فكلموهم ان يحملوهما
« فعرف الخضر فحملوهما بغير نول فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر
« نقرة او نقرتين في البحر فقال الخضر ياموسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله
« إلّا كنقرة هذا العصفور في البحر فعمد الخضر إلى لوح من الواح السفينة فنزعه
« فقال موسى قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق اهلها قال
« الم اقل انك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت فكانت الاولى
« من موسى نسيانا فانطلقا فإذا غلام يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه من
« أعلاه فاقتلع راسه بيده فقال موسى اقتلت نفسا زكية بغير نفس قال الم اقل
« لك انك لن تستطيع معي صبرا قال ابن عيينة وهذا اوكد فانطلقا حتى
« اتيا اهل قرية استطعما اهلها فأبوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض
« قال الخضر بيده فأقامه قال موسى لو شئت لاتخذت عليه اجرا قال هذا فراق
« بيني وبينك قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله موسى لوددنا لو صبر حتى
« يقص علينا من امرهما »

***

فالمفهوم من ظاهر الآيات والحديثين المسطورين بعدهن كون سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وهو احد اولي العزم من الرسل قصد الخضر وهو غير نبيء بل عبد من عباد الله الصالحين ليتعلم منه علوما لم تحصل له لا بالوحي ولا بالكلام في طور سيناء . وقد يمكن حصر الدلائل التي تؤيد مسلكنا في هذا البحث من ظاهر هذه الآيات والحديثين في النقط الآتية

اولا — لا يستحيل في حق الولي ان يكون اعلم من النبيء المرسل في غير ما شرع له تبليغه إلى الخلق من اصول الملة وسننها . لان علم الله تعالى متسع باتساع ازليته وابديته وقدمه وبقائه . فقد يعلم منه الولي رشحة لا يعلمها النبيء . ويدرك هذا ما لا يدركه ذاك . ولذا لم يستطع الكليم ان يصبر على افعال العبد الصالح المغايرة لما عنده من علوم الشريعة . وقد تبين تفوق العبد الصالح فيما اختصه الله به من العلوم اللدنية افتقار موسى إلى التلمذة له . وشدة الرحلة لملاقاته وقوله « هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا » . وقوله « وكيف تصبر على « ما لم تحط خبرا »

ثانيا — كون هذه العلوم التي لم يعلمها موسى عليه السلام كانت من للدنيات لالهية لقوله تعالى « وعلمناه من لدنا علما » . « وما فعلته عن امري »

ثالثا — يستفاد من الوقائع الثلاث التي انكرها سيدنا موسى عليه السلام ان العبد الصالح ارتكبها بدافع روحاني وامر الهي اوله المكاشفة والاطلاع على غيب صائر السفينة والغلام والكنز . وآخره التصرف بالفعل لتحقيق المراد من القدرة

لالهية في الحادثات الثلاث . وقد يقال أنه كان يعلم امر الملك الغاصب للسفن بالسمع . وأمر الكنز بالبصر . ولكن كيف كان يمكنه الاطلاع على مستقبل الغلام وما يجريه ضد والديه في كبره من الطغيان والكفر؟

رابعا — يستفاد أيضا من الوقائع الثلاث أن للولي أن يتصرف بإذن الله وحوله وقوته تعالى في تنفذ ما يريده الله من نفع الخلق مثلما أجرى العبد الصالح على مشهد من سيدنا موسى عليه السلام ما اجرى من نفع المساكين اصحاب السفينة ووالدي الغلام اصلاحهما واليتيمين اصحاب الكنز لكونهما اولاد عبد صالح

خامسا — يؤخذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم « يرحم الله موسى لوددنا او « صبر حتى يقص علينا من أمرهما » أن هنالك من عجائب علوم الحقائق الغيبية ما لا يحصى وقد حال بين ذكرها واظهارها للناس عدم صبر سيدنا موسى عليه السلام لهذا النزر القليل من الحوادث . فما ذا يقول بعد المنكرون على ارباب الكشف في احوالهم الغيبية التي لربما تكون من جلة الانواع التي لم تظهر في القرآن وود النبي صلى الله عليه وسلم لو صبر موسى فتسبب في ظهورها للناس ؟

سادسا — يفهم من فحوى القصة أن موسى عليه السلام مع تمكنه في علوم الحقائق وفنون الغيب وما لديه من احكام الخوارق كتسخير العصا واستماع كلام الله مباشرة ومع ما يعلمه من نظام الشريعة المنزلة لم يستنكف عن طلب العلم اللدني من عبد أدنى منه مرتبة واقل علما فيما يعلمه من علوم الوحي والرسالة وأبعد منه رتبة عن دائرة الحضرة الالهية . وفي هذا الفهم عبر جليلة . منها ارغام أنوف المنكرين الذين خصصوا شد الرحال لطلب العلوم الظاهرة فقط . ومنها استهجان حمق العلماء الذين يستكبرون عن أن يتبعوا المرشدين الى الآخرة بدعوى جهلهم بقواعد اللغة مثلا . ومنها التنكيت على الذين اتخذوا منهم رجال الحقائق سخريا بسبب جهلهم لتفاصيل علوم الشريعة . فان موسى لم يبحث عن كون الخضر عالما بفنون الشريعة أم جاهلا بل قال له علني مما علمك الله رشدا . ومنها فهم سر اشتراط الانقياد ظاهرا وباطنا للمرشد الاخروي كما فعل موسى فقال « ولا أعصي لك أمرا »

والحاصل أن الله سبحانه وتعالى ما قص علينا هذه القصة عبثا بل للاعتبار بشأنها . واعظام امر الحق في تدابيره الغيبية . وأن مآخذ القوم منها في تنظيم طرق ارشادهم الى الاخرى لمآخذ صواب وسداد لا يناقضها أي رسم من رسوم الشريعة إلا ما يتوهمه المطبوع على قلوبهم . وكفى بكتاب الله هاديا ومرشدا « لا يأتيه الباطل من بين « يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (١)

---

(١) سورة فصلت

٦ — وقال جل جلاله وعز كبرياؤه وتقدست صفاته واسماؤه
« قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفريت
« من الجن انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك واني عليه لقوي امين * قال
« الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك * فلما
« رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر
« فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم » (١)

فصراحة هذا القول الالهي الحكيم مجسمة لما لاوليائه تعالى من الاستطاعة على خرق العوائد بتصريف الخواص واسرار علوم الكتاب مما لا يرتاب فيه إلّا من طبع الله على قلبه وجعل على سمعه و بصره غشاوة فقدس المادة عن أن تخضع لنواميس الحكمة الالهية الجارية على أيدي الصالحين من العباد تحجيرا على الله فيما يريد بمشيئته المطلقة

∴

٧ — روى الامام البخاري فقال « حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب حدثنا أبو
« الزناد عن عبد الرحمن حدثه انه سمع أبا هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول
« الله صلى الله عليه وسلم يقول بينا امرأة ترضع ابنها اذ مر بها راكب وهي ترضعه
« فقالت اللهم لاتمت ابني حتى يكون مثل هذا . فقال اللهم لا تجعلني مثله
« ثم رجع في الثدي . ومر بامرأة تجرر و يلعب بها فقالت اللهم لا تجعل ابني
« مثلها . فقال اللهم اجعلني مثلها . فقال فأما الراكب فإنه كافر واما المرأة
« فإنهم يقولون لها تزني وتقول حسبي الله و يقولون تسرق وتقول حسبي الله »

وقال « حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا جرير هو ابن حازم عن محمد بن سيرين
« عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رجل في
« بني اسرائيل يقال له جريج يصلي فجاءته أمه فدعته فأبى ان يجيبها فقال أجيبها
« او اصلي ثم أتته فقالت اللهم لا تمته حتى تريه المومسات . وكان جريج في
« صومعته فقالت امرأة لأفتنن جريجا فتعرضت له فكلمته فأبى . فأتت راعيا
« فأمكنته من نفسها فولدت غلاما فقالت هو من جريج . فأتوه وكسروا صومعته
« فأنزلوه وسبوه . فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال من ابوك ياغلام . قال الراعي
« قالوا نبني صومعتك من ذهب . قال لا إلّا من طين »

فأي السبيلين يؤيد هذان الحديثان الشريفان أسبيل الذين اتقوا ربهم وآمنوا بالغيب ام سبيل الذين انكروا ان يشاء الله فيبدي ويعيد خلاف ما يألفون من طبائع الوجود ؟

---

(١) سورة النمل

٨ — وفي صحيح البخاري قال « حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان حدثنا أبو « الزناد عن الاعرج عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال صلى رسول الله « صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ثم اقبل على الناس فقال بينا رجل يسوق « بقرة اذ ركبها فضربها فقالت إنا لم نخلق لهذا انما خلقنا للحرث فقال الناس « سبحان الله بقرة تكلم . فقال فاني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم « وبينما رجل في غنمه اذ عدا الذئب فذهب منها بشاة فطلب حتى كأنه « استنقذها منه فقال له الذئب هذا استنقذتها مني فمن لها يوم السبع يوم لا « راعي لها غيري . فقال الناس سبحان الله ذئب يتكلم . قال فإني أومن بهذا « أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم »

∴

٩ — وفيه ايضا قال « قال أبو عبد الله وقال الليث حدثني جعفر بن ربيعة عن « عبد الرحمن ابن هرمز عن أبي هريرة رضي الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه ذكر رجلا من بني اسرائيل يسأل بعض بني اسرائيل أن يسلفه ألف دينار « فقال إئتني بالشهداء أشهدهم فقال كفى بالله شهيدا فقال فاتني بالكفيل قال كفى بالله كفيلا « قال صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى . فخرج في البحر فقضى حاجته . ثم « التمس مركبا يركبها يقدم عليه للاجل الذي أجل فلم يجد مركبا . فأخذ خشبة « فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها ثم أتى « بها إلى البحر فقال اللهم إنك تعلم اني كنت تسلفت فلانا الف دينار فسألني « كفيلا فقلت كفى بالله كفيلا وسألني شهيدا فقلت كفى بالله شهيدا فرضي « بذلك واني جهدت ان اجد مركبا ابعث اليه الذي له فلم أقدر واني « استودعكها فرمى بها بالبحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس « مركبا يخرج الى بلده . فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد « جاء بماله . فاذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لاهله حطبا . فلما نشرها وجد « المال والصحيفة . ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالالف دينار فقال والله ما زلت « جاهدا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذي أتيت « فيه . قال هل كنت بعثت إلي بشيء . قال أخبرك اني لم اجد مركبا قبل الذي « جئت فيه . قال فان الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة فانصرف بالالف « دينار راشدا »

∴

١٠ — وفيه ايضا قال « حدثنا يعقوب بن ابراهيم حدثنا أبو عاصم اخبرنا ابن « جريج قال اخبرني موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن « النبي صلى الله عليه وسلم قال خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر فدخلوا في غار

« في جبل فانحطت عليهم صخرة قال فقال بعضهم لبعض ادعوا الله بأفضل عمل
« عملتموه فقال أحدهم اللهم اني كان لي أبوان شيخان كبيران فكنت أخرج
« فأرعى ثم أجيء فأحلب فأجيء بالحلاب فآتي أبوي فيشربان ثم أسقي
« الصبية واهلي وامرأتي فاحتبست ليلة فجئت فإذا هما نائمان قال فكرهت
« ان أوقظهما والصبية يتضاغون عند رجلي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما حتى
« طلع الفجر اللهم ان كنت تعلم اني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا
« فرجة نرى منها السماء قال ففرج عنهم وقال الآخر اللهم ان كنت تعلم اني
« كنت احب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحب الرجل النساء فقالت لا
« تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار فسعيت فيها حتى جمعتها فلما قعدت
« بين رجليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقمت وتركتها فإن كنت
« تعلم اني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا فرجة قال ففرج الله عنهم الثلثين
« وقال الآخر اللهم ان كنت تعلم اني استأجرت اجيرا بفرق من ذرة فأعطيته
« وأبى ذاك ان يأخذ فعمدت إلى ذلك الفرق فزرعته حتى اشتريت منه
« بقرا ورعيها ثم جاء فقال اعطني يا عبد الله حقي فقلت انطلق إلى تلك البقر
« ورعيها فإنها لك قال اتستهزئ بي قال فقلت لا استهزئ بك ولكنها لك
« اللهم ان كنت تعلم اني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فكشف عنهم »

⁂

١١ — وروى البخاري ايضا قال « حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا معاذ بن
هشام قال حدثني ابي عن قتادة قال حدثنا انس ان رجلين من اصحاب رسول
« الله صلى الله عليه وسلم خرجا من عند النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة
« مظلمة ومعهما مثل المصباحين يضيئان بين ايديهما فلما افترقا صار مع كل واحد
« منهما واحد حتى اتى اهله »

⁂

١٢ — وروى سعد ابو مجاهد الطائي فقال « حدثني ابو المدلة مولى ام المومنين
« عائشة رضي الله عنهما انه سمع ابا هريرة رضي الله عنه يقول قلنا يارسول الله اذا
« كنا عندك او انا اذا كنا عندك رقت قلوبنا وكنا من اهل الآخرة واذا فارقناك
« فشمنا النساء والاولاد اعجبتنا الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي
« نفسي بيده لو كنتم تكونون كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة
« بأكفكم ولزارتكم في بيوتكم ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون و يستغفرون
« فيغفر لهم قلنا يارسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها قال لبنة من ذهب ولبنة من
« فضة وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت و بلاطها المسك وترابها الزعفران من يدخلها ينعم
« ولا يبؤس و يخلد ولا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ثلاثة لا ترد دعوتهم

« الصائم حتى يفطر والامام العادل ودعوة المظلوم تحمل على الغمام ويفتح لها « ابواب السماوات ويقول الرب تبارك وتعالى وعزتي وجلالي لانصرنك ولو « بعد حين » (١)

فهذا بيان صريح من السنة عن الحالة التي تحدث لارباب التقوى والاخلاص المنقطعين إلى الآخرة . وان من جملة مظاهر هذه الحالة قيام الملائكة بمصافحة اربابها ومباشرتهم بالزيارة في البيوت حتى يرونهم بالعين المجردة في حالة اليقظة . وان لم يبلغنا خبر حدوث هذه الحال لاحد من الصحابة فما ذلك إلّا لاستغنائهم عنها بطلعة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم . وبالفعل فقد حصل لكثير ممن رقت قلوبهم ما هو أوضح من هذا وان لم يكونوا صحابة لانه قد يكون للمفضول ما لم يكن للفاضل . وليس لهذا المقام أخذ او رد بقياس العقل . وما قصة موسى والخضر عنا ببعيدة . ففيها اجمال ما فصل من احكام هذا الباب . ولله في طي تنزيلها شؤون

(١) حديث حسن من حديث أبي خيثمة زهير بن معاوية الكوفي اتفق البخاري ومسلم على الاحتجاج بحديثه عن ابي مجاهد سعد الطائي وكان ثقة عن ابي المدلة مولى ام المومنين عائشة رضي الله عنهما وكان ثقة عن ابي هريرة رضي الله اخرجه الترمذي في جامعه وابن ماجه في سننه فرواه الترمذي مختصرا عن محمد ابن العلاء الهمذاني عن عبد الله بن نمير و رواه ابن ماجه مختصرا ايضا عن علي بن محمد عن وكيع بن الجراح كلاهما عن سعدان بن بشر عن سعد الطائي وقال الترمذي هذا حديث حسن

ذوق المكاشفة

المكاشفة ذوق تختلف مراتبه باختلاف استعدادات الاشخاص . يحدث في بواطن بعض العاملين بالعلم الشرعي . وليس به أفضلية في الحقيقة فقد يكون الصالح المحجوب اعلى درجة من المكاشف . ولذا يحصل لبعض ارباب العلم بأنهم في مرتبة المكاشفة الناتجة من الفتح . وقد يلازم بعضهم الجهل به حتى انهم ليعجبون من الحوادث التي تحدث وفق ما يضمرون . والشؤون التي تبدو للمكاشف الوان ما بين حسية ومعنوية . فالحسية كمشاهدة الاشخاص الروحانية النورانية من ملكية وآدمية ومباشرتها بالمكالمة ومشاهدة ما غاب من الوقائع وما بعد من الاقطار وما استتر من المخلوقات الغيبية . والمعنوية ما اغتاص من الفنون الالهية واسرار العلوم الشرعية والخلقية المتعلقة بحقائق الوجود وتضاريف الاسماء والصفات القدسية . وقد يقع هذا الذوق الكشفي في قلوب الصادقين من الاخيار ينبوعا فياضا لا اختيار لهم في حدوثه . بل وبعد اكثرهم الالتفات اليه فضولا واشتغالا بما لا يعني ان لم يكن مباشرة لروح صادقة ومعرفة ربانية تزيدهم إيمانا وانغماسا في بحر الرضا الرباني . ومن عدم اكتراثهم به يأخذهم العجب من نتائجه عند حصوله بغتة في افكارهم . وقد وقع من هذا النوع لكثير من الاولياء خوارق استعاذوا منها وعدوها شرا . وبحضرة النبي صلى الله عليه وسلم حصل لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يؤيد قوله الشريف « لقد كان فيما قبلكم من « الامم محدثون فان يكن في أمتي احد فانه عمر » . فقد كان ذوق المكاشفة لديه ذوق محادثة من حضرة الغيب تنفجر في باطنه انفجارا من غير قصد فيعمل بمقتضاها . فما يلبث غير بعيد حتى ينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم موافقا لما ذهب اليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه موافقة يعجب منها بعد ويندهش لما يخامره من الحيرة في كيفية ورود الامر على باطنه . ويبينه ما ورد في ذلك بصحيح البخاري قال « حدثنا عمرو بن عون قال حدثنا هشيم عن حميد عن انس « قال قال عمر وافقت ربي في ثلاث قلت يارسول الله لو اتخذنا من مقام ابراهيم « مصلى فنزلت واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى . وآية الحجاب قلت يارسول « الله لو امرت نساءك ان يحتجبن فانه يكلمهن البر والفاجر فنزلت آية الحجاب « واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغيرة عليه فقلت لهن عسى ربه

« إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن فنزلت هذه الآية » . وقال ايضا « حدثنا يحي بن بكير حدثنا الليث عن عقيل وقال غيره حدثني عقيل عن ابن « شهاب قال اخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب « رضي الله عنه أنه قال لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعي له رسول الله صلى « الله عليه وسلم ليصلي عليه فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت إليه فقلت « يارسول الله أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا كذا وكذا (١) قال أعدد عليه « قوله فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اخر عني ياعمر فلما اكثرت عليه « قال اني خيرت فاخترت لو اعلم اني ان زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها « قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرا حتى « نزلت الآيتان من براءة ولا تصل على احد منهم مات ابدا الى قوله وهم فاسقون « قال فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ورسوله اعلم» .

***

ولما كان عهد النبي صلى الله عليه وسلم عهد البساطة في الدين بانبساط نور النبوة على مجموع الامة . وحصول التوجه التام الخاص من جميع الصحابة نحو نقطة ﴿ التقوى ﴾ بلا فرق كان ذوق المكاشفة ناميا في تقوية إيمانهم بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم بصفة لم يحتاجوا فيها إلى تمتين الرابطة بالعوامل الخارجية من فنون العلوم كالالهية . وأنى لهم الاحتياج إلى المشاهدات التي تزيدهم إيمانا وسر الله الاعظم بينهم بأكبر مظاهره الوجودية يعمل في نفوسهم بتأثيراته الروحية العالية كحملهم على التقوى الصحيح الموافق لوسطهم واستعداداتهم . وببيان آخر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو الناس الى الله وينذرهم ويبشرهم بكيفية توافق طبعه الامي وكونه مبعوثا الى الاميين وقائما بسذاجة التوجه التام نحو الاخرى . فحصل عنه لتابعيه سر ذوق المكاشفة في حالة واحدة لم يشأ الله ان يشعبها عليهم لانهم أميون لم تخالط عقولهم الشبهات الخارجية على الدين . وهذه الحالة هي حالة الايمان الصحيح برسالة النبي الامي صلى الله عليه وسلم فكان الواحد منهم بمجرد ما ينتقل من الكفر الى الاسلام يحصل على هذا الذوق وتنفجر في قلبه عيونه بسر ما يتلقاه من حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم سرا وعلانية . ولذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه بأسبقيته الى التصديق برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام رئيس الصديقين وافضل الخلق بعد النبيين

فذوق المكاشفة في عهد الصحابة ذوق إيمان كامل قائم بأعيانه غير محتاج الى الوسائط والوسائل التي يحتاج اليها المصادمون للشبهات الفنية الواردة من

(١) وفي رواية « تصلي عليه وهو منافق وقد نهاك الله ان تستغفر لهم » الحديث

جهة مخترعات العلوم العقلية التي راجت على لامة الاسلامية منذ ارتفع عنها طبع لامية وانكبت بشره على تعاطي الجدل . وعلى تتبع سنن لامم في السريع شبرا بشبر. ولذا لما ذهب عصر الصحابة احتيج بفتور العزائم إلى إيراد الوسائل والمؤسسات العلمية ثم العملية . وبعد العمل احتيج الى الذوق الباعث على مداومة السلوك والعمل خشية على الهمم من الفتور وعلى العزائم من النكوص . فذوق المكاشفة الصحيح الوارد على الكمل من الصادقين مواهب الهية ميزهم الله بها عند ضلال لامة ونحن نعتبر صدقهم بعدالتهم الصحيحة الواردة في لاخبار المتواترة عنهم من تقوى وصلاح وورع وعبادة ومكارم اخلاق وعمل بالشريعة في كل حركة وسكون وتباعد عن الفضول وزهد في متاع الدنيا وزخرفها ونفور عن حب السيطرة والرئاسة والحكم ومنازع السياسة (١) . فعدالتهم الثابتة بالنصوص المتواترة التي عليها اعتمدت لامة في تمحيص احد شقي شريعتها (٢) تحتم علينا أن نصدقهم في ما صرحوا به من الكشوفات في المغنويات الغيبية . ونعتبر ايضا كشوفاتهم في ماديات الغيب من قبيل مكاشفات سيدتنا مريم وسارة والعبد الصالح والذي عنده علم من الكتاب الصحيحة بصريح القرآن. ومكاشفات سيدنا عمر بن الخطاب الصحيحة بنصوص الحديث الشريف . نصدهم في هذه الكشوفات ما دامت غير مصادمة لنصوص الشريعة لا بالتصريح ولا بالتاويح . وقد يسعنا في حالة المصادمة ما وسع موسى اذ لم يصبر بيد ان ليس لنا من العرفان ما كان لموسى عليه السلام . ولا نقصد بهذا التصديق تشريك الايمان باعتقاد مركب يسخرنا لاناس لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا . بل المقصود منه تقوية الايمان وتنميته في كل لحظة وحفظه من طوارئ الشبهات الفنية المصادمة له من كل جانب. حيث نعتقد اعتقادا راسخا أن الله سبحانه وتعالى هو المتصرف في ذوات هؤلاء القوم والمتجلي باحكامه القاهرة . ومن حيثية أخرى قد يمكن إقناع عقولنا في ما اذا اشمأزت من عرض كل هذه لاحتمالات في التصديق بكشوفات الصالحين من العباد بنوع من البيان لايماني. وهو صريح في الكتاب والسنة قد يتلقاه المومن بارتياح لولا ان المرتاحين له قليل . ومن أمثلته الكثيرة في الكتاب قوله تعالى «ان الله مع الذين اتقوا

---

(١) يزعم بعض من لا خلاق له من المكرين استنادا على آراء بعض لاوربويين ان طرق التصوف شكلت لاغراض سياسية . وهو محض افتراء بدليل ان امم ما يشترط في الصوفي التباعد عن الحكم والسياسة . وسنبدي لهذا الموضوع حقه في غير هذا المحل . (٢) احد شقي الشريعة سنة الرسول صلى الله عليه وسلم التي لم تثبت إلا بواسطة الرجال العدول المتميزون بجميع ما للصوفية من لاوصاف الدينية فهم الصوفية لاولون . وسترى التفصيل قريبا

« والذين هم محسنون » (١) . فهذه المعية كيفما أول ماهيتها الانسان لا يخرج عن دائرة وجودها مع التقوى والاحسان والصبر في ذوات المتقين والمحسنين والصابرين . ولابد لوجودها من مظهر تشرق منه مواهبها الروحية من غير ارادة أربابها شعروا بذلك أم لم يشعروا . ويوضح هذه الحيثية الحديث القدسي الشريف الذي رواه الامام البخاري في صحيحه ونصه بسنده قال « حدثني « محمد بن عثمان حدثنا خالد بن مخلد حدثنا سليمان بن بلال حدثني شريك « بن عبد الله بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة قال قال « رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب « وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب « إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره « الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وان سألني « لاعطينه ولئن استعاذ بي لاعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن « نفس المومن يكره الموت وأنا أكره مساءته » . فإذا كان العبد المتقرب بالنوافل — وليس ذلك إلا دأب الصالحين من المومنين — يصل إلى درجة تصير فيها كافة حواسه رهن الكونية الالهية أي متجردة من إحساسها الطبيعي منغمسة في بحر الاطلاق الرباني بكيفية لا يستطيع معها أخذا ولا ردا فسمعه وبصره ويده تحت تصرف الله لا تحت تصرف المادة فجدير بأذواقه حالتئذ أن تقع موقع الصواب بالنسبة بجوهريتها الجديدة وان كانت فيما يظهر لنا بذوق مادتنا خطأ . ولنا أن نتقبلها بالولاء المعاكس للمحاربة لكي لا نقع تحت الوعيد الصريح في هذا الحديث . اللهم إلا إذا خالفت نصوص الكتاب والسنة . وردها بالانكار إذا تحققنا صلاح صاحبها وكمال علمه في هذه الصورة تعسف . وان لم نستطع معه صبرا فالتفويض في شأنها أليق تنزلا منا إلى قصور إدراكنا وكوننا لا نستطيع من الصبر دائما مما أوتي موسى . وفرارا من أن يكون الحادث علينا فتنة كما قال تعالى « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا » (٢)

(١) سورة النحل . (٢) سورة الفرقان

شهادة فيلسوف ومؤرخ

الله و رسوله أصدق حديثا . وقد أوردت من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ما فيه الصراحة الكافية عن صدق المتوجهين باخلاص إلى ربهم فيما يدعون من المشاهدات والمكاشفات والاذواق والاسرار . ولم أتتبع فيما نقلته من الاحاديث النبوية إلّا ما في صحيح البخاري لانه في مقدمة صحاح السنة . وقد نقلت عن موطإ الامام مالك الدليل على حياة الشهداء عند ربهم (١) وهو الذي قال فيه الامام الشافعي « الموطأ أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى » . ولو أطلقت العنان للسنن وغيرها من كتب الحديث لما وسعني المجال . وانما هذا أنموذج صحيح يراد به الاثبات والتوصل الى ما يلازمه . وما حدا بالمنكرين الى الانكار إلّا قلة الاطلاع في عامتهم والغفلة مع الاطلاع في خاصتهم وان الغفلة لوبال عظيم . وقد عن لي ان أضيف الى هذه المباحث شهادة إمامين فقط من بين أئمة الاسلام الذين لو تتبعت اقوالهم في التصوف لما اتسع لي هذا المجلد . الاول قول رجل دخل حضرة التصوف وذاق مذاقها بعد ان خاض غمار المعارف من كل مذهب وسبر غور كل منزع . وهو حضرة حجة الاسلام الامام أبو حامد محمد الغزالي رضي الله عنه وهو الذي اعترف له علماء الاسلام في كل عصر بالاسبقية وعدوه من المجددين المشار اليهم بحديث « ان الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها . والثاني قول مؤرخ محقق في نقده درس احوال الاسلام ومواقفه التاريخية ومذاهبه الدينية والاجتماعية والسياسية . وعده المتأخرون حجة في ما ينقله عن الدول الاسلامية وهو العلامة ابن خلدون رحمه الله الشهير بما بسطه في مقدمته وتاريخه . وهو وان لم يتصوف فلقد حكم على التصوف حكم ناقد منصف غير متحيز ولا ناقم

قال حجة الاسلام : « .... ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لي في اثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن حصرها واستقصاؤها والقدر الذي اذكره لينتفع به اني علمت يقينا ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وان سيرتهم احسن السير وطريقهم أصوب الطرق واخلاقهم ازكى الاخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكم الحكماء وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ليغيروا

(١) راجع ص ٥٩ من هذا الجزء

شيئا من سيرهم واخلاقهم و يبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا وان جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم و باطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به و باجملة فما ذا يقول القائلون في طريقة طهارتها وهي أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية في الله وهذا آخرها بالاضافة الى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من اوائلها وهي على التحقيق أول الطريقة وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وارواح الانبياء و يسمعون منهم اصواتا و يقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والامثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق ولا يحاول معبر ان يعبر عنها إلّا اشتمل لفظه على خطإ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه وعلى الجملة ينتهي الامر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل ذلك خطأ وقد بينا وجه الخطإ فيه في كتاب المقصد الاقصى بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي ان يزيد على ان يقول (شعر)

وكان ما كان مما لست أذكره * فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

و باجملة فمن لم يرزق منه شيئا بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلّا الاسم وكرامات الاولياء على التحقيق بدايات الانبياء وكان ذلك في أول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل الى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه و يتعبد حتى قالت العرب ان محمدا عشق ربه وهذه حالة يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها فمن لم يرزق الذوق فيتيقنها بالتجربة والتسامع ان أكثر معهم الصحبة حتى يفهم ذلك بقرائن الاحوال يقينا فمن جلسهم استفاد منهم هذا الايمان فهم القوم لا يشقى جليسهم ومن لم يرزق صحبتهم فيعلم إمكان ذلك يقينا بشواهد البراهين على ما ذكرناه في كتاب عجائب القلب من كتب إحياء علوم الدين والتحقيق بالبرهان علم وملابسة عين ذلك الحالة ذوق والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن إيمان فهذه ثلاث درجات « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (١) و وراء هؤلاء قوم جهال هم المنكرون لاصل ذلك المتعجبون من هذا الكلام يسمعون و يسخرون و يقولون العجب انهم كيف يهذون وفيهم قال الله تعالى « ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ما ذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » (٢)

(١) سورة المجادلة (٢) سورة القتال

هذا ما ذكره حجة الاسلام رحمه الله في كتابه « المنقذ من الضلال » بعد ابحاثه الطويلة التي اجراها في طلب الحق حتى ارتضاه أخيرا من طريقة التصوف . وكفى به حجة فيما توجه اليه بهمته الاستقلالية المنعوت بها في ايامه حتى صار اماما يقتدى به بل حجة للاسلام أجمع

⁂

أما العلامة ابن خلدون فقد قال بعد ان بحث عن التصوف وتنوع اصناف رجاله

« .... فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الاذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لاحد وأذواقهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة وأما الكلام في كرامات القوم واخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وان مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الاستاذ الاسفرايني من أئمة الاشعرية على انكارها لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم ان وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية فان صفة نفسها التصديق ولو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع ان الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وانكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور واما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه كما انه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه لانها لم توضع إلا للمتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من المتشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة » (١)

فتأمل يارعاك الله كمال هذا الانصاف في الحكم من هذا المؤرخ الجليل وانظر كيف اعتبر التسليم لمشرب التصوف الصحيح (٢) أقرب المنازع الى السلامة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٨ طبع مصر ١٣٢٠ . (٢) كثيرا ما نردف التصوف بنعت الصحيح ورجاله بالصادقين احترازا من التصوف الباطل ورجاله الكاذبين وسنبين الفرق بين النوعين ان شاء الله تعالى في مبحث خاص يتبين فيه وأن التصوف الكاذب هو الذي نشأ عن ضلال البشريات بالابتداع والاختلاق وهو الداعي الاكبر الى إنكار المنكرين على أصل التصوف جملة وتفصيلا

وأن اذواق الرجال فيه سعادة مغبوطة وانكار مواجده ومكاشفات اهله نوع مكابرة لا يسلم صاحبها من الزيغ . فهذا البيان من حجة مؤرخي السياسة الاسلامية عن ما يراه في خاصة فكره الحر مع البيان السالف لحجة الاسلام بلا منازع شهادة تامة الشروط على صحة المنحى الذي توجهت اليه دلائل الكتاب والسنة فيما سلف لنا من المباحث آنفا. ولم يبق لنا بعد إلّا إعادة النظر في جوهرية المنحى المذكور وابداء مواهبه واسراره

إعادة الكلام على «السر الاعظم»

فارقنا نقطة النقد على « السر الاعظم » عند امتداد خط الاستدلال من أصول الدين على وجود الاسرار الغيبية وان لم تنطق بها النصوص الشرعية . وقد ثبت معنا بالادلة التي اوردناها من صريح الكتاب والسنة أن لكثير من عباد الله الصالحين نظرات روحية في عالم الغيب يباشرون بها مكالمة اهله من انبياء وملائكة فمرجعنا الى النقطة المذكورة الآن مرجع تطبيق للنتيجة على مقدماتها

فكون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو النبيء الامي المبعوث إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا سرا أعظم لهيأة الوجود قضية لا يسلمها العقل الانساني وليس لها مؤيد من نصوص الشريعة بالتصريح فلقد روى لنا اخبارها بعد اكتناه اسرارها الرجال العدول الذين سبق لنا التعريف ببعض احوالهم آنفا لما باشروا حضرته صلى الله عليه وسلم وهم مستيقظون في عالم مكاشفتهم . تلك المكاشفة التي ثبت عندنا حصولها بالدلائل الاثباتية السالفة وليس بعدئذ للخصم من دليل في نفيها إلّا تخرصات العقول . وهؤلاء الرجال المتظافرون على فهم هذا المعنى منذ العصور الاولى للاسلام لم يبرحوا في تصريحاتهم عن هذا الذوق مثابرين على القيام بحقوق الشريعة لا يحيدون عنها قيد شبر متواطئين على الاعمال الصالحة وارشاد الخلق اليها . ولذا ان نصدقهم في هذا التعبير الذي لم يجدوا غيره من مواد اللغات ليعبروا عن اذواقهم مفوضين الحقيقة الشعورية لنفس الحاصل في عين الغيب . لان إحساسنا بهذا التعبير يبعث العقول الى تصور امر محسوس مثل المألوفات الطبيعية التي تعتادها . وهؤلاء السادات الكمل في اذواقهم الغيبية يصرفون العقل عند حدود الاحساس ويتجردون للمعاني الروحية في حضرات ملؤها النور الذي لا يوصف باللون ولا بالجرم ولا بالطول ولا بالعرض ولا بالبسط ولا بالقبض بمخلوقاته النورانية المحضة فيتلقون علوما وفنونا واسرارا بأذواقهم الروحية لا بأوعيتهم العقلية . ولذلك لما يفيضون الترجمة عنها الى العقل يضطرون دائما الى التعبير الموافق للحس . فالفاظهم اللغوية فيها حسية . واذواقهم روحية .

وشتان ما بين الحالتين في تصوير الافادة والبيان . ولهذا يعسر على ارباب العقول تطبيق اخبار المغيبات على ما يألفون من القواعد المادية . وما يسلمها لاربابها إلّا من كان عارفا للنبوءة وأشعتها النورانية حقها . وللربوبية إرادتها المطلقة على المادة وعلى ما عداها

ولما كانت دعوى المكاشفين أرباب الفتح الكبير متواترة عنهم بالاسانيد الصحيحة تدوينا واملاء بأنهم باشروا حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتلقوا عنه سننا ونظامات وتراتيب في العبادات والمعاملات المعينة لهم ولاتباعهم على التقوى والدنو من الآخرة ونعيمها . فمن الصحيح ايضا انهم تلقوا عنه ايضا انوارا واسرارا شاهدوا بواسطتها امتداد نورانيته عليه الصلاة والسلام في الاكوان وتسلطها على مؤسسات الوجود بصورة تخالف الحس المألوف للعقول . وان لم تكن في أصول الدين نصوص تصرح بهذا فكفانا دلائل صدق هؤلاء القوم السالفة على صدقهم ويظافر ذلك ما اعطاهم الله من نوره القدسي وعدالتهم الثابتة بورعهم وتباعدهم عن السفه وسقط القول وزهدهم في زخرف الدنيا وزينتها

ومن جهة اخرى فإن دعواهم المذكورة لم تتعد دائرة العمل للآخرة من وعظ وارشاد وحث على التقوى وترتيب للاذكار والنوافل التعبدية بحيث ان الانسان لم يجد بين تلك التراتيب قيد أنملة لوضع تهمة اصطياد متاع الدنيا

ولقائل ان يقول متى كانت هذه التراتيب التعبدية التي اصطلح عليها الصوفية مفاضة من حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم لاربابها مشافهة في حالة اليقظة فما هو اعتبارنا لها من الوجهة الشرعية هل نعدها من جملة ما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بتبليغه للناس . والثابت أنه صلى الله عليه وسلم ما كتم شيئا مما أمر بتبليغه لقوله تعالى « ياأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته » (١) . فالجواب ان النبي في الحقيقة رجل أوحي اليه ولم يؤمر بالتبليغ والرسول نبي أوحي اليه وأمر بالتبليغ . وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كغيره من الرسل نبي ورسول في آن واحد . فخطاب الله تعالى له في الامر بالتبليغ كان في مقام الرسالة بلفظ « ياأيها الرسول » حيث كان قائما بحقوق الرسالة في مرتبتها المنيفة فأداها بالتمام والكمال . وبينها في أوضح القوالب والاشكال . وقد بقي له في حضرة النبوءة اسرارها الخاصة التي لم يؤمر بتبليغها للناس كافة . وانما كان يختص ببعض مواهبها من أهلهم الله لحملها وادراكها . ومن جملة تلك الاسرار سر الاسم الاعظم وعلومه . ولقد انقطع مدد حضرة الرسالة بانقضاء أمدها ووفاته صلى

(١) سورة المائدة

الله عليه وسلم وانتقاله من عالم الفناء إلى عالم البقاء . في حين أن مدد نبوته لم ينقطع بل بقي ساريا ببقاء ترقيه في حضرات العلم بالله تعالى . فانضما على الذوات المباشرة لحضرته من باب الفتح والمكاشفة بعلوم الآخرة والسلوك إلى الحضرة الالهية بالوسائل التعبدية من نوافل الاذكار والصلوات والصيام والتخلق بمكارم الاخلاق والكف عن الهوى وتصفية القلوب من امراض عنصريتها . ولدينا دليل من السنة صحيح في تعيين أمرهام هم عليه الصلاة والسلام بفعله في مرض موته لنفع أمته . ولكنه لم يفعله لانه من أسرار نبوته لا مما أمر بتبليغه للناس في مقام رسالته . والامر الهام المشار إليه هو الكتاب الذي ورد خبره في الصحاح من عدة طرق متظافرة . وقد اعتمد الامام البخاري الروايات الثلاث التي آثرت نقلها لبيان هذا الشان قال

« حدثنا يحي بن سليمان قال حدثني ابن وهب قال أخبرني يونس ابن شهاب « عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم «وجعه قال إيتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده قال عمر ان النبي « صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا فاختلفوا وكثر اللغط « فقال قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع فخرج ابن عباس يقول ان الرزية « كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين كتابه »

« حدثنا قتيبة حدثنا سفيان عن سليمان الاحول عن سعيد بن جبير قال قال ابن « عباس يوم الخميس وما يوم الخميس اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه « فقال إئتوني أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي « تنازع فقالوا ما شأنه أهجر استفهموه فذهبوا يردون عليه فقال دعوني فالذي أنا « فيه خير مما تدعوني اليه وأوصاهم بثلاث قال اخرجوا المشركين من جزيرة « العرب واجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم وسكت عن الثالثة او قال « فنسيتها »

« حدثنا علي بن عبد الله حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبيد « الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما حضر رسول الله « صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فقال النبي صلى الله عليه وسلم هلموا « أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده فقال بعضهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد « غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت واختصموا فمنهم « من يقول قربوا يكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ومنهم من يقول غير ذلك فلما « أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قوموا قال عبيد « الله فكان يقول ابن عباس ان الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله عليه « وسلم و بين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم »

فلو كان أمر هذا الكتاب الغيبي غير هام . أو ليس علما من العلوم الجليلة التي تمنع ضلال الامة وتحول بينها وبين زيغها المتوقع لما حاول عليه الصلاة والسلام أن يكتبه لاصحابه . ولو كان من جملة ما أمر بتبليغه لما أجم ولادى واجبه فيه أحب من أحب وكره من كره . ولكنه لما كان سرا من أسرار نبوته الخاصة أعرض عن إفشائه لما ارتفع لغط القوم وخلافهم بين يديه . وكانت الرزيئة كل الرزيئة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في ما حال بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين كتابه المذكور . وفي عدم ظهور هذا السر النبوي حكمة الهية اقتضتها المشيئة لابقاء الظاهر على مجراه . لكل نفس ماكسبت وعليها ما اكتسبت . وما كان عليه الصلاة والسلام كاتبا لاصحابه كتابه إلّا لهدايتهم وهداية من بعدهم بصفة خارقة للعادة إلى الوسائل الفعالة في الاستقامة والتمسك التام بالقرآن الحكيم . وان كان الصحابة عليهم الرضوان لاسيما أساطينهم الذين حضروا عند رسول الله صلى الله عليه آنئذ مستيقنين من أنفسهم تمام الاستقامة والتمسك بكتاب الله فانهم لم ينظروا بالعين التي نظر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مستقبل أمته حيث يغلب عليها ضعفاء العزائم الذين يغير الله ما بهم لما يغيرون ما بأنفسهم . فقد كان القرآن حسب الصحابة ـ كما قالوا ـ وكافيا لهم لوجود رابطة الاستقامة وقابلية التمسك بينهم وبين ذكر ربهم . لان القرآن لا ينفع إلّا من استقام معه وتمسك به حق التمسك . فاحتاج الناس إلى الحصول على قابلية التمسك قبل الحصول على نفع القرآن . وقابلية التمسك مع استعدادات النفوس حالة رهيبة بين خطوطها تجول الشكوك والظنون والاوهام . واليقين لا يتم إلّا بفيض من حضرة النبوءة وهو السر المفقود أو الحلقة المجهولة التي انقطعت عندها الرابطة بين الامة وكتاب ربها . وهو عين الضلال الذي ترك الامة الاسلامية بعد عصر الصحابة بين أمواج الفتن المتلاطمة كريشة في مهب رياح عاصفة .

فالانتفاع من القرآن وأحكامه في ترقية النفوس وتطهير السرائر سر لا يحصل إلّا لمن اقتبس من مشكاة النبوءة نور اليقين . فاذا استنار سبيله بنور اليقين الحقيقي فقد أحرز على الوسيلة الفعالة في ذاته لتلبية دعوة الرسالة المرسومة بين دفتي المصحف الشريف مطيعا للاوامر مجتنبا للنواهي عن بصيرة وبينة لا عن شك وريب . فالسر الذي كان يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتبه لاصحابه عند احتضاره لكي لا يضلوا عن كتاب الله هو نور اليقين . وقد أعرض صلى الله عليه وسلم عن افشائه لعدم حاجة صحابته الكرام إليه ولما رأى منهم من شدة الاستمساك والتبصر بالقرآن الحكيم . ولكنه اذخره في حضرات غيب الله يفيضه مددا روحيا على من شاء أن يستقيم من أمته على صراط القرآن في ازمان احتوشها الغي وعم اهلها الضلال

فمن حضرة النبوءة تفيض الامدادات الروحية على المستعدين لقبولها من صالحي العالمين . وهذه الحضرة أوسع دائرة من الرسالة لان هذه الحضرة الاخيرة وقتية جاء دورها لغاية التبليغ وانقطع باكمال توضيح الدين وتبيين الشريعة . وتبقى حضرة النبوءة مأمورية تنفيذ الوسائل الحبية للمتقربين الى الله بالنوافل من العباد . وهذه الوسائل روحية ذوقية لا ارتباط لها بأدنى صبغة حسية مادية . وسنن الشريعة نظامات عملية تتقرر بالماديات من العبادات والمعاملات في احوالها الظاهرة . فإذا توفق العبد الى ربط ماديات دينه بروحانيات إيمانه فقد اعتصم بالوسائل الامدادية الفائضة من حضرة النبوءة . ويصير قرب الله جل جلاله منه إحاطيا لا اختيار له فيه اذ يكون سبحانه متسلطا على كافة حواسه وادراكاته بسلطان رضاه لا بسلطان سخطه . وفي هذه الحالة السامية حيث يكون الله عين سمع العبد وبصره ويده ورجله تتقهقر سنن المادة وتتم للروح مباشرة ما وراء الطبيعة من الحضرات الغيبية بقدرة الله التي لا يشذ عن تأثيرها شيء في الارض ولا في السماء

ثم لنلاحظ بكيفية خاصة أن السنة النبوية التي هي أحد شقي الشريعة الاسلامية ثبتت بالتواتر والاسناد برواية الصحابة العدول الذين باشروا حضرة النبي صلى الله عليه وسلم في مظهره الانم . وهؤلاء الصحابة الكرام رووا للتابعين ما شاهدوا وما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهؤلاء بلغوا لمن بعدهم ما تلقوه من الصحابة . حتى بلغ الحديث الى اصحاب الدواوين الصحيحة الذين قاموا على ساق الجد لتمحيص السنة واثبات الثابت منها وتزييف ما أحاطت به الشكوك وكانت وسيلتهم في هذا العمل الشاق تحقيق عدالة الرواة . وهذه العدالة لا تتم بوجوهها الكاملة إلا بسلامة الطوية وحسن الخلق وصفاء الضمير وصفات التقوى التي تصد العبد عن الكذب والتزوير والاخلال بنظام الدين . حتى انهم كانوا يعدون العمل عند السلطان من الشبهات التي تمس بكرامة العدالة فلم يقبلوا من مخزني اوسياسي رواية قط . وصار الرواة العدول مشهورين في كتب الحديث بالصدق والانابة والتقوى والزهد والعبادة . لان العدالة لا تتم إلا بوازع ديني يتشكل مما ذكر من الخصال الروحية الصالحة . فالصوفي من هذه الحيثية سلفي لتمسكه بما كان عليه هؤلاء العدول رواة السنة الشريفة . وغالب هؤلاء الرواة والمدونين كانوا صوفية بخصال احسانهم وتقواهم

ومنهم أئمة المذاهب الفقهية واصحاب السنن الصحيحة ومن باشرهم من الفحول . فعدالة هؤلاء الرجال المتشكلة من التقوى والانابة الدافعة للامة الاسلامية الى اعتماد رواياتهم في تمحيص السنة القائم بها الشق الثاني من شريعتها المطهرة هي نفس العدالة الموجودة عند رجال التصوف الصادقين من غير اخلال

فأولئك العدول السالفون هم أئمة هؤلاء العدول المتأخرين في تقواهم . بل ان صبغة الجميع واحدة والنهج واحد وما تميز هؤلاء إلّا بالاسم لاصطلاحي الموضوع في آن تكاثر فيه اختراع لاسماء لاصطلاحية على جميع اجزاء لامة لاجتماعية منها والدينية . ولما كانت عدالة الجميع واحدة بشروطها التامة فكيف يصح منا قبول رواية البعض في أهم أصول الدين تدينا ومعاملة وعبادة و رد رواية البعض في ما هو فرعي مرماه توضيح غاية الدين وتشويق النفوس الى ما هو أسمى عند الله وأزكى في حضرات غيبه ؟

هذا كتاب الله الناطق بالحق في خلقه على ألسنة صالحي عباده أفنؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ؟

هداية الهادي إلى الصراط المستقيم

لما قضى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة بعد البعثة مدة ثلاثة عشر عاما وهو على النمط المعهود من الكفاح في الدعوة الى الله والمثابرة على ذلك ليلا ونهارا بكرة وعشيا وخوارق العادة تؤيد اقواله وتساير احواله وافعاله أذن له ربه في الهجرة الى المدينة المنورة بعد أن استوثق من الانصار بها رباط المساعدة والمعاضدة. ولما استقر له بها القرار أخذ في تأييد دعوته القولية بالدعوة الفعلية. ونصرة اللسان بحد السيف والسنان. دفاعا لا انتقاما واصلاحا لا اغتناما. فقام بذلك عن عزة جانب وقوة ظهر. وتوسع في تبليغ أوامر الرسالة والدعوة الى التوحيد الى ملوك الارض كسرى وقيصر وهرقل والمقوقس. وتم له الفتح الاكبر بدخول بيت الله الحرام وتدمير تماثيل الاوثان والاصنام. وتتابع الناس يدخلون في الاسلام افواجا. ولم يتقبل عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الاعلى حتى عم دين الاسلام بلاد العرب من جميع اطرافها واصبحت كلمة الله هي العليا كما وعد

والى اجتهاده العظيم عليه الصلاة والسلام الاجتهاد المادي منذ بعثته الى انتقاله الروحي منذ ذلك الانتقال الى الآن في هداية الخلق ونصرة الحق. ذلك الاجتهاد الذي هو أعلى ما كان من نوعه من أي مخلوق وأصفى مشربا لما خالطه من اللين في محله والشدة في محلها والجاذبية الروحية والسياسة الدورانية يشير المصلي عليه داعيا اسمه وواصفا مجده بقوله

﴿ ناصر الحق بالحق والهادي الى صراطك المستقيم ﴾

سر جليل حوته صلاة الفتح لما أغلق التي لا زلنا بصدد شرحها. حيث أنها وافقت فاتحة الكتاب في مغزى « اهدنا الصراط المستقيم ». فالمصلي بها مع استحضار وصف النبي صلى الله عليه وسلم المذكور قد يلاحظ هذا الملحظ مع خشوع القلب والجوارح. مستمدا من الحضرة النبوية مدد الهداية الروحية.

لقد حوت سر هذا الابتهال وارتبطت معه بحلقة قوله تعالى « وانك لتهدي « الى صراط مستقيم » (١) . فهو عليه الصلاة والسلام الهادي كما سماه ربه الى صراطه المستقيم . فعند هذه النقطة اتحدت الفاتحة مع الفاتحة اتحادا صريحا . وكان فتح باب التضرع والابتهال بينهما الى الحضرة الالهية حاصلا بالمعنى الذي يرومه المصلي المخلص في صلاته . أي باقتباس الهداية الروحية من مشكاة الهادي . اذ قال الله تعالى « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء »(٢) ارتفع التحجير على القدرة الالهية فيما تجريه من تمييز بعض الناس على بعض وذلك خطاب للذات النبوية في حضرة الرسالة وبسط الدعوة العامة . وليستيقن من شرح الله صدره للهدى بأن التأثير في الايجاد والاعدام لله وحده وليس لمخلوق ارادة مغايرة للسنة المخطوطة في نظام الاهتداء والتضليل كما سبق في علمه جل وعلا والقاها بين يدي رسوله صلى الله عليه وسلم صراطا مستقيما ومحجة بيضاء واضحة قد يقيم عليها سعي المهتدين بجاذبيته الربانية بالسر المبثوث في روحانية رسوله الامي . وهذه صبغة خاصة فطر الله عليها الخواص من خلقه حسبما ثبت في مشيئته حيث لا تحجير ولا تعقيب . وفي هذه الحضرة قد تستتر وتنعدم كافة الوسائط والاسباب . وتتلاشى جميع التعلقات والتوجهات . حتى يقول العبد عندها « اهدنا الصراط المستقيم » . وهو يلاحظ الهادي ملاحظة روحانية بصراحة الحق القائل « وانك لتهدي الى صراط مستقيم » . في حين ان وحدة الاختيار ومطلق الارادة والتدبير في الهداية لم تعد عن قيد قوله تعالى « وما رميت اذ رميت « ولكن الله رمى » (٣) . الا ترى ان الله يضل من يشاء كما انه يهدي من يشاء ولكنه يضيف الضلال الى عمليات الشيطان مرة والاهواء النفوس اخرى . فتأمل واعتبر فلكل مقام مقال

فسر الهادي عليه الصلاة والسلام هو سر الهداية الالهية وعينها في حضرتي الشهادة والغيب . وليس دون هذه الهداية مسلك آخر لطالبي الاهتداء بوسائل استقلالية خارجة عن نظامها . وان كان غالب العصريين ذاهب الى عدم اعتبار هداية الرسول صلى الله عليه وسلم امدادية روحانية باقية . بل يقولون انها عملية قولية في إبان التبليغ والتشريع ثم انقطعت حقيقتها بوفاته صلى الله عليه وسلم ولم يبق إلا صداها موجودا بوجود الملة الاسلامية وذلك مبلغهم من العلم فمذهب أهل التحقيق واليقين ان هداية الهادي الى الصراط المستقيم كانت اشد تأثيرا في عالم الارواح مع دوامها من هدايته التبليغية إبان التشريع والرسالة في عالم الاشباح

---

(١) سورة الشورى . (٢) سورة البقرة . (٣) سورة الانفال

﴿ المنظر العام لمسجد الله الحرام . موقع الكعبة الشريفة وأبطح مكة والجبال المحيطة بها . مهبط الوحي ومنشأ الرسالة ومهد النبوة المحمدية ﴾

قد تختلف آراء الناس في معاني هداية المصطفى صلى الله عليه وسلم وأوحى ما أفادت به الخلق لان كل فريق بما لديهم فرحون . فالحكام ينسبون لهدايته ما لديهم من نظامات الملك . كما أن أرباب التشريع يضيفون لهدايته أيضا أحكام القضاء . والمتدينون من المتمدنين يفتخرون بكونه عليه الصلاة والسلام ممدن لامم ببعثته . والسبب الوحيد في انتشال العالم البشري من وهدة الجهل الى ربوة العلم . وأرباب الدنيا يحكون عنه كل ما يزيدهم إقبالا على لذائذ الحياة . الى غير ذلك من الآراء التي يطول تفصيلها

وحقيقة أمره عليه الصلاة والسلام الناطق بها كتاب الله و واضح سيرته وسنته أنه ما كان صلى الله عليه وسلم يهدي الناس ليقيموا نظاما فانيا . ولا لان يخطوا سياسة حكام متسلطين لا بملكية ولا بجمهورية . وما كان جاعلا الهداية الى عين التشريع بل جعل التشريع وسيلة من وسائل الهداية الاسلامية . وما كان صلى الله عليه وسلم ممدن لامم بالمعنى الذي يتبادر الى عقول العموم والذي هو متعارف في طبيعة الاجتماع . وفي النهاية لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قط رب دنيا ولا دعى اليها احدا بهدايته العظمى

﴿ المنظر العام لطيبة الطيبة . دار الهجرة وظهور الاسلام . ومثوى النبـــوءة ﴾
والمسجد الذي حوى روضة من رياض الجنـة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

بل ان ذاتيته السامية عليه الصلاة والسـلام المتشكلـــة نصب عيني كل من تلقى القرآن والسنة باهتمام لذاتية فردة المظهر وحيدة التركيب لما جمعته من مكارم الاخلاق المتفرقة في أجناس الملـكوت . وجل هذه الاخـلاق الكريمـــة مجهول الحقيقة عند أهل هذه العصور فطفقوا يتصـــورون في النبوءة شكلا من النظـام يسمح لهم بتطبيق الدين على التمدين والباقي على الفاني

طالما لعبت التخيلات الحسية باجناس الناس في هذا المعبر بالرغم من صراحة ما يتلون من الاخبار الصادقة . في حين أنه عليه الصـلاة والسلام لم يكن إلّا عين الهداية الى حضرة الآخرة بصراحة القول والعمل . دأبه الاعراض عن الدنيا و زخرفها وديدنه تيسير العمل بما تيسر منها لمعرفة الله ومواطن غيوبه الدائمـــة . والاستعداد للمرجعة الكبرى التي لا ريب في حلول يومها بكل نسمة . لهذا أظهـــره الله بشيرا ونذيرا وأقامه يدعو اليه على بصيرة فاتبعه صحابته الكرام والتابعون لهم باحسان ومن خلفهم من رجال العبادة والتقوى والانابة الذين سموهم صوفية باصطلاح الحال

ولتحقيق صورة الهداية المحمدية في هذا الشكل السـامي المبســوط نراجع في المبحث الآتي والذي يليه ما تيسر من آي الذكر الحكيـم والاحاديث النبويـــة

الوارده في هذا المعنى لاثبات القول بأن سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لم يكن رب دنيا ولا داعيا إليها . بل كان صاحب الدعوة إلى الاخرى بالقول والعمل حسبما أمره ربه . وأن مسلك الصوفية من أمته في نبذ الدنيا والانابة إلى حياة الآخرة بالعمل لها لم يكن إلّا نفس المسلك الذي ارتضاه عليه الصلاة والسلام لنفسه ولاولياء الحق من الخلق

ذاتية الرسول صلى الله عليه وسلم في القرءان

« ولولا فضل الله عليك و رحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلّا
« أنفسهم وما يضرونك من شيء وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك
« ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » (١)

« ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته
« والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدي القوم الكافرين » (٢)

« قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والارض وهو يطعم ولا يطعم قل اني أمرت
« أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين * قل اني أخاف ان
« عصيت ربي عذاب يوم عظيم » (٣)

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من
« حسابهم من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون
« من الظالمين * وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا
« أليس الله بأعلم بالشاكرين » (٤)

« وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل
« نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وان تعدل كل عدل لا
« يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب اليم
« بما كانوا يكفرون » (٥)

« واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي
« أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون
« الزكاة والذين هم بآياتنا يومنون * الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي
« يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن
« المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال
« التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه
« اولئك هم المفلحون * قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له
« ملك السماوات والارض لا إله إلّا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي
« الامي الذي يومن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » (٦)

---

(١) سورة النساء (٢) سورة المائدة (٣) و (٤) و (٥) سورة الانعام (٦) سورة الاعراف

« خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . واما ينزغنك من الشيطان نزغ
« فاستعذ بالله انه سميع عليم » (١)

« واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو
« والآصال ولا تكن من الغافلين » (٢)

« ياأيها النبيء حسبك الله ومن اتبعك من المومنين » (٣)

« ألا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار
« اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم
« تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » (٤)

« لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمومنين رؤوف
« رحيم * فإن تولوا فقل حسبي الله لا اله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش
« العظيم » (٥)

« قل ياأيها الناس ان كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون
« الله ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن اكون من المومنين * وأن اقم
« وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين * ولا تدع من دون الله ما لا
« ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك إذن من الظالمين * ان يمسسك الله بضر
« فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من
« عباده وهو الغفور الرحيم » (٦)

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير * ولا
« تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من اولياء ثم لا تنصرون
« * وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك
« ذكرى للذاكرين * واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » (٧)

« قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا
« من المشركين » (٨)

« ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك الى ما متعنا
« به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمومنين * وقل اني أنا
« النذير المبين » (٩)

« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من
« الساجدين * واعبد ربك حتى ياتيك اليقين » (١٠)

« واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون

---

(١) و (٢) سورة الاعراف . (٣) سورة الانفال. (٤) و (٥) سورة التوبة . (٦) سورة يونس . (٧) سورة هود. (٨) سورة يوسف . (٩) و (١٠) سورة الحجر

« ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (١)
« ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه
« مسؤولا * ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال
« طولا * كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها * ذلك مما أوحى إليك
« ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا » (٢)
« أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان
« مشهودا * ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا
« وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك
« سلطانا نصيرا * وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » (٣)
« ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا إلا رحمة
« من ربك ان فضله كان عليك كبيرا » (٤)

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد
« عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع
« هواه وكان أمره فرطا » (٥)

« فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها
« ومن آناء الليل فسبح واطراف النهار لعلك ترضى * ولا تمدن عينيك إلى ما
« متعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى *
« وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » (٦)
« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٧)
« أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين * وانك لتدعوهم الى
« صراط مستقيم » (٨)
« وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا * قل ما اسألكم عليه من اجر إلا من شاء ان
« يتخذ الى ربه سبيلا * وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به
« بذنوب عباده خبيرا » (٩)
« وانذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المومنين فان
« عصوك فقل اني بريء مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك
« حين تقوم وتقلبك في الساجدين » (١٠)
« فأقم وجهك للدين القيم من قبل ان يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ

«١» سورة النحل . «٢» و «٣» و «٤» سورة الاسراء . «٥» سورة الكهف . «٦» سورة طه . «٧» سورة الانبياء . «٨» سورة المومنون . «٩» سورة الفرقان . «١٠» سورة الشعراء

« يصدعون * من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون » (١)
« فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » (٢)
« ياأيها النبيء اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما *
« واتبع ما يوحى إليك من ربك ان الله كان بما تعملون خبيرا * وتوكل على الله
« وكفى بالله وكيلا » (٣)
« النبيء أولى بالمومنين من انفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الارحام بعضهم أولى
« ببعض في كتاب الله من المومنين والمهاجرين إلّا ان تفعلوا الى اوليائكم معروفا
« كان ذلك في الكتاب مسطورا » (٤)
« لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر
« الله كثيرا » (٥)
« ياأيها النبيء قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا و زينتها فتعالين
« امتعكن واسرحكن سراحا جميلا وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن
« الله اعد للمحسنات منكن اجرا عظيما » (٦)
« ما كان محمد أبا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيئين وكان الله بكل
« شيء عليما » (٧)
« ياأيها النبيء انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا الى الله بإذنه وسراجا
« منيرا » (٨)
« ان الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » (٩)
« وما ارسلناك إلّا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (١٠)
« انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وان من امة إلّا خلا فيها نذير » (١١)
« يس * والقرآن الحكيم * انك لمن المرسلين * على صراط مستقيم » (١٢)
« فاصبر ان وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فإلينا
« يرجعون » (١٣)
« وكذلك اوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع
« لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير » (١٤)
« فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنت بما انزل الله
« من كتاب وامرت لاعدل بينكم الله ربنا و ربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لا
« حجة بيننا و بينكم الله يجمع بيننا واليه المصير » «١٥»

---

(١) و(٢) سورة الروم (٣) و(٤) و(٥) و(٦) و(٧) و(٨) و(٩) سورة الاحزاب .
(١٠) سورة سبأ . «١١» سورة فاطر . «١٢» سورة يس . «١٣» سورة المومن .
«١٤» و «١٥» سورة الشورى

« وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان
« ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبـــادنا وإنك لتهـدي الى صراط
« مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور » «١»
« فاستمسك بالذي أوحي اليك انك على صراط مستقيم » «٢»
« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » «٣»
« انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتـــم
« نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا » «٤»
« انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقـــروه
« وتسبحوه بكرة وأصيلا » «٥»
« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهـــم تراهم ركعا سجدا
« يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم
« في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على
« سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحـات منهم
« مغفرة واجرا عظيما » «٦»
« والنجم اذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهـوى * ان هو
« إلّا وحي يوحى * علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالافق الاعلى * ثم دنا
« فتدلى * فكان قاب قوسين او ادنى * فأوحى الى عبده ما أوحى * ما كـــذب
« الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى » «٧»
« ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وان لك لاجرا
« غير ممنون * وانك لعلى خلق عظيم » «٨»
« يا أيها المزمل * قم الليل إلّا قليلا * نصفه او انقص منه قليلا * او زد عليه ورتل
« القرآن ترتيلا * انا سنلقي عليك قولا ثقيلا * ان ناشئة الليل هي اشد وطأ واقوم قيلا
« ان لك في النهار سبحا طويلا * واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » (٩)
« يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجـز فاهجر * ولا
« تمنن تستكثر * ولربك فاصبر » (١٠)
« والضحى والليل اذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللاخرة خير لك من
« الاولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا
« فهدى * ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيـم فلا تقهر * واما الســائل فلا تنهر * واما
« بنعمة ربك فحدث » «١١»

«١» سورة الشورى. «٢» سورة الزخرف. «٣» سورة الاحقاف. «٤» و«٥» و«٦» سورة
الفتح. (٧) سورة النجم. (٨) سورة القلم. (٩) سورة المزمل. (١٠) سورة المدثر. (١١) الضحى

ذاتية الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة

قال الامام الحافظ الترمذي (١) « حدثنا احمد العنبي البصري وعلي بن حجر
« وابوجعفر محمد بن الحسين وهو ابن ابي حاتمة والمعنى واحد قالوا حدثنا عيسى بن
« يونس عن عمر بن عبد الله مولى غفرة قال حدثني ابراهيم بن محمد من ولد علي بن
« ابي طالب رضي الله عنه قال كان علي اذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم
« قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطويل الممغط ولا بالقصير المتردد
« وكان ربعة من القوم لم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط كان جعدا رجلا ولم يكن
« بالمطهم ولا بالمكلثم وكان في وجهه تدوير ابيض مشرب ادعج العينين اهدب
« الاشفار جليل المشاش والكتد اجرد ذو مسربة شثن الكفين والقدمين اذا مشى
« تقلع كانما ينحط من صبب واذا التفت التفت معا بين كتفيه خاتم النبوة
« وهو خاتم النبيين اجود الناس صدرا وأصدق الناس لهجة والينهم عريكة
« واكرمهم عشرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة احبه يقول ناعته لم ار قبله
« ولا بعده مثله »

وقال ايضا « حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا جميع بن عمير بن عبد الرحمن
« العجلي املاء علينا من كتابه قال حدثني رجل من بني تميم من ولد ابي هالة
« زوج خديجة يكنى أبا عبد الله عن ابن ابي هالة عن الحسن بن علي رضي الله
« عنهما قال سألت خالي هند بن ابي هالة وكان وصافا عن حلية النبي صلى الله
« عليه وسلم وانا اشتهي ان يصف لي منها شيئا اتعلق به فقال كان رسول الله صلى الله
« عليه وسلم فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر اطول من المربوع واقصر
« من المشذب عظيم الهامة رجل الشعر ان انفرقت عقيقته فرقها وإلا فلا يجاوز
« شعره شحمة اذنيه اذا هو وفره ازهر اللون واسع الجبين ازج الحواجب سوابغ
« في غير قرن بينهما عرق يدره الغضب اقنى العرنين له نور يعلوه يحسبه من لم
« يتأمله اشم كث اللحية سهل الخدين ضليع الفم مفلج الاسنان دقيق المسربة
« كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة معتدل الخلق بادن متماسك سواء البطن

---

(١) الامام الترمذي هو ابو عيسى محمد بن عيسى صاحب الجامع الصحيح في السنة توفي رحمه الله سنة ٢٧٩

« والصدر عريض "الصدر بعيد ما بين المنكبين ضخم الكراديس أنور المتجرد
« موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط عاري الثديين والبطن مما سوى
« ذلك أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر طويل الزندين رحب الراحة
« شثن الكفين والقدمين سائل او قال شائل الاطراف خمصان الاخمصين مسيح
« القدمين ينبو عنهما الماء إذا زال زال قلعا يخطو تكفيا و يمشي هونا ذريع المشية
« اذا مشى كأنما ينحط من صبب واذا التفت التفت جميعا خافض الطرف نظره
« إلى الارض أطول من نظره الى السماء جل نظره الملاحظة يسوق أصحابه و يبدر
« من لقيه السلام »

⁂

روى الامام البخاري في صحيحه فقال « حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو
« الاحوص عن الاعمش عن زيد بن وهب قال قال أبو ذر كنت أمشي مع النبي
« صلى الله عليه وسلم في حرة المدينة فاستقبلنا أحد فقال ياأبا ذر قلت لبيك
« يارسول الله قال ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبا تمضي علي ثالثة وعندي
« منه دينار إلا شيئا ارصده لدين إلا ان اقول به في عباد الله هكذا وهكذا عن
« يمينه وعن شماله ومن خلفه ثم مشى فقال ان الاكثرين هم الاقلون يوم
« القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه وقليل
« ما هم ثم قال لي مكانك لا تبرح حتى آتيك ثم انطلق في سواد الليل حتى
« توارى فسمعت صوتا قد ارتفع فخرفت أن يكون قد عرض للنبي صلى الله
« عليه وسلم فأردت ان آتيه فذكرت قوله لي لا تبرح حتى آتيك فلم أبرح
« حتى أتاني قلت يارسول الله لقد سمعت صوتا تخوفت فذكرت له فقال وهل
« سمعته قلت نعم قال ذاك جبريل اتاني فقال من مات من أمتك لا يشرك
« بالله شيئا دخل الجنة قلت وان زنى وان سرق قال وان زنى وان سرق »

وقال « حدثنا ابو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا سعيد بن ابي عروبة عن قتادة
« عن أنس رضي الله عنه قال لم يأكل النبي صلى الله عليه وسلم على خوان حتى
« مات وما أكل خبزا مرققا حتى مات »

وقال « حدثنا عبد الله بن ابي شيبة حدثنا ابو اسامة حدثنا هشام عن ابيه عن
« عائشة رضي الله عنها قالت لقد توفي النبي صلى الله عليه وسلم وما في رفي
« من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي فأكلت منه حتى طال
« علي فكلته ففني »

وقال حدثني ابو نعيم بنحو من نصف هذا الحديث حدثنا عمر بن ذر حدثنا
مجاهد ان ابا هريرة كان يقول آلله الذي لا اله إلا هو إن كنت لاعتمد بكبدي

« على الارض من الجوع وان كنت لاشد الحجر على بطني من الجوع ولقد
« قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه فمر أبو بكر فسألته عن آية
« من كتاب الله ما سألته إلّا ليشبعني فمر ولم يفعل ثم مر بي عمر فسألته عن
« آية من كتاب الله ما سألته إلّا ليشبعني فمر فلم يفعل ثم مر بي أبو القاسم
« صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم
« قال أبا هر قلت لبيك يارسول الله قال الحق ومضى فتبعته فدخل فاستأذن فاذن
« لي فدخل فوجد لبنا في قدح فقال من أين هذا اللبن قالوا أهداه لك فلان او
« فلانة قال أبا هر قلت لبيك يارسول الله قال الحق الى اهل الصفة فادعهم لي
« قال واهل الصفة اضياف الاسلام لا يأوون إلى اهل ولا مال ولا على احد اذا
« أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا واذا أتته هدية ارسل إليهم واصاب
« منها واشركهم فيها فساءني ذلك فقلت وما هذا اللبن في اهل الصفة كنت
« أحق أنا ان اصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها فاذا جاء امرني فكنت
« انا اعطيهم وما عسى ان يبلغني من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة
« رسوله صلى الله عليه وسلم بد فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم
« واخذوا مجالسهم من البيت قال يا أبا هر قلت لبيك يارسول الله قال خذ فاعطهم
« قال فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي
« القدح فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح فيشرب حتى
« يروى ثم يرد علي القدح حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روي
« القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلي فتبسم فقال أبا هر قلت لبيك
« يارسول الله قال بقيت انا وانت قلت صدقت يارسول الله قال اقعد فاشرب
« فقعدت فشربت فقال اشرب فشربت فما زال يقول اشرب حتى قلت لا والذي
« بعثك بالحق ما اجد له مسلكا قال فأرني فاعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب
« الفضلة »

وقال « حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن إسمعيل حدثنا قيس قال سمعت سعدا
« يقول إني لاول العرب رمى بسهم في سبيل الله و رأيتنا نغزو وما لنا طعام إلّا
« ورق الحبلة وهذا السمر وان احدنا ليضع كما تضع الشاة ما له خلط ثم اصبحت
« بنو اسد تعزرني على الاسلام خبت إذا وضل سعيي »

وقال « حدثني عثمان حدثنا جرير عن منصور عن ابراهيم عن الاسود عن عائشة
« قالت ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث
« ليال تباعا حتى قبض »

« حدثني إسحاق بن إبراهيم بن عبد الرحمن حدثنا إسحاق هو الازرق عن
« مسعر بن كدام عن هلال عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت ما اكل

« آل محمد صلى الله عليه وسلم أكلتين في يوم إلّا إحداهما تمر »

« حدثني احمد بن رجاء حدثنا النضر عن هشام قال اخبرني أبي عن عائشة
« قالت كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم من أدم وحشوه من ليف »

« حدثنا هدبة بن خالد حدثنا همام بن يحيى حدثنا قتادة قال كنا نأتي أنس
« ابن مالك وخبازه قائم وقال كلوا فما اعلم النبي صلى الله عليه وسلم رأى رغيفا
« مرققا حتى لحق بالله ولا رأى شاة سميطا بعينه قط »

« حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يحيى حدثنا هشام اخبرني أبي عن عائشة رضي
« الله عنها قالت كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارا إنما هو التمر والماء إلّا ان
« نؤتى باللحيم »

« حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الاويسي حدثني ابن ابي حازم عن ابيه عن
« يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة انها قالت لعروة ابن اختي إن كنا لننظر
« إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في ابيات رسول الله صلى الله
« عليه وسلم نار فقلت ما كان يعيشكم قالت الاسودان التمر والماء إلّا انه قد كان
« لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الانصار كان لهم منائح وكانوا يمنحون
« رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابياتهم فيسقيناه »

وقال ايضا « حدثنا احمد بن محمد المكي حدثنا إبراهيم بن سعد عن سعد عن
« ابيه قال أتي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يوما بطعامه فقال قتل مصعب
« ابن عمير وكان خيرا مني فلم يوجد ما يكفن به إلّا بردة وقتل حمزة أو رجل آخر
« خير مني فلم يوجد ما يكفن به إلّا بردة لقد خشيت ان تكون قد عجلت لنا
« طيباتنا في حياتنا الدنيا ثم جعل يبكي »

وقال « حدثنا ابن مقاتل اخبرنا عبد الله اخبرنا شعبة عن سعد بن ابراهيم عن
« ابيه إبراهيم ان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أتي بطعام وكان صائما فقال
« قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط او قال أعطينا
« من الدنيا ما أعطينا وقد خشينا ان تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكي
« حتى ترك الطعام »

وقال ايضا بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال في خبر «ان تتوبا الى الله»

. . . . . .

« فجلست حين رأيته تبسم ثم رفعت بصري في بيته فوالله ما رايت فيه شيئا
« غير اهبة ثلاث قلت ادع الله فليوسع على امتك فان فارس والروم وسع
« عليهم واعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله فجلس وكان متكئا فقال اوفي شك انت
« يا ابن الخطاب اولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت يا رسول
« الله استغفر لي . . . . . .

روى الترمذي في الشمائل قال « حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا حماد بن زيد عن
« أيوب عن محمد بن سيرين قال كنا عند أبي هريرة وعليه ثوبان ممشقان من
« كتان فتمخط في أحدهما فقال بخ بخ يتمخط أبو هريرة في الكتان لقد رأيتني
« واني لاخر فيما بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجرة عائشة رضي الله تعالى
« عنها مغشيا علي فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي يرى أن بي جنونا وما بي
« جنون وما هو إلا الجوع »

« حدثنا قتيبة حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي عن مالك بن دينار قال ما شبع
« رسول الله صلى الله عليه وسلم من خبز قط ولا لحم إلا عن ضغث قال مالك
« سألت رجلا من اهل البادية ما الضغف قال ان يتناول مع الناس »

« حدثنا محمد بن المثنى ومحمد بن بشار قالا حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن
« أبي إسحق قال سمعت عبد الرحمن بن يزيد يحدث عن الاسود بن يزيد عن
« عائشة انها قالت ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من خبز الشعير يومين
« متتابعين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم »

« حدثنا عبد الله بن معاوية الجمحي حدثنا ثابت بن يزيد عن هلال بن خباب
« عن عكرمة عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي
« المتتابعة طاويا هو واهله لا يجدون عشاء وكان اكثر خبزهم خبز الشعير

« حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أنبأنا عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي حدثنا
« عبد الرحمن وهو عبد الله بن دينار حدثنا أبو حازم عن سهل بن سعد أنه قيل له
« أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم النقي يعني الحواري (١) فقال سهل ما رأى
« رسول الله صلى الله عليه وسلم النقي حتى لقي الله عزوجل فقيل له هل كانت
« لكم مناخل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما كانت لنا مناخل قيل
« كيف كنتم تصنعون بالشعير قال كنا ننفخه فيطير منه ما طار ثم نعجنه »

« حدثنا أحمد بن منيع حدثنا عباد بن عباد المهلبي عن مجالد عن الشعبي عن
« مسروق قال دخلت على عائشة فدعت لي بطعام وقالت ما أشبع من طعام
« فأشاء أن أبكي إلا بكيت قال قلت لم قالت اذكر الحال التي فارق عليها
« رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا والله ما شبع من خبز ولا من لحم مرتين
« في يوم »

« حدثنا قتيبة حدثنا ابو الاحوص عن سماك بن حرب قال سمعت النعمان
« ابن بشير يقول الستم في طعام وشراب ما شئتم لقد رايت نبيكم صلى الله
« عليه وسلم وما يجد من الدقل (٢) ما يملأ بطنه »

---

(١) الحواري بضم الحاء وتشديد الواو خلاصة الدقيق وابيضه . (٢) الردئ من التمر

« حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا سهل بن أسلم عن يزيد بن
« أبي منصور عن أنس عن ابي طلحة قال شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه
« وسلم الجوع و رفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم
« عن حجرين » (١)

« حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن حدثنا روح بن أسلم أبو حاتم البصري حدثنا
« حماد بن سلمة أنبأنا ثابت عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد
« أخفت في الله وما يخاف احد ولقد أوذيت في الله وما يؤذى احد ولقد اتت
« علي ثلاثون من بين ليلة و يوم ما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلّا شيء يواريه
« ابط بلال »

« حدثنا عبد بن حميد حدثنا محمد بن اسمعيل بن أبي فديك حدثنا ابن ابي
« ذئب عن مسلم بن جندب عن نوفل بن اياس الهذلي قال كان عبد الرحمن بن
« عوف لذا جليسا وكان نعم الجليس وانه انقلب بنا ذات يوم حتى اذا دخلنا بيته
« دخل فاغتسل ثم خرج واتينا بصحفة فيها خبز ولحم فلما وضعت بكى عبد
« الرحمن فقلت يا ابا محمد ما يبكيك فقال هلك رسول الله صلى الله عليه وسلم
« ولم يشبع هو واهل بيته من خبز الشعير فلا ارانا اخرنا لما هو خير لنا »

∴

و روى الامام البخاري في صحيحه قال « حدثنا إسحق بن نصر قال حدثنا
« عبد الرزاق قال اخبرنا ابن جريج قال اخبرني عمرو ان ابا معبد مولى ابن
« عباس اخبره ان ابن عباس رضي الله عنهما اخبره ان رفع الصوت بالذكر
« حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم
« وقال ابن عباس كنت اعلم اذا انصرفوا بذلك اذا سمعته »

« حدثنا الحسن بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن يحيى اخبرنا حياة عن ابي
« الاسود سمع عروة عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم كان
« يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقالت عائشة لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر
« الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال افلا احب ان اكون عبدا شكورا
« فلما كثر لحمه صلى جالسا فإذا اراد ان يركع قام فقرأ ثم ركع »

و روى الامام الترمذي قال « حدثنا قتيبة بن سعيد و بشر بن معاذ قالا حدثنا
« ابو عوانة عن زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال صلى رسول
« الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له اتتكلف هذا وقد غفر الله
« لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال افلا اكون عبدا شكورا »

---

(١) كان احدهم يشد في بطنه الحجر من الجهد والضعف الذي به من الجوع

« حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن عبد الله بن شقيق
« قال سألت عائشة رضي الله تعالى عنها عن صيام رسول الله صلى الله عليه وسلم
« قالت كان يصوم حتى نقول قد صام و يفطر حتى نقول قد افطر قالت وما صام
« رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرا كاملا منذ قدم المدينة إلّا رمضان »
« حدثنا علي بن حجر حدثنا إسماعيل بن جعفر عن حميد عن أنس بن مالك أنه
« سئل عن صوم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كان يصوم من الشهر حتى
« نرى ان لا يريد ان يفطر منه و يفطر حتى نرى ان لا يريد ان يصوم منه شيئا
« وكنت لا تشاء ان تراه من الليل مصليا إلّا رأيته مصليا ولا نائما إلّا رأيته نائما »
« حدثنا هنا حدثنا عبدة عن محمد ابن عمرو حدثنا أبو سلمة عن عائشة قالت لم
« أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم في شهر أكثر من صيامه في شعبان
« كان يصوم شعبان إلّا قليلا بل كان يصومه كله »
« حدثنا ابو حفص عمر بن علي حدثنا عبد الله بن داود عن ثور بن يزيد عن
« خالد بن معدان عن ربيعة الجرشي عن عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه
« وسلم يتحرى صوم الاثنين والخميس »
« حدثنا محمد بن يحي حدثنا ابو عاصم عن محمد بن رفاعة عن سهيل بن أبي
« صالح عن ابيه عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تعرض الاعمال
« يوم الاثنين والخميس فأحب ان يعرض عملي وانا صائم »
« حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن منصور
« عن ابراهيم عن علقمة قال سألت عائشة رضي الله تعالى عنها أكان رسول الله
« صلى الله عليه وسلم يخص من الايام شيئا قالت كان عمله ديمة وايكم يطيق ما
« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق »
و روى الامام البخاري فقال « حدثنا ابو نعيم قال حدثنا مسعر عن زياد قال
« سمعت المغيرة رضي الله عنه يقول ان كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقوم
« ليصلي حتى ترم قدماه او ساقاه فيقال له فيقول أفلا اكون عبدا شكورا »

⁂

و قال ايضا « حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن عمرو سمع جابرا عن ابي
« سعيد الخدري رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ياتي زمان يغزو
« فئام من الناس فيقال فيكم من صحب النبي صلى الله عليه وسلم فيقال نعم
« فيفتح عليهم ثم يأتي زمان فيقال فيكم من صحب اصحاب النبي صلى الله
« عليه وسلم فيقال نعم فيفتح ثم يأتي زمان فيقال فيكم من صحب صاحب
« اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقال نعم فيفتح »
« حدثنا بدل بن المحبر اخبرنا شعبة اخبرني الحكم قال سمعت ابن ابي

« ليلى حدثنا علي ان فاطمة عليها السلام اشتكت ما تلقى من الرحى مما
« تطحن فبلغها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بسبي فأتته تسأله خادما
« فلم توافقه فذكرت لعائشة فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك
« عائشة له فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم فقال على مكانكما حتى وجدت
« برد قدميه على صدري فقال ألا ادلكما على خير مما سألتماه اذا اخذتما مضاجعكما
« فكبرا الله اربعا وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين وسبحا ثلاثا وثلاثين فان ذلك
« خير لكما مما سألتماه »

« حدثنا مكي بن ابراهيم حدثنا ابن جريج عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها
« قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأى مخيلة في السماء اقبل
« وادبر ودخل وخرج وتغير وجهه فاذا امطرت السماء سري عنه فعرفته عائشة.
« ذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أدري لعله كما قال قوم فلما رأوه
« عارضا مستقبل اوديتهم الآية »

« حدثنا محمد اخبرنا عبد الله عن معمر عن الزهري قال اخبرني سالم بن عبد الله
« عن ابيه ان النبي صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر قال لا تدخلوا مساكن
« الذين ظلموا انفسهم إلّا ان تكونوا باكين ان يصيبكم ما اصابهم ثم تقنع بردائه
« وهو على الرحل »

و روى الترمذي فقال « حدثنا سويد بن نصر حدثنا عبد الله بن المبارك عن
« حماد بن سلمة عن ثابت عن مطرف وهو ابن عبد الله ابن الشخير عن ابيه قال
« انيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من
« البكاء »

« حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن ابيه عن عبد الله بن عمرو
« قال انكسفت الشمس يوما على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام رسول
« الله صلى الله عليه وسلم يصلي حتى لم يكد يركع ثم ركع فلم يكد يرفع رأسه
« ثم رفع رأسه فلم يكد ان يسجد ثم سجد فلم يكد ان يرفع رأسه ثم رفع رأسه فلم
« يكد ان يسجد ثم سجد فلم يكد ان يرفع رأسه فجعل ينفخ ويبكي ويقول رب
« ألم تعدني ان لا تعذبهم وانا فيهم رب ألم تعدني ان لا تعذبهم وهم يستغفرون
« ونحن نستغفرك فلما صلى ركعتين انجلت الشمس فقام فحمد الله تعالى واثنى
« عليه ثم قال ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاينكسفان لموت احد ولا
« لحياته فاذا انكسفا فافزعوا الى ذكر الله »

وقال الامام البخاري « حدثنا عبد الله بن مسلمة حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم
« عن أبيه عن سهل قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول موضع سوط في
« الجنة خير من الدنيا وما فيها ولغدوة في سبيل الله او روحة خير من الدنيا وما فيها »

« حدثني يحيى بن موسى حدثنا وكيع حدثنا اسمعيل عن قيس قال سمعت « خبابا وقد اكتوى يومئذ سبعا في بطنه وقال لولا أن رسول الله صلى الله عليه « وسلم نهانا أن ندعو بالموت لدعوت بالموت ان اصحاب رسول الله صلى الله عليه « وسلم مضوا ولم تنقصهم الدنيا بشيء وانا اصبنا من الدنيا ما لا نجد له موضعا إلّا « التراب »

« حدثني يحيى بن يوسف اخبرنا أبو بكر عن أبي حصين عن أبي صالح عن « أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار « والدرهم والقطيفة والخميصة ان أعطي رضي وان لم يعط لم يرض »

« حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج عن عطاء قال سمعت ابن عباس رضي الله « عنهما يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لو كان لابن آدم واديان « من مال لابتغى ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب ويتوب الله على من تاب »

« حدثنا إسمعيل قال حدثني عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن « الساعدي أنه قال مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجل عنده « جالس ما رأيك في هذا فقال رجل من اشراف الناس هذا والله حري ان « خطب ان ينكح وان شفع ان يشفع قال فسكت رسول الله صلى الله عليه « وسلم ثم مر رجل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيك في هذا فقال « يارسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حري ان خطب ان لا ينكح وان « شفع ان لا يشفع وان قال ان لا يسمع لقوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا خير من ملء الارض مثل هذا »

« حدثنا عمرو بن خالد حدثنا الليث عن يزيد عن أبي الخير عن عقبة رضي « الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوما فصلى على اهل أحد صلاته على « الميت ثم انصرف على المنبر فقال اني فرط لكم وانا شهيد عليكم واني والله « لانظر الى حوضي الآن واني أعطيت مفاتيح خزائن الارض او مفاتيح الارض « واني والله ما أخاف عليكم ان تشركوا بعدي ولكن اخاف عليكم ان « تنافسوا فيها »

« وقال ابراهيم يعني ابن طهمان عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس رضي الله « عنه قال أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين فقال انثروه في « المسجد وكان اكثر مال اتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج رسول الله « صلى الله عليه وسلم الى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس اليه « فما كان يرى احدا إلّا اعطاه إذ جاءه العباس رضي الله عنه فقال يارسول الله « اعطني فاني فاديت نفسي وفاديت عقيلا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذ فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال يارسول الله أؤمر بعضهم يرفعه

« إلي قال فارفعه انت علي قال لا فنثر منه ثم ذهب يقله فقال يارسول الله أؤمر
« بعضهم يرفعه علي قال لا قال فارفعه انت علي قال لا فنثر منه ثم احتمله فألقاه على
« كاهله ثم انطلق فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبعه بصره حتى خفي علينا
« عجبا من حرصه فما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتم منها درهم »

« حدثنا ابو اليمان قال اخبرنا شعيب عن الزهري قال اخبرني سالم بن عبد الله
« ان عبد الله بن عمر قال اخذ عمر جبة من استبرق تباع في السوق فأخذها
« فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ابتع هذه تجمل بها للعيد
« والوفود فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انما هذه لباس من لا خلاق له
« فلبث عمر ما شاء الله ان يلبث ثم ارسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بجبة
« ديباج فأقبل بها عمر فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله
« انك قلت انما هذه لباس من لا خلاق له وارسلت الي بهذه الجبة فقال له
« رسول الله صلى الله عليه وسلم تبيعها وتصيب بها حاجتك »

« حدثنا عبدان أخبرنا عبد الله أخبرنا معمر و يونس عن الزهري عن عروة بن
« الزبير انه اخبره ان المسورة بن مخرمة اخبره ان عمرو بن عوف وهو حليف
« لبني عامر بن لؤي وكان شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم ان رسول الله
« صلى الله عليه وسلم بعث ابا عبيدة بن الجراح الى البحرين يأتي بجزيتها وكان
« رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صالح اهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن
« الحضرمي فقدم ابو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الانصار بقدوم أبي عبيدة
« فوافوا صلاة الفجر مع النبي صلى الله عليه وسلم فلما انصرف تعرضوا له فتبسم
« رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال أظنكم سمعتم ان ابا عبيدة
« قدم بشيء قالوا أجل يارسول الله قال فابشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر
« أخشى عليكم ولكني أخشى ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من
« قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلكم كما اهلكتهم »

⁂

« حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن معاوية بن قرة عن أنس
« عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اللهم لا عيش إلا عيش الآخره فأصلح الانصار
« والمهاجره »

« حدثني أحمد بن المقدام حدثنا الفضيل بن سليمان حدثنا ابو حازم حدثنا
« سهل بن سعد الساعدي كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخندق
« وهو يحفر ونحن ننقل التراب و يمر بنا فقال اللهم لا عيش إلا عيش الآخره فاغفر
« للانصار والمهاجره »

« حدثنا ابو الوليد حدثنا سلم بن زرير حدثنا ابو رجاء عن عمران بن حصين

« رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اطلعت في الجنة فرأيت اكثر
« اهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت اكثر اهلها النساء »

« حدثنا محمد بن العلاء حدثنا أبو أسامة عن بريد بن عبد الله بن أبي بردة عن
« ابي بردة عن ابي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلي ومثل ما
« بعثني الله كمثل رجل أتى قوما فقال رأيت الجيش بعيني وانى أنا النذير
« العريان فالنجاء النجاء فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا وكذبته
« طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم »

« حدثنا ابو اليمان اخبرنا شعيب حدثنا ابو الزناد عن عبد الرحمن انه حدثه انه
« سمع ابا هريرة رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما
« مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش
« وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن و يغلبنه فيقتحمن فيها
« فأنا آخذ بحجزكم عن النار وهم يقتحمون فيها »

« حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سعيد بن
« المسيب ان ابا هريرة رضي الله عنه كان يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا »

« حدثنا محمد بن سنان قال حدثنا فليح قال حدثنا ابو النضر عن عبيد بن حنين
« عن بسر بن سعيد عن ابي سعيد الخدري قال خطب رسول الله صلى الله عليه
« وسلم فقال ان الله سبحانه خير عبدا بين الدنيا و بين ما عنده فاختار ما عند الله
« فبكى ابو بكر رضي الله عنه فقلت في نفسي ما يبكي هذا الشيخ ان يكن الله
« خير عبدا بين الدنيا و بين ما عنده فاختار ما عند الله فكان رسول الله صلى
« الله عليه وسلم هو العبد وكان ابو بكر اعلمنا فقال يا أبا بكر لا تبك ان أمن
« الناس علي في صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت ابا بكر
« ولكن أخوة الاسلام ومودته لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر »

و روى الامام الترمذي « عن قتادة بن النعمان عن النبي صلى الله عليه وسلم
« انه قال اذا أحب الله عبدا حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء » قال ابو
عيسى وفي الباب عن صهيب وام المنذر وهذا حديث حسن

« وعن ابن مسعود قال نام النبي صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر
« في جنبه فقلنا يارسول الله لو اتخذنا لك فراشا فقال ما لي وما للدنيا ما أنا في
« الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » وفي الباب عن
ابن عمر وابن عباس قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

و روى البخاري فقال « حدثنا محمد حدثنا ابو الاحوص عن ابي إسحاق عن
« البراء بن عازب قال أهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم سرقة من حرير

« فجعل الناس يتداولونها بينهم ويعجبون من حسنها ولينها فقال رسول الله صلى
« الله عليه وسلم أتعجبون منها قالوا نعم يارسول الله قال والذي نفسي بيده
« لمناديل سعد في الجنة خير منها »

« حدثنا ابو اليمان اخبرنا شعيب عن الزهري قال حدثني عطاء بن يزيد ان
« ابا سعيد حدثه قال قيل يارسول الله * وقال محمد بن يوسف حدثنا الاوزاعي
« حدثنا الزهري عن عطاء بن يزيد الليثي عن ابي سعيد الخدري قال جاء اعرابي
« الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أي الناس خير قال رجل
« جاهد بنفسه وماله ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من
« شره »

« حدثنا ابو نعيم حدثنا الماجشون عن عبد الرحمن بن ابي صعصعة عن ابيه
« عن ابي سعيد انه سمعه يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ياتي على
« الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر
« يفر بدينه من الفتن »

« حدثنا ابو النعمان حدثنا جرير بن حازم عن الحسن حدثنا عمرو بن تغلب
« قال اتى النبي صلى الله عليه وسلم مال فاعطى قوما ومنع آخرين فبلغه انهم
« عتبوا فقال اني أعطي الرجل وأدع الرجل والذي أدع احب إلي من الذي
« أعطي أعطي اقواما لما في قلوبهم من الجزع والهلع وأكل اقواما إلى ما جعل الله
« في قلوبهم من الغنى والخير منهم عمرو بن تغلب فقال عمرو ما أحب أن لي
« بكلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حمر النعم »

« حدثنا أبو اليمان اخبرنا شعيب عن الزهري ح حدثني محمد بن سلام اخبرنا
« عتاب بن بشير عن اسحاق عن الزهري اخبرني علي بن حسين ان حسين بن
« علي رضي الله عنهما اخبره ان علي بن ابي طالب قال ان رسول الله صلى الله
« عليه وسلم طرقه وفاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
« لهم ألا تصلون فقال علي فقلت يارسول الله انما انفسنا بيد الله فإذا شاء ان
« يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال له ذلك ولم يرجع
« اليه شيئا ثم سمعه وهو مدبر يضرب فخذه وهو يقول وكان الانسان أكثر شيء
« جدلا »

« حدثنا علي بن عبد الله حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو المنذر الطفاوي عن
« سليمان الاعمش قال حدثني مجاهد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال
« اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال كن في الدنيا كأنك
« غريب او عابر سبيل وكان ابن عمر يقول اذا امسيت فلا تنتظر الصباح واذا
« اصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك »

وروى الامام البخاري « قال حدثنا مسلم قال حدثنا هشام عن يحي عن أبي
« سلمة قال سألت ابا سعيد الخدري فقال جاءت سحابة فمطرت حتى سال
« السقف وكان من جريد النخل فأقيمت الصلاة فرأيت رسول الله صلى الله عليه
« وسلم يسجد في الماء والطين حتى رأيت أثر الطين في جبهته »

« حدثنا ابو نعيم حدثنا سفيان عن معبد بن خالد قال سمعت حارثة بن وهب
« الخزاعي قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ألا اخبركم بأهل الجنة
« كل ضعيف متضعف لو اقسم على الله لابره ألا اخبركم بأهل النار كل عتل
« جواظ مستكبر »

وروى الامام الترمذي في الشمائل قال « حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا جميع
« بن عمر بن عبد الرحمن العجلي قال حدثني رجل من بني تميم من ولد أبي
« هالة زوج خديجة يكنى ابا عبد الله عن ابن لابي هالة عن الحسن بن
« علي رضي الله عنهما قال سألت خالي هند بن ابي هالة وكان وصافا فقلت
« صف لي منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان رسول الله صلى الله
« وسلم متواصل الاحزان دائم الفكرة ليست له راحة طويل السكت لا يتكلم
« في غير حاجة يفتتح الكلام و يختمه باسم الله تعالى و يتكلم بجوامع الكلم
« كلامه فصل لا فضول ولا تقصير ليس بالجافي ولا المهين يعظم النعمة وان
« دقت لا يذم منها شيئا غير أنه لم يكن يذم ذواقا ولا يمدحه ولا تغضبه الدنيا
« ولا ما كان لها فاذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب
« لنفسه ولا ينتصر لها اذا اشار اشار بكفه كلها واذا تعجب قلبها واذا تحدث
« اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن ابهامه اليسرى واذا غضب اعرض واشاح
« واذا فرح غض طرفه جل ضحكه التبسم يفتر عن مثل حب الغمام »

« حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا جميع بن عمر بن عبد الرحمن العجلي أنبأنا
« رجل من بني تميم من ولد ابي هالة زوج خديجة يكنى أبا عبد الله عن
« ابن ابي هالة عن الحسن بن علي قال سألت خالي هند بن ابي هالة وكان
« وصافا عن حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا اشتهي ان يصف لي منها
« شيئا فقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر
« ليلة البدر فذكر الحديث بطوله قال الحسن فكتمتها الحسين زمانا ثم حدثته
« فوجدته قد سبقني اليه فسأله عما سألته عنه و وجدته قد سأل أباه عن مدخله
« ومخرجه وشكله فلم يدع منه شيئا قال الحسين فسألت أبي عن دخول رسول الله
« صلى الله عليه وسلم فقال كان اذا أوى الى منزله جزأ دخوله ثلاثة اجزاء
« جزء لله وجزء لاهله وجزء لنفسه ثم جزأ جزأه بينه و بين الناس فيرد بالخاصة على
« العامة ولا يدخر عنهم شيئا وكان من سيرته في جزء الامة ايثار اهل الفضل باذنه

« وقسمه على قدر فضلهم في الدين فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو
« الحوائج فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والامة من مسألتهم عنه واخبارهم
« بالذي ينبغي لهم ويقول ليبلغ الشاهد منكم الغائب وأبلغوني حاجة من
« لا يستطيع ابلاغها فانه من ابلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع ابلاغها ثبت الله
« قدميه يوم القيامة لا يذكر عنده إلّا ذلك ولا يقبل من احد غيره يدخلون
« رواداً ولا يفترقون إلّا عن ذواق ويخرجون أدلة يعني على الخير قال فسألته
« عن مخرجه كيف كان يصنع فيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
« يخزن لسانه إلّا فيما يعنيه ويؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه
« عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير ان يطوي عن احد منهم بشره وخلقه
« ويتفقد اصحابه ويسأل الناس عما في الناس ويحسن الحسن ويقويه ويقبح
« القبيح ويوهيه معتدل الامر غير مختلف لا يغفل مخافة ان يغفلوا او يميلوا
« لكل حال عنده عتاد لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه الذين يلونه من الناس
« خيارهم افضلهم عنده انصحهم نصيحة واعظمهم عنده منزلة احسنهم مواساة ومؤازرة
« قال فسألته عن مجلسه فقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقوم ولا
« يجلس إلّا على ذكر واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس
« ويأمر بذلك يعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه ان احدا أكرم عليه
« منه من جالسه او فاوضه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه
« ومن سأله حاجة لم يرده إلّا بها او بميسور من القول قد وسع الناس بسطه
« وخلقه فصار لهم ابا وصاروا عنده في الحق سواء مجلسه مجلس حلم وحياء
« وامانة وصبر لا ترفع فيه الاصوات ولا تؤبن فيه الحرم ولا تنثى فلتاته
« متعادلين بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى متواضعين يوقرون فيه الكبير
« ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب »

« حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا جميع بن عمير بن عبد الرحمن العجلي انبأنا
« رجل من بني تميم من ولد ابي هالة زوج خديجة يكنى ابا عبد الله عن ابن
« ابي هالة عن الحسن بن علي قال سألت أبي عن سيرة النبي
« صلى الله عليه وسلم في جلسائه فقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
« دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا
« عياب ولا مشاح يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه راجيه ولا يجيب فيه
« قد ترك نفسه من ثلاث المراء والاكثار وما لا يعنيه وترك الناس من ثلاث
« كان لا يذم احدا ولا يعيبه ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلّا فيما رجا ثوابه واذا
« تكلم اطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير فاذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده
« الحديث ومن تكلم عنده انصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده حديث اولهم

« يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه ويصبر للغريب
« على الجفوة في منطقه ومسألته حتى ان كان اصحابه ليستجلبونهم ويقول اذا
« رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه ولا يقبل الثناء إلّا من مكافئ ولا يقطع على
« احد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي او قيام »

« حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان بن محمد بن
« المكندر قال سمعت جابر بن عبد الله يقول ما سئل رسول الله صلى الله عليه
« وسلم شيئا قط فقال لا »

و روى الامام البخاري فقال « حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن
« سعد عن صالح عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى
« الله عليه وسلم قالت دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم
« فقالوا السام عليكم قالت عائشة ففهمتها فقلت وعليكم السام واللعنة قالت
« فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلا ياعائشة ان الله يحب الرفق في الامر
« كله فقلت يارسول الله ولم تسمع ما قالوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« قد قلت وعليكم » .

« حدثنا حفص بن عمر حدثنا شعبة عن سليمان سمعت أبا وائل سمعت مسروقا
« قال قال عبد الله بن عمرو حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن الاعمش عن شقيق بن
« سلمة عن مسروق قال دخلنا على عبد الله بن عمرو حين قدم مع معاوية الى
« الكوفة فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لم يكن فاحشا ولا متفحشا
« وقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من أخيركم أحسنكم خلقا »

« حدثنا أصبغ قال أخبرني ابن وهب اخبرنا ابو يحيى هو فليح بن سليمان عن
« هلال بن أسامة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لم يكن النبي صلى
« الله عليه وسلم سبابا ولا فحاشا ولا لعانا كان يقول لاحدنا عند المعتبة مالة
« ترب جبينه »

« حدثنا عمرو بن عيسى حدثنا محمد بن سواء حدثنا روح بن القاسم عن محمد
« بن المنكدر عن عروة عن عائشة ان رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه
« وسلم فلما رآه قال بئس اخو العشيرة وبئس ابن العشيرة فلما جلس تطلق النبي
« صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط إليه فلما انطلق الرجل قالت له عائشة
« يارسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ثم تطلقت في وجهه
« وانبسطت إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعائشة متى عهدتيني فحاشا
« ان شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره »

« حدثنا موسى بن إسماعيل سمع سلام بن مسكين قال سمعت ثابتا يقول
« حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال خدمت النبي صلى الله عليه

« وسلم عشر سنين فما قال لي اف ولا لم صنعت ولا الا صنعت »
« حدثنا عمرو بن عون حدثنا حماد هو ابن زيد عن ثابت عن انس قال كان
« النبي صلى الله عليه وسلم احسن الناس واجود الناس واشجع الناس ولقد
« فزع اهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فاستقبلهم النبي صلى
« الله عليه وسلم قد سبق الناس الى الصوت وهو يقول لن تراعوا لن تراعوا وهو
« على فرس لابي طلحة عري ما عليه سرج في عنقه سيف فقال لقد وجدته
« بحرا او انه لبحر »

منزع الذات المحمدية وكونه اصل الصوفيـــة

الجهل في الذين لا يعلمون والغفلة في الذين اوتـــوا العلم آفتان لم يتركا في الاسلام ذمة لليقين والايمان . فكم يمر القراء بذاتية الرسول صلى الله عليـــه وسلم في صريح القرآن والسنة كما سبق في المبحثين الفـــارطين وهي في شكلهـــا الروحاني الجميل وذواتهم كلها جمادية سلبية دون ادنى تأثير من نورانية ذلك الشكل البديع . وهب ان منزع الرسول صلى الله عليه وسلم الذي تقرر معنا منزع زهد صرف وعبادة خالصة وتقوى وانابة واعراض عن زخرف الدنيـــا واقبال على نعيم الاخرة ومكارم اخلاق ربانية وقد يتعذر على الهيئة العامة البشريـــة ان تتقيد بمنزع أشد الخلق قوة يقينا وهمة وعزما . أفما كان في وسع زعمـــاء هذه الهيئة عقلا وسياسة وعلما وحكما ان يتركوا حرية الانقياد لهذا المنزع النبوي لكل مؤمـــن يعمل له ما استطاع من غير نكير ؟ فضلا عن ان يعدوا ذلك العمـــل بدعة وضلالا وخروجا عن نظام الشريعة الاسلامية

لقد بين الله تعالى في حجة الوداع كمال الدين وتمام نظامه بقولـــه « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » (١) وفي كماله تحقق الصحـــابة الكرام بآداب القرآن واطمئنان قلوبهم بذكر الله تعالى والنبوءة مخيمة على اكنافهم بانوارها مشرقة بهداها . وفي القرآن تمت تعاليم الدين ونظاماته الظاهرة والباطنة . وكان الرجال الكرام المجتمعون حول الرســـول عليـــه الصلاة والسلام يعملون باتقان وهمم عالية متدبرين لكلام الله سبحانـــة كل التـــدبر خاشعي القلوب بالسر الساري اليهم من حضرة النبوءة . فكان الحق يصفهم بكثرة ركوعهم وسجودهم وابتغاء فضل الله ورضوانه . ولم يمدحهم بحب الدنيـــا واستنباط الالات والافتخار بالمعارف الدنيوية ونظاماتها وركوب لجج البحور والتحليق في الهواء على متون الطيارات ولا بالتمدن والرفاهية والشغف بالنعيم الزائل والزخرف الذابـــل (٢)

---

(١) سورة المائدة . (٢) راجع سورة الفتح

ان قول الله و رسوله فيهم هو أصدق الاقوال تصويرا وتبيينا لاحوالهم النورانية. فكل رواية تاريخية تغاير هذا القول تعتبر كاذبة ولا يؤبه بها عند ارباب التوفيق . ولقد كان المربي الاعظم صلى الله عليه وسلم بينهم آمرا وناهيا قد رتبهم حسب استعداداتهم المختلفة الى مراتب مقررة عنده . وقد أعطى لكل مرتبة ما يلائمها من العلاجات التعبدية . وأحسن ما كان لديه واقعا موقع الاهتمام والاعجاب عمليات القلوب في إيمانها ومقاماتها في التصديق واليقين . فان احتفاله بوجود القلب الموقن المتخلي بالايمان الكامل أكثر من احتفاله بالذات المنتصبة ليلا ونهارا راكعة ساجدة . وما أحب اجتماع الوصفين عنده في ذات واحدة . وها أنت ترى من سرد ذاتيته عليه الصلاة والسلام بحديثه الشريف وصريح الكتاب الذي جاء به من عند الله تعالى كيف كان الباطن والظاهر منه دائبين على التوجه بهذه الرغبة السامية إلى الدائم من الكمالين . فإنه صلى الله عليه وسلم المؤمن الكامل الذي كان يعمل لمحض الحياة الباقية قلبا وقالبا عملا غير مشرب بأدنى خصوصية دنيوية . فكان في خاصة نفسه غاضا طرفه بالمرة عن متاع الدنيا جاعلا أوقاته كلها موزعة على المصالح الخالدة . إما في ذكر أو عبادة او قضاء حوائج الناس ونصحهم وتذكيرهم ونشر الفضيلة بينهم . وما كان الصحابة الكرام ليقتفوا أثره شبرا بشبر وذراعا بذراع نظرا لاختلاف أمزجتهم وطبائعهم . فأوكلهم بعد أن بث فيهم روح الايمان الى مذكر ايمانهم . فورث كل واحد منهم ما استطاع مزاجه حمله من الشمائل المصطفوية . وهذا التفاوت بينهم في القوى اليقينية يظهر من اختلاف وسائله صلى الله عليه وسلم في تربيتهم وارشادهم كما مر بك في المبحثين السالفين . فمنها اعطاؤه بعضهم من متاع الدنيا ومنعه البعض والذي يمنع أحب اليه من الذي يعطي (١) . وحمل ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام على الصبر في ادارة الرحى حين طلبت منه خادما ولقنها و زوجها التسبيح والتحميد والتكبير عوضا عما طلبت . وأقنعهما بأن ذلك الذكر خير لهما من خادم يزيح عنهما التعب المنزلي (٢)

وتأمل كيف كان زهده عليه الصلاة والسلام في خاصة نفسه وفي حجرات ازواجه أمهات المومنين حتى تمر عليهن الشهور ولا يوقدن نارا لطبخ قوت . وما ذلك عن اضطرار وضيق بل امتثالا منه عليه الصلاة والسلام لامر الله له في غير ما آية من الذكر الحكيم بنبذ زينة الدنيا وعلائقها إلا ما فيه ارتباط بالحياة الدائمة ولما في قلبه الشريف من الاطمئنان والغنى الواسع والمشاهدة التي لا تنقطع في العالم

(١) راجع صحيفة ١٠٧ . (٢) راجع صحيفة ١٠٣

لاخروي . ومع ذلك فقد كان من الخشية بمقام لا يساميه فيه غيره من الانبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام . فكان خوفه يشتد عند حدوث تجليات الغضب . فإذا حدثت زوبعة او سحابة في السماء وجل ويظهر وجله حتى تمطر . فإذا أمطرت انكشف عنه جزعه (١) . واذا دخل بلادا غضب الله على اهلها او أصابهم بعذاب تعجل الخروج منها وهو حزين خوفا مما أصابهم . ولما انكسفت الشمس فزع إلى الصلاة وبكى في سجوده خشية من انقلاب كسوفها الى بلاء محيط يدمر بنى الانسان . الى غير ذلك من مواقفه عليه الصلاة والسلام المشهورة . فالمأخوذ منها مشروعية الخوف لطائفة الصوفية لا لامن . والجزع لا الفرح . وما ينتقد عليهم عملهم آنئذ إلّا الضالون

او هم يعتبرون أن في كسوف الشمس مثلا حادثا فلكيا اعتياديا لا يحصل عنه ضرر للبشر . او أن السحب والزوابع حوادث جوية معتادة لا يترتب عليها الجزع لاقل الناس إدراكا . فعند هذه النقطة يمتاز الذين في قلوبهم مرض من المنكرين ببقائهم مع تخرصاتهم الفكرية وادعاآتهم القياسية . وانهم ليقولون عندها لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تزعمون ممدا للوجود لاحاط علما بما كان او سيكون ولا يتألم من الحوادث الطبيعية او يبجس منها خيفة . ما كانت قط لاحاطة العلمية شرطا الامداد في بشر أنار الله في ذاته الروحية منار الامداد ليلقي على العوالم أشعته فتعكس كل ذرة في الوجود من ذلك النور المحمدي ما أصابها وتتغذى بما لحقها تغذية معنوية . كالشمس أنارت ما يحيط بها من الوجود الحسي وغذت كل ذرة منه تغذية حسية . فالامداد قائم أصالة من حضرة العليم الخبير ولكن يقع توزيعه من ذات عبده ورسوله لا لانه خبير بتقسيمه عليم بمواطنه بل لانه أكمل البشر قدرة وأتمهم استطاعة في تأدية حقوق هذا الامداد من التعبد والانابة

ومن قوة ما تحمله صلى الله عليه وسلم من اسرار الاسماء الجلالية كالقوي والقادر والجبار والمتكبر والمنتقم أصبح غير مطمئن البال عند تقلبات الحوادث من صدور أمر إلهي غير معتاد يقضي على البشر بالعذاب . وهو ما كان يتوقعه عليه الصلاة والسلام ويحذر اصحابه لاجله من الميل الى زخرف الدنيا ونعيمها حتى انه كان يقول « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (٢) . فعلمه صلى الله عليه وسلم ببطش الله ومكره وشديد محاله وأليم عذابه قد ساوى علمه برحمته ورأفته ولطفه . فهو يتعبد مع كل علم بما يناسبه . وأذواقه صلى الله عليه وسلم في مقامه هذا سامية لا يدركها سواه

(١) راجع صحيفة ١٠٣ . (٢) راجع صحيفة ١٠٦

ولقد تواترت الآثار عن سلوك كثير من شيوخ الصوفية ومريديهم هذا المسلك النبوي من الجزع من الحوادث الطبيعية . فمنهم من كان يقلق ويتضجر بل يصعق ويموت عند المظاهر التي تحدث أمامهم من هذا القبيل فتذكرهم ببطش الله وشدة محاله . فالمنكرون يزدرون بمثل هذه المواقف ويسخرون من المهتم بها . وأنت ترى أصولها من أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم . فالذين يزعمون انهم سلفيون بدعوى انهم أصح الناس فهما للكتاب والسنة وأشدهم ارتباطا بهما قد ينظرون آثار الاولين فلا يزيدهم ذلك النظر إلا قساوة في أفئدتهم لانهم لا يعتبرونها واعظا ناطقا بالبلاغ المبين

واذا كسفت الشمس عدوا كسوفها حادثا فلكيا مقيدا بمرور القمر بينها وبين الارض فما ظلمتها واسوداد قرصها في الحقيقة الا وجه القمر الاسود الذي يلي ابصارنا . اما قرص الشمس فإنه باق على نورانيته . هذا هو الواقع المحسوس الذي يفهمونه ونفهمه معهم . ولكن فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اسعة اطلاعه على عظمة قدرة الله تعالى وعلمه بها يخشى أكثر من غيره و « انما يخشى الله من عباده العلماء » (١) . ولا يراعي هذه النظرية المحسوسة . بل انه يرى في كسوف الشمس انذارا وبلاغا لقوم يوقنون . فكان يامر بالفزع الى الصلاة عند حدوثه والابتهال بالدعاء الى الله تعالى ليفرج على خلقه في حادث لو يريد ان يبقيه على حاله ويعطل حركات الافلاك عنده لفسدت الارض وقضى على حياتها . وكذلك شأن الزوابع والسحب فقد ينسبها هؤلاء الناس الى سنن واسباب طبيعية في حين ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يفزع ويتغير لونه عند مشاهدتها ولا يستقر حاله حتى ينزل المطر او تنكشف

فازدراؤهم بالصوفية الذين منزعهم على هذا النحو ازدراء بمنزع نبوي صحيح أساسه التقوى . والتقوى لا يكون بالدعاوي العريضة بل هو سر وقر في القلب وعليه مدار اليقين

اما عبادته صلى الله عليه وسلم فكانت عبادة الشاكر لا الكبر في الوجود وكان يصلي وينام ويصوم ويفطر . وقد ميز اصحابه بين يديه درجات بحسب استعداداتهم فكان يامر بعضهم بالعبادة ويحث البعض على التيسير . ويترك زوجته بين يديه نائمة ويذهب الى ابنته فاطمة الزهراء وبعلها رضي الله عنهما ويوقظهما الى الصلاة شأن المربي الخبير والحكيم الداري بمزاج كل شخص وما يستحقه من الدواء والعلاج . ولقد كان هو في خاصة نفسه عليه الصلاة والسلام يصلي حتى تورمت قدماه الشريفتان

(١) سورة فاطر

أفليست هذه الحياة الروحية التي كانت تعم هذا الرسول عليه الصلاة والسلام وآله واصحابه وازواجه حياة نور بالنسبة لمنزعها الاخروي وحياة تقشف وتعبد بالنسبة لانتقاصها عن نعيم الدنيا ؟ . أوليس الدين قد كمل وهم على تلك الحالة التي ينقلوها علينا القرآن العزيز والسنة النبوية والشمائل المصطفوية ؟

أجل ! ان الرسول عليه الصلاة والسلام مع شدة نفوره عن نعيم الدنيا لم يأمر احدا بالنفور عنها إلّا الذين اصطفاهم بتربيته واختارهم لارشاده وهديه . وكان يحث على العمل للدنيا إقامة لاسباب الحياة وما أقام الله فيه الخلق . وكان يعظهم هكذا وهكذا من غير إفراط ولا تفريط . إيذانا منه عليه الصلاة والسلام بأن سبيل الآخرة الذي يختاره بعد القيام بالمفروضات والضروريات من الدين قولا وعملا غير مسوغ لعامة الناس كلهم ولا هو مكلف بتكليفهم بذلك . بل هو غاية تحصل بعد الاجتهاد وطول ذكر الله . فيقع بواسطتها دخول العبد إلى حضرة مولاه . حسبما قال تعالى « فاذكروني أذكركم » (١) ، « والذين جاهدوا « فينا لنهدينهم سبلنا » (٢)

والسبب الداعي إلى عدم تكليف كافة الخلق بهذا السلوك تكليفا دينيا مشروعا من أول الامر هو تحقيق إعطاء الاسباب ما يتسبب عنها إقامة لسنة الله في تصريف الدنيا وطبائع اطوارها . ولكونه « ولا يزالون مختلفين إلّا من رحم « ربك ولذلك خلقهم » (٣) . ولان طبائع النفوس البشرية تعاكس الحقائق دائما بجبلتها العنصرية التي أنشأها الله عليها . وطبع البشرية جالب للتخفيف واللطيف . فتعين على عموم الناس بظاهر الشرع ان يقوموا بالتكاليف الدينية المقررة من شهادة وصلاة وصيام وزكاة وحج وما يتعلق بها من السنن والآداب . وقد وضح الله ورسوله لهم ما حرم عليهم وما أحل لهم وتبين الرشد من الغي . فمن اهتم بهذه الاوامر السماوية وقرأ القرآن قراءة تدبر وبحث بحث الفقه البصير عن حدود الحلال والحرام وما اشتبه بينهما من مكروه ومباح واعتنى بتدقيق وجوه التكاليف الشرعية من واجب ومسنون ومستحب وما في كل من وجوه العمل القلبي والاستشعار النفسي لابد وان يقوم بتحصيل العلم الضروري لذاته من علوم الدين الاسلامي فلا يقدم على أي حركة من الحركات حتى يعلم حكم الله فيها . ويحمل قلبه على الاحساس بالمنزع الديني فيها نحو خالقه ومولاه فاذا جعل هذا العمل رفيقا له مع المثابرة والمداومة يحمله الطبع على اختصار العمل والحركات لئلا تتزاحم عليه موارد الاحكام وتذهب له الاوقات عبثا في النظر واتعاب النفس في الملاحظات وتحليل القواعد والنظريات . فيتحتم عليه

(١) سورة البقرة . (٢) سورة العنكبوت . (٣) سورة هود

ان لا يتناول من دنياه إلا الضروريات ويتحاشى ما عدى ذلك ليتوجه وجهة واحدة نحو خالقه كما هو مأمور من طرف ما ينلو بتدبر من آي القرآن الحكيم واخبار الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام عليهم الرضوان

ولا تحسبن هذا المنزع سهلا فانه شأن خطير ومنزع وعر المسلك قد يلاقي فيه الانسان كل مشقة ويلعق الصبر ويقاسي الآلام . فاذا قام هذا العامل بما علم — وهكذا يجب ان يسمى فهو متلق ومنفذ في آن واحد — يقذف الله سبحانه وتعالى له نورا في فؤاده يوضح له المعاني التي لم يدرك لها شأوا قبل ذلك . وتلوح له العجائب والغرائب من ملكوت الله الغيبي . وهو ما يعبرون عنه بعلم المكاشفة . وهو احوال واذواق لا يستطيعون التعبير عنها بواسطة اللسان او القلم . لان العقل الممتزج بطبيعة العناصر عاجز عن تصورها بما يشاكل مظاهر هذه الطبيعة العنصرية . وانا لنجد العقل في غالب الاحيان عاجزا عن تصور ما يراه النائم في عالم النوم من خوارق العادة وفق مألوفاته الكونية . فما بالك باحوال الغيب المشاهدة في عالم الارواح النورانية من أنفس تطهرت من ادران الطبيعة ولانت يبوستها لقبول رسوم الحقائق

فهذا السالك على هذا المهيع حيث انه عمل بما علم فاطلع على علوم لم يعلمها قد شذ على جمهور الناس الذين لم يتموا الاعمال الدينية بتدقيق وإحكام لانهم إما ان يكونوا قد جهلوا بعضها او ضعفت هممهم عن استيفاء تتبع احكامها او اشغلتهم الكماليات عن تدقيق الضروريات ، او اكتفاء منهم تبعا لما يفهمونه من بعض اقوال الشارع بما يؤدونه من فرائض الدين وسننه بهيئة لا يشغلون معها الافئدة بالعمل المعنوي الذي هو الانشودة الحقيقية . ومن جهة اخرى فان النوازع الطبيعية في تتبع كماليات الحياة الدنيا قد تضطر الناس إلى تجاوز حدود الحلال والحرام وما بينهما من المتشابهات فيزداد بذلك الطين بلة . وبتوفر ملاذ المجتمع واحتكاك الجمهور بعضه البعض صار من المألوف الاكتفاء بتأدية ما تيسر من اعمال الدين وانفاق الوقت الغالب بعد ذلك في المساعي الضرورية والكمالية لتحسين المعيشة المحدودة بالموت والمقيدة بالفناء !

وعلى هذا المهيع سار الجمهور من المسلمين بعد عصر النبوة والصحبة . واستقلت طائفة من المومنين منها أئمة المذاهب الفقهية ومن نحا منحاهم بفهم القرآن والدين بذلك الاسلوب الذي كان عاملا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام واعتبروه من الدين لانه كان ضمن القرآن بالفعل من الذي أنزل عليه يوم أنزل عليه « اليوم أكملت لكم دينكم » (١) . فلما استقلوا بهذا المنزع الشريف

(١) سورة المائدة

في وقت تمكن الفوضى من الافكار والعقائد ميزهم الناس بالمروق والابتداع ورموهم بكل نقيصة وأنكروا عليهم منازعهم التعبدية والذوقية وما اعتادوه من التباعد عن الحكام والملوك والمناصب ومأزق السياسة والتزام الورع في المعاش والتعامل . وكحرج موقفهم في هذه الحالة مع التزامهم لنصوص الشريعة وتوارد الشبهات على أتباعهم وقد ضعفت العزائم والهمم تجاه مهب عواصف المعتقدات المتصدمة من الطوائف الاسلامية الكثيرة اضطروا الى الانزواء ولم شعثهم في محال مخصوصة صاروا يجتمعون بها لتدارس علوم الشريعة وبث الوصايا والنصائح والنظر في نتائج ما بذلوه في نفوسهم من المجاهدة . حيث نبغ فيهم أساطين وحكماء وعلماء بعلل النفوس وأدويتها وأئمة مجتهدون كانوا يطبقون علوم الدين من الكتاب والسنة على ما يصادفون من اعوجاج نفوسهم ونفوس اتباعهم وتلامذتهم فصارت البواطن تلين عند تطبيق الاحكام والعمل بمقتضاها . وتتريض على محاسن الاخلاق وتخضع لنفوذ التعليم القرآني في بسط اليقين الصحيح التوحيدي على أعماقها . فأصبح الائمة المذكورون متخذين من الشريعة النظام الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه — كما مر بك في المبحثين الفارطين — كدواء ناجع في معالجة امراض النفوس الطارئة على المجتمع الاسلامي . وما كانوا يعملون لتعميم ذلك مع وجود عموم المخالفة والعصيان في الامة حتى من الملوك والخلفاء والعلماء الرسميين . وانما كانوا في معزلهم وانزوائهم مقصد من اراد الله إرشاده وهدايته . فيأوي إليهم وينزل على شروطهم من مجاهدة النفس ومخالفة هواها وتحسين اخلاقها وتريضها بمداومة الذكر وتلاوة القرآن والسير على نصوص الشريعة في كل عبادة ومعاملة . وقد كانوا يلزمون اصحاب النفوس الجموحة بالعزلة والخلوة ريثما تتريض نفوسهم وتستأنس طباعهم المتوحشة بمخالطة الوسط الغافل المغرور

وبهذا الصنيع أنتقلت الحالة التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام بطبع ذواتهم ولين نفوسهم ورسوخ يقينهم وحسن اخلاقهم الى فن يزاول ويدرس ودونه وسائل تستعمل وأعمال للعلم تستكمل فتلتحق بعد تأديتها نفوس المخلصين فيها بلينها ورسوخ يقينها ومكارم اخلاقها . ففي عصري النبوة والصحبة كان الاحسان طبعا وجبلة في نفوس الابرار ثم صار بعدهما عند اهله غاية تستجلب بمزاولة علوم الشريعة فهما وعملا . فصار مثال ذلك كاللغة العربية والشعر العربي كيف كانا في الجاهلية طبعا وجبلة للصغير والكبير من العرب ثم انهما انقلبا بعد اختلاط العرب بالعجم إلى صناعة لا تدرك إلا بآلتي النحو والعروض

وليس من الغريب بقاء المجتمع الاسلامي في عزلة تامة عن فهم الدين بالذهن

الذي فهمته به هذه الطائفة الراشدة لانهماكه في ملاذ المدن والحضارة . وتكالب أمرائه وعلمائه الرسميين على التوسع في النفوذ وقتناص المناصب . وانما الغريب نظره إلى هذه الطائفة بعين الازدراء والامتهان . فطالما أوذي أعلامها وغرب علماؤها وشرد أتباعها . مع انهم أبعد الناس عن منافسة أرباب الدنيا في دنياهم او العلماء في مناصبهم او الامراء في عروشهم . بل شأن المخلصين منهم كما سبق معنا البيان لم يكن إلّا شأن الرسول عليه الصلاة والسلام وشأن اصحابه الكرام عليهم الرضوان

أما ما تميزوا به من « المواجد والاذواق والاحوال » عن ما سبقهم بالايمان من الرجال فما ذلك بداع إلى الانتقاد عليهم مع وجود أصوله في الشريعة . وانما الصحابة انفردوا بالكتمان لقوة ذواتهم في تحمل الافهام والاذواق والموارد التي ترد عليهم من سمو إيمانهم . ولكونهم كانوا أئمة التشريع فاقتضى مقامهم القيام بظواهر الكمال أمام الامة وابقاء البواطن لمواجهة الباطن . وهؤلاء المتوسطون من السلف الصالح شيوخ أضعف قلوبا وأنحف ذواتا من سابقيهم وما كان واحد منهم متصديا للتشريع بمقام الصحبة بل كل واحد منهم يذوق من قوة إيمانه مذاقا خاصا به ويستنير بسراج متميز عن غيره و يتلقى احوالا روحانية تذيب جثمانيته وتزعزع جسمانيته . فيضطر إلى التصريح ببعض الاذواق عن غلبة وانزعاج . ولما تخونه العبارة يحسب الجاهلون قوله كفرا وما هو بكفر . وانما لله في ذلك حكمة خصصها بهذا الفريق في هذا الوسط المظلم حيث زاغ عن الشريعة من زاغ وكثرت الشبهات على الدين من جهة الطوائف الضالة فصار بداعي الكمال تثبيت هذه الطائفة بأذواقها واحوالها حتى تكون على بينة في سبيلها الى ان يأتي امر الله المهيمن على رشدها وارشادها . ولله في خلقه شؤون

الاعتراف للصوفية

بالتمسك بالشريعة والسنة المصطفوية

ان الامام العلامة أبا إسحاق إبراهيم بن موسى الشهير بالشاطبي كان من اكابر الاصوليين العاملين على النقد والتحقيق بالادوات العلمية (١) . ولـه باع طويل في تمييز المخالفات والبدع والطوارئ الطارئة على الدين من غيرهـا وفي ذلك ألف كتابه « الاعتصام » الذي دقق فيه وجوه البدع واصنافها وحللهـا تحليلا فنيا بديعا شمل فيه بعض اعمال الصوفية بالنقـد فحسب كثير من الناس ان دعواه كدعوة كبرى إلى منابذة التصوف ومقاطعة اهله . وان الشاطبي قد نقض بناء الصوفية حجرة حجرة بما حشره في كتابه المذكور . وانه حكم عليهم بالزيغ والضلال . والصواب ان العلامة الشاطبي رحمه الله كاضرابه من علمـاء الظاهر الفنيين قد اجتهد فيما صنف فأجاد في البعض واصاب وربما أخطأ في البعض لاسيما في بعض ما كتبه عن التصوف . وله العذر التام في ذلك حيث كان يكتب عما يشاهد من ضلالات صوفية زمانـه . وليس له ذوق في هدايـة الصوفية الحقيقيين . ومع ذلك فإنه لازم الادب والاحتراز في عـدة نقـط من « الاعتصام » تجاه الصوفية حتى انه لم يحم حول رؤيـة النبي صلى الله عليه وسلم يقظة وضرب عنها صفحا لانه أحس بصعوبة الخوض فيها وكونها مزلقـا غير مأمون العاقبة على الفنيين من أمثاله . ولقد اعترف بالرغم من ذلك للصوفيـة بالتمسك بالشريعة والسنة المصطفويـة . وأقر بما لهم من الاذواق والاحـوال . ولاهمية اعترافه المذكور آثرت عقد هذا المبحث له في هذه النقطة عقدا خصوصيا تبصرة لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد . ونص ما قال في الوجه الرابع من النقـل :

« ..... إن كثيرا من الجهال يعتقدون فيهم (أي في الصوفية) أنهم متساهلون في الاتباع وان اختراع العبادات والتزام ما لم يـأت في الشرع التزامـه مما يقولون به ويعملون عليه وحاشاهم من ذلك ان يعتقدوه او يقولوا بـه . فأول شيء بنوا عليه طريقتهم اتباع السنة واجتناب ما خالفها . حتى زعم مذكرهم وحافظ مآخذهم وعمود نحلتهم أبو القاسم القشيري أنهم انما اختصوا باسم التصوف

(١) توفي العلامة الشاطبي سنة ٧٩٠

انفرادا به عن اهل البدع فذكر ان المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم افاضلهم في عصرهم باسم علم سوى الصحبة اذ لا فضيلة فوقها . ثم سمي من يليهم التابعين . و رأوا هذا الاسم أشرف الاسماء . ثم قيل لمن بعدهم اتباع التابعين . ثم اختلف الناس وتباينت المراتب . فقيل لخواص الناس ممن له شدة عناية في الدين الزهاد و لعباد . قال ثم ظهرت البدع وادعى كل فريق ان فيهم زهادا وعبادا . فانفرد خواص اهل السنة المراعون انفسهم مع الله الحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف . هذا معنى كلامه . فقد عد هذا اللقب مخصوصا باتباع السنة ومباينة البدعة . وفي ذلك ما يدل على خلاف ما يعتقده الجهال ومن لا عبرة به من المدعين للعلم »

. . . . . .

« وان الصوفية الذين نسبت إليهم الطريقة مجمعون على تعظيم الشريعة . مقيمون على متابعة السنة . غير مخلين بشيء من آدابها . أبعد الناس عن البدع واهلها . ولذلك لا نجد منهم من ينسب إلى فرقة من الفرق الضالة . ولا من يميل إلى خلاف السنة . واكثر من ذكر منهم علماء وفقهاء ومحدثون . وممن يؤخذ عنه الدين أصولا وفروعا . ومن لم يكن كذلك فلابد له من أن يكون فقيها في دينه بمقدار كفايته »

« وهم كانوا اهل الحقائق والمواجد والاذواق والاحوال والاسرار التوحيدية . . . . »

انتهى المقصود من كلام الشاطبي وهو اعتراف بليغ كما ترى يدل على عكس ما يفهم ارباب الانكار منه والله ولي التوفيق

مكانة الرسول

صلى الله عليه وسلم في حضرة مولاه عز وجل

فأنت ترى مما تقدم من خلاصة شمائله عليه الصلاة والسلام ومواقفه ونوازعه الدينية المقررة بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية أنه عليه الصلاة والسلام كان قائما بذاتيته الصرفة القيام التام للتوجه نحو الآخرة . معرضا عن الدنيا كل الاعراض . وداعيا بلسان الحال والمقال إلى وجوب السلوك نحو ملك الملوك بتصفية الباطن من كدورات السوء وتحسين الاخلاق على كل مكلف تيسر له النظر ولم يحل بينه وبين هذه الوجهة حائل الشغف بنعيم الحياة الفانية . فكان بهذا القيام الذاتي صارفا أفكاره وخواطره بطبيعته الطاهرة الشريفة نحو حضرة مولاه لا يشغله عنه شاغل ولا يلهيه حال . وتذكر ان كنت من اهل الانصاف منزعه عليه الصلاة والسلام إلى حب العزلة والخلوة قبل نزول الوحي عليه . فما ذا يا ترى كان الداعي له إلى ذلك ؟ . لا شك ان الله تعالى قد أنبته نباتا نورانيا صرفا ينجذب إلى اصله . فكان يبحث بأفكاره عند عزلته بغار حراء عن أنشودة روحانيته فلما جاءه الملك وحصل المقصود من تبيين حالته انغمس بكليته في أنوار الحضرة العلية . فلذا يراه اصحابه مطرقا طويل السكت فإن نطق فما ينطق إلا بالحكمة والدعوة إلى الآخرة بجوامع الكلم . وان بين مصلحة دنيوية فما يبررها إلا بوسيلة أخروية ونسبة دينية . ولقد كان عليه الصلاة والسلام يقول : « أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » فمبيته هذا بمكانة لا يتصورها فكر بشر كيفما حاول التأويل أو التحويل

ولما كانت رتبته عليه الصلاة والسلام عند الله تعالى أعلى ما يكون من رتب النبوءة فهو بنورانية ذاته البشرية الروحية في يقظته ومنامه مشاهد للحضرة العلية لا يخطر بباله غيرها ولا يلهو بسواها طرفة عين . وانما قيامه بمقام الاسم الاعظم الجامع لكافة الاسماء والصفات صيرو وجدانه الشريف في تماثل مخالف مع اختلاف التجليات المتواردة على قلبه الطاهر عليه الصلاة والسلام . وهو مع ذلك قائم بإعطاء كل تجل من التجليات حقه من العبودية والادب في التخلق والتعلق وهذا فن يبعد فهمه عن الجامدين مع الظاهر لانه اذواق خصة يعلمها الذين باشروا الحقائق بالذوق الروحاني لا بالعقل الانساني . ولهذا نوه الله سبحانه وتعالى بخلق هذا الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وازكى التسليم فقال جل من قائل

« وانك لعلى خلق عظيم » (١) . فليس المقصود بالخلق هنا محاسن الشيم الظاهرة للعباد فقط بل والخلق الروحاني المباشر لخضم الحقائق المتلاطم بالتجليات التي لا تكيف ولا يعرف لها أولا ولا آخرا

فإن مظاهر التجليات من الاسماء والصفات التي تتوارد على جميع الخلائق يباشرها كلها عليه الصلاة والسلام ويعطيها آدابها وحقوقها من الذوق والمباشرة ويكنه علومها ومعارفها بحيث لا يشذ عنه لاحقير ولاجليل منها . ولنشكل من الاسم « المعطي » أنموذجا في فهم بعض ظاهر ما ذكرنا . فإن الاسم يقتضي الاعطاء والمنح لكل ذرة في الوجود . فهو قائم بإفاضة المواهب الحسية والمعنوية على جميع العوالم الشهودية والغيبية بكيفية مستقلة عن الاسم « الوهاب » . أي بذوق خاص لا يشاركه فيه ذلك . فمصدره عن التجلي الاكبر للاسم الاعظم حيث قام حال سيد الوجود صلى الله عليه وسلم قيامه الاثباتي . وهذا المصدر يفيض دائما أزلا وأبدا بلا انقطاع منذ ظهرت العوالم القابلة للاعطاء والمنح . فذوقه صلى الله عليه وسلم في عين مصدر الفيض الاعطائي من الاسم المعطي ذوق عال رفيع يودي فيه لصاحب الاسم المعطي بتأثيرات علومه ومعارفه من آداب العبودية والافتقار ما لا يكيف مع التخلق بالاعطاء في مقابلة مجموع العوالم المعطى لها تخلقا مشكلا من المحاسن الجليلة التي لا يمكن استيفاء شرحها

ولدينا في هذا المقام مثل محسوس نبديه وان كان من أمر سخيف ألا انه صورة من صور انطباع المظاهر الحسية فيما يوافقها من الذوات . وهو يدلنا على مثال الوجه الحقيقي من انطباع التجليات الروحانية الصادرة من حضرة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم في الطباع الروحانية عموما مصحوبة بالاخلاق التي تقتضيها الاسماء والصفات الالهية . لقد أفرط الناس في هذا العصر في التقليد في الازياء والاشكال اللباسية والمعاشية . ومع ذلك فانه لم ينل بينهم زي واحد تعين مبدعه حظ المواظبة مثل ما نال زي حلق الشارب من الجانبين وابقاء الوسط . فإن هذا الزي قد انتشر في الشرق والغرب وذاع عند العرب والعجم . كل الامراء والوزراء والاعيان في كل دولة وأمة اتخذوا هذا الزي وقلدوا فيه « شارلوت » الممثل الهزلي بأمريكا . وما كل هؤلاء الناس أبصروا هذا الرجل ولكنها الطباع النفسية في البشر مستعدة لقبول بعض الازياء بالاجماع وان كان سخيفا مثل هذا زيادة على خلق اللحى . فانتشار المدد الروحاني من مقام الرسول صلى الله عليه وسلم على العوالم الروحانية هو من هذا القبيل يسري مع ضعف وقوة القبول فيها من لدن كل اسم او صفة للحضرة الالهية بواسطة تخلقه او تعلقه صلى الله عليه وسلم بها أولا

---

(١) سورة القلم

وتأمل مقدار قوته العظيم عليه الصلاة والسلام في القيام مع كل اسم بانفراده في تأثيراته منذ الازل إلى الابد بالادب والتحقق والتخلق والتعلق وخالص العبودية وفي قيامه في الوقت نفسه مع جمع الاسماء والصفات الالهية على هذا النحو لا يشغله هذا الاسم عن هذا الاسم ولا هذه الصفة . ولا يذهله تجلٍ عن الاخر . ولا يعجزه تعبده مع هذا الاسم عن التعبد مع الاسم الاخر

واعلم أن ما ظهر لنا من الاسماء والصفات الالهية مخصوص بالعوالم الظاهرة لنا ولله في غيوبه عوالم لا تحصى قد تجلى عليها بما يوافقها من الاسماء والصفات الغيبية . وكلها قد دخلت تحت حيطة الاسم الاعظم القائم به حضرة سيد الاولين والاخرين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم . فإذا أنصفت أيها الاخ وراعيت هذه الاشارة اللطيفة يلوح لك فهم مكانة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند ربه تعالى وانها لمكانة عظمى لا تكيف قد تبوأ عرشها صلى الله عليه وسلم بفضل الله « وكان فضله عليك عظيما » (١) . وقد تمكن منها بالذات الروحانية منذ خروج الوجود من حيز العدم ثم بالذاتين منذ بروزه رسولا أميا للاميين وللناس كافة بشيرا ونذيرا . صلى الله عليه وعلى آله صلاة تعرفنا بها إياه

(١) سورة النساء

الحقيقة المحمدية

ولما بلغنا إلى ذكر مكانته عليه الصلاة والسلام في حضرة مولاه جل وعلا نلاحظ أنه تحت طي هذه المكانة توجد حقيقته الغيبية صلى الله عليه وسلم وهي المنصوص عليها عند القوم بالحقيقة المحمدية الناشئة عن الحقيقة الاحمدية . وهي ذوق غيبي محض في غاية الغموض . وهو منزه كل التنزيه عن اعتقاد البعض بالحلول والاتحاد والمباشرة . فإن ذلك محض كفر والحاد . وانما لله سبحانه وتعالى كما يقتضيه تنزهه الاقدس عن كل ما يلوح للعقول وادراكات الحوادث في كل مظهر من مظاهر الوجود آيات بينات لا يقف عندها ذوق او عقل او تصور أو ادراك حتى يلوح فيما وراءها آيات أخرى ومظاهر وأذواق وتجليات أعلى منها . ألا ترى أن الانسان في رقيه الاجتماعي وتقدمه الاكتشافي كيف استمر سائرا ولم يقف عند حد محدود في نيل علومه واختراعاته في الفنون الطبيعية والاقتصادية والصناعية والطبية والبخارية والكهربائية والميكانيكية ؟ . أفليس أنه كلما حصل اختراعا وفرح به إلّا ولاح له غيره في عالم الاكتشاف المادي ؟. هذا ما نشاهد في الماديات . أما الغيبيات وما أدراك ما الغيبيات فإنها حضرات أحاط بها من غاير الحوادث وليس كمثله شيء وهو أقرب الى كل شيء من نفسه . وأرباب هذه الحضرات الغيبية كلما دخلوا حضرة إلّا وازدادوا ابتعادا عن ادراك كنه الذات المقدسة في عين القرب منها . وذلك ما يليق بكمال سبحات الجلال. فنحن إذا عينا للحقيقة المحمدية غموضا في حقيقة الذات المقدسة فكأنما أعطيناها جزء واحدا من آلاف الالاف الالاف أضعافا مضاعفة مضروبة في مثلها وفيما أحاط به علم الله بعد ذلك من الغموض التنزيهي الذي ننزه به ذات مولانا عز وجل وهو الكبير المتعال

فتقاعس يا أيها الانسان الضعيف ونكس الرأس أمام ما لا تدري . فإنك وان كنت بفضل ربك عالما مفكرا فما أنت إلّا جاهل بأصلك العنصري فلا تسئ الادب فيكون وبالك عليك عظيما

معنى وجود الاكوان

بوجوده عليه الصلاة والسلام

لقد قال عليه الصلاة والسلام « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » فلا انفكاك للادراك عن هذا الوجود . فلقد كان عليه الصلاة والسلام يدرك بحقيقته الروحانية أنه خاتم الانبياء . ولاخذ ازره ونصرته أخذ الله الميثاق على كافة النبيئين وألزمهم بالاقرار برسالته الامدادية كما ورد في صريح قوله تعالى « ولقد أخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه » (١) . فاقرار الانبياء جميعا عليهم الصلاة والسلام برسالته والايمان به ونصرته أبلغ دليل على كونه صلى الله عليه وسلم صاحب السيادة عليهم وكونه جاء اليهم مثل ما جاء الى أممهم حيث كان دين الله وهو الاسلام واحدا وان تعددت الانبياء والكتب المنزلة عليهم . ولقد تقرر معنا آنفا أنه عليه الصلاة والسلام القائم بعرش الاسم الاعظم القابل لكافة تجلياته الامدادية في الايجاد والاعدام . مع تصاريف الاسماء والصفات الالهية المنبعثة من حضرة الاسم الاعظم . وان هذا القيام من حضرة حقيقته الروحانية كان أوليا كما هو آخريا . ولما كان وجود الممد (بكسر الميم الثانية) واجبا معنا قبل وجود الممد (بفتح الميم الثانية) يتبين لدينا ون وجود حقيقة سيد الوجود عليه الصلاة والسلام حصل قبل خلق الاكوان مما كان لله تعالى فيه حكمة ولاسمائه وصفاته القدسية تعلق ونفوذ . فهو الموجود الاول لمقتضيات الالوهية . فوجوده إيجابي محقق لتجليات الربوبية . وما لاحد قبله من القوة ما له في تحمل التجلي الاعظم البارز عليه في بحبوحة الغيب حيث كانت حقيقته جوهرا فردا لم تتميز عنه الجواهر . وذلك أقصى ما يصل إليه مجهود البشر في إجلال مقامه مع إجلال وتقديس مقام الحضرة الالهية التي لها الابداع العجيب في تكوين عين رحمتها روحا جامعة للارواح ممدة لها مفيضة عليها أنعم الوجود والورود . حتى اذا حان أجلها أرسلت في شكلها الترابي بشرا كاملا لله عابدا . يقول « الحمد لله رب العالمين » (٢) وربه يقول له « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٣) . أوليس العالمون المحمود ربها على لسان الرحمة هي نفسها المفتقرة لتلك الرحمة الربانية ؟

---

(١) سورة آل عمران . (٢) سورة فاتحة الكتاب . (٣) سورة الانبياء

فالعالمون جمع عالم . واللفظ عام أريد به العموم . فكما أن « العالمين » المضافة للربوبية تجمع كافة العوالم الظاهرة والباطنة الشهودية والغيبية . فكذلك « العالمين » المنتسبة إلى « الرحمة » والمتعلقة بها بسلام لانتهاء من لارسال . فلا تخصيص هنا لا بالانس ولا بالجن ولا بالمومنين ولا بالدنيا ولا بالآخرة . واعلم ان تفاصيل اسرار الرحمة المحمدية متشعبة مع كل خير أنتجه الوجود في العوالم . فالروحانيات في تصاريف لاخلاق والشيم والسجايا والرغائب والمواهب لاحسانية قد توجهت منذ حدوث لاكوان تعمل لقوام الهيئة الوجودية في الخلق . وبهذه الوجدانيات الشعورية ولاحساسات الطبيعية امتدرواق لابداع حتى على الجماد كسير الكواكب في افلاكها ، متماسكة بتجاذبها الروحاني . وتجاذب لاثقال ولاشعة والكهربائيات والمائعات والنباتات . وما سرى في الحيوان من لاحساس بدوامي التساكن والبقاء والشعور بالحنان والعطف المؤلفين بين أجناسها المؤدبين إلى لاجتماع وتأدية وظائف وجودها حسب السنة القائمة بالحق مع كل موجود في الحياة . وما عند صالحي البشر ومن دونهم جبلة او اكتسابا من لاخلاق الحسنة والشيم اللطيفة التي بها تم للاجتماع قوامه عند كل أمة وجنس

فلما كان عليه الصلاة والسلام هو صاحب الخلق العظيم كما وصفه ربه تعالى فقد تعين أن روحه الشريفة مصدر كل لاخلاق الحسنة السارية في لارواح الكونية بلا تخصيص .

فإذا فهمت أيها لاخ هذا الذوق مع مراعاة تنزيه المولى تعالى وثبوت التأثير المطلق لقدرته وإرادته يسهل عليك أن تفهم معنى وجود لاكوان بوجوده عليه الصلاة والسلام . أي أن لكل ذرة في الوجود روحا نورانية تستمد من السراج المنير الرباني روح الحقيقة المحمدية نورانية وجودها . ولارواح تمد لاشباح وما مادة لاشباح في الحقيقة لا كذرة في صحراء لا حد لها طولا وعرضا بالنسبة لمادة الارواح « وما متاع الحياة الدنيا في الاخرة إلّا قليل » (١)

(١) سورة التوبة

إشراف الرسول

صلى الله عليه وسلم على العالمين إشراف تصريف وتدبير

الله سبحانه وتعالى صاحب القيومية العظمى القائمة مع كل شيء دق او جل في الوجود. ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لانسان الوحيد القائم بحقوق الربوبية واعطاء العبودية واجبها بلغ في القرب — حسبما هو في أصليته قريب ولكن كل وقت يزداد قربا ودنوا بكيفية لا انتهاء لها لنزاهة قدوس الله عن المركزية والحد — إلى أنه محيط بتصاريف الاحكام الصادرة على العوالم من حضرات الاسماء والصفات. فهو مقبل من جهة على تأدية الحقوق الواجبة لتجليات الاسماء والصفات الالهية منكب على التعبد الخاص بكل ذوق من أذواقها. ومشرف من جهة على تصريف الامدادات على العوالم الوجودية من شهودية وغيبية. ويدبر لها احكامها ومواهبها من عين رحمته الروحية. ومكانته من عرش الاسم الاعظم. لا تشغله ذرة في التدبير عن الذرة الاخرى. فتأمل كمال قوته صلى الله عليه وسلم في مقامه الاسمى الذي أقامه فيه مولاه ولاجله أوجده منذ الازل الى الابد دائما سرمدا. فله صلى الله عليه وسلم في عالم الغيوب وفي عين حقيقته الايجادية مظاهر بحسب التجليات الالهية المتنزهة عن التناهي. وما مظهره الترابي الذي ظهر به في الحجاز بين الاميين إلّا شكلا ماديا يكون به شاهدا على الوجود المادي الذي هو أتم وأكمل أشكال الارواح في تطوراتها. « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله باذنه وسراجا « منيرا » (١)

∴

وعلى ذكر شكله الترابي الذي ظهر به صلى الله عليه وسلم بمظهره الاكمل أمام المكونات أجمع نلاحظ انه صلى الله عليه وسلم لما فارق الدنيا بموته الطبيعي بما أنه بشر كما اخبره ربه تعالى بقوله « وما محمد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم » (٢). « انك ميت وانهم ميتون » (٣) قد انتقل الى مركزية الرفيق الاعلى كما طلب عند الاحتضار بجسده المادي بعد أن أقبروه في التراب. فهو اذن حي باق بهيئته التي كان عليها بين صحابته

(١) سورة الاسراء. (٢) سورة آل عمران. (٣) سورة تنزيل

كحياة الشهداء الذين قتلوا بأيدي الكفار في الجهاد الشرعي يتصرف بجسده الشريف الذي ناسب الروح بنورانيته فأصبح غيبا لا تدركه الابصار. وكونه صلى الله عليه وسلم مقيما بقبره الشريف بحرم المدينة المنورة او في السماء او في الشرق او في الغرب فذلك امر لا تقييد له باعتبار عقولنا القاصرة العاجزة عن تصور احوال العوالم الغيبية. ففي امكان القدرة الالهية ان يكون عليه الصلاة والسلام مقيما بقبره الشريف بذاتيته الترابية النورانية من غير ان يتغير منه شيء متحققا في تلك الاقامة بمكانة الرفيق الاعلى وبالاحاطة بكافة العوالم إحاطة تصريف وتدبير. فان المواد تتلاشى امام نورانية الروح فلا يصح للذهن ان يتصور ضيق القبر على الذات الشريفة الكامل نورها بضيق مادته او كون التصلب المادي للعناصر الطبيعية يحول بين الروح وبين تصرفها وتجولها من هنا ومن هنا. فان هذا التصور قاصر على الحياة الطبيعية الظاهرة حسبما صرح به غير واحد حتى من علماء الطبيعة انفسهم ومن اشتغل بعلوم ما وراء المادة من العصريين

محبة رسول الله

صلى الله عليه وسلم وكونها واجبة على كل مؤمن

روى الامام البخاري رحمه الله تعالى في كتاب الايمان من صحيحه فقال « حدثنا أبو اليمان قال أخبرنا شعيب قال حدثنا أبو الزناد عن الاعرج عن « أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والذي نفسي « بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده »

وقال « حدثنا يعقوب بن إبرهيم قال حدثنا ابن علية عن عبد العزيز بن « صهيب عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم . ح . وحدثنا آدم قال حدثنا « شعبة عن قتادة عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم « حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين »

وقال « حدثنا عبد الوهاب الثقفي قال حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن أنس « رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث من كن فيه وجد « حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وان يحب المرء « لا يحبه إلا لله وان يكره ان يعود في الكفر كما يكره ان يقذف في النار »

فمقتضى هذه الاحاديث الشريفة صريح بين في كون محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة على كل مؤمن . وأنها شرط في كمال الايمان وحصوله بالصورة التي يرضاها الله للمؤمنين . وما كان لمؤمن أن يثق بتمام إيمانه ما لم يمتحن يقينه في حصول هذا الشرط . ونكتته وأيم الحق لمن أعضل ما امتحن في سبيل الحق . اذ ما كانت المحبة بالخلق الذي يشترى او يكتسب بسهولة بل هو ادراك يقيني قلبي يتبع الايمان ويمتزج به . فإن زاد زاد معه وان نقص نقص . ومن هنا يتعين على كل مؤمن ان يمتحن قلبه في محبة الرسول صلى الله عليه وسلم ويعمل على ذلك ما دام محافظا على إيمانه وسعيه في تنميته وتصفيته من اكدار الفتور . ومن هنا ايضا يتعين غلط اولئك المعاندين من منكري التصوف في تزييفهم لاعمال الصوفية الذين قطعوا الاعمار في محبة الرسول صلى الله عليه وسلم ولازموا مدحه والتعبد لله بالصلاة عليه . ويتعين ايضا على عموم المنكرين في هذا السبيل أن يختبروا قلوبهم وينظروا هل فيها ما يحقق قوله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى اكون أحب اليه من والده

« وولده » . فإن قالوا بذلك فالمتابعة للسيرة النبوية برهان حقيقة ما يقولون . وإلّا فالمعتبر في شؤون كلامه وما يجري عليه مجموعها من كافة الطبقات وفي جميع الازمنة لم يجد فيها قوما تحققوا بخلق محبة الرسول صلى الله عليه وسلم بدليل متابعة سيرته . والسير على منهاج شريعته . ما عدى جماعة الصوفية الصادقين الذين امتحن الله قلوبهم بالتقوى . وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها. فنبذوا الدنيا وزينتها عند إقبالها عليهم . و وجهوا وجهة إيمانهم بذلة وخضوع نحو روحانية الرسول صلى الله عليه وسلم تشوقا واستمدادا . وأجابوا داعي ربهم في قوله جل من قائل « ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » . فقضوا أعمارهم في السير على هذا المنهاج . فمنهم من انسلخ عن ذاتيته . بخرق عادته فشاهد بروحانيه جناب المحبوب عليه الصلاة والسلام في مجد نورانيته . فأفاض عليه من إمداداته ما زاده إيمانا ويقينا . ومنهم من ينتظر حتى حضور منيته فاستيقظ من نومته وانضم الى برزخيته مع الاحياء عند ربهم وهم يستبشرون . وخسر هنالك المنكرون

إبداء وإعادة القول عن

حضرة الملاحظة

في صلاة الفاتح لما أغلق

لما أتممنا مباحث الهداية المحمدية المنظومة تحت قول المصلي بصلاة الفاتح ﴿ والهادي إلى صراطك المستقيم ﴾ بلغنا إلى حضرة الملاحظة فيما بين ذلك . حيث أن هذا المصلي بهذه الصلاة المخاص في تأديتها قد يشعر في هذ المقام بثورة في مداركه . وهيجان في عواطفه . وجواذب في سويداء قلبه ترفعه ثم تسفله . وتطلعه ثم تنزله . وتذهب به يمينا وشمالا . ووراء وقداما . تلك الجواذب الشوقية والمؤثرات الحبية التي تجعل مخيلته في ارتعاش لا بهدأ وخفقان مستحكم المبدأ . حيث ترتسم في مرآتها صور تتجلى . واشباح جليلة المجلى . يكرر مجيئها والذهاب . شدة تفتيش هذا المصلي عن وجه الحق والصواب . وهو يرسم سناء شمائل المحبوب . ومحاسن خلقه وخلقه في الاستحضار المرغوب . ليتم له خالص التوجه المطلوب . ويتعرض لصب المدد الساري من حضرة علام الغيوب . ولسان الواقع يناديه . لما غدا في هذا المساق حاديه

ورى نار تيهان بقلبي مقيمه * فأنساه ربعا كان قبلا يقيمه
وأجلاه في فيح البوادي متيما * يدعه طورا ثم طورا يقيمه
فأضحى كئيبا مدنفا قد أذله * غرام يثير الحزن دونا يقيمه
يناجي طلوع النيرين ويبتغي * من الوجد طورا في الدراري يقيمه
ويهوى حديث الحب فهو أنيسه * ويلهو به باسم الحبيب يديمه
ويطوي به طول الليالي يعيده * مع الذق ألفا حيث دقت فهومه
فمأمله مرآه مرأى يؤمه * لان منال الامن باليمن ميمه
تيممها غضا فأضحى متيما * بملحوظها شبحا تداعى رميمه
وحال الحيارى حاله من تحمل * كاه حلت لما حباه رحيمه
ومنها به جد وفتح ورحمة * لقلب تلاشى في الغرام صميمه

نحيل بها حتى تواري خياله * حزين على اللب فيها سقيمه
ضعيف القوى لما تضاعف ميمه * بمعنى يؤوي الحب فيه عليمه
ودلت على دور المدامة داله * دلالا ليدنو بالوداد مديمه
ودارت على ختم المحامد دورة * أعادت لختم الشوق وصلا يرومه
عذولي دع التعنيف فهو ولوعه * جهلت الهوى حتى م فيه تلومه
أما تعلم البلوى على الوجد رحمة * تصير بها شهدا حلوا سمومه
وفي العذل روض للتصابي بروقه * به يجتني الذكرى ويحلو نعيمه
ويسقي زهور الحب وابل مدمع الـ * ـغيوم التي طبعا أثارت غمومه
ولاسيما أن لاح بالشرق بارق * أو ان هب من نحو الحجاز نسيمه
فمن خلقه طابت تعاليم سره * وراقت لفتح المغلقات علومه
ولاحت صفات فيه زادت سناءه الـ * ـغيبي جلالا فيه تمت فهومه
جلال لها طبعا تجلى بجسمه * تشير الى المكتوم حكما رقومه
يفوق اعتدال الغصن تيها بقده * فليس طويلا او قصيرا قويمه
يطول الطوال الشم طبعا دلالة * على أنه لا على تعالت رسومه
فما طاله قط الشهير بطوله * فأعظم به طولا حباه مقيمه
وان سار مع غير الطوال فإنه * لذو قامة بالاعتدال تقيمه
فربعته دون المشذب فوق من * تردد قصرا فاستواه صميمه
بياض له مثل اللجين فلونه * مليح بدت أقماره ونجومه
فأزهره أي أسمر اللون مشرب * بحمرته فهو الكمال عميمه
فليس إذن بالامهق الوضح شدة * ولا آدم بل لونه مستقيمه
اذا تم وجه البدر حسنا فوجهه * أتم وفكري فيه طالت همومه
فتجري به شمس الظهيرة جهرة * وان قامها رأسا يفقها وسيمه
فما ضاء مصباح لديه ولا أضا * ء نور وكل النور منه نجومه
تبلج كالمرآة حارت عقول وا * صفيه وتاهت حيث دقت فهومه
وان قابل الجدران يوما تجد له * تلاحكها طبعا تجلت رسومه
وليس بتدوير مطهم او مكلثم الـ * ـوجه من ينظره زالت غمومه
ورأس الحبيب البدر ضخم جماله * فما فيه افراط مشين عظيمه
حوى عقل أنقى الخلق طرا دماغه * خلاصة اسرار المصون رقيمه
له شعر مجلوه رجل بدا * ومعقوصه بدر حوته غيومه
وان حله شطرين يسهل فرقه * ويعتاده بالزيت دهنا يديمه
فما رجل سبط لاقصي نهايته * ولا هو جعد مفرط فذميمه
ولكنه سبط بأجمل جمته * تلت لمة او وفرة لا تدومه

ويروى له منها غدائر أربع * أراقت دموع الشوق من يرومه
على كل أذن اثنتان أحاطتا * بها ترسمان اللام والأذن ميمه
ولي ألف عند انتصابي لذكره * ونون العنا والقصر مني عثيمه
فذاك « المني » حتى م يرثي لذلتي * ويرضى فقد أودى الفؤاد أليمه
جبين له أجلى سراج توقدا * مفاض به صلت بهي قويمه
تذوب له الاكباد رعبا وحسرة * لان سناء الرب فيه مخيمه
وأدناه أبدى حاجباه تقوسا * يوالي على المشتاق رميا يريمه
أزجان مقرونان مع دقة بدا * بها بلج رقت وراقت رقومه
وبينهما عرق يدره مغضبا * فيدري به البطش الشديد خصيمه
وعرنينه أقنى دقيق منيره * فأحسن به أنفا براه حكيمه
وطوبى لانفاس كرام تردت * بخيشومه نعم النسيم نسيمه
ويا ليت كلي كان روحا بطيبة * لاحظى بذاك القرب يوما أقومه
وعيناه قد مد الاله عليهما * حلالا من الابداع خاص عيومه
فسواهما نجلاوتين تراءتا * فأخفى العيون النجل في القفر ريمه
ومجد الكمالات الجسام تجسمت * معانيه في عينيه فهو جسيمه
شديد اسوداد المقلتين بشدة الـ * ـبياض وفي ذا الحسن تمت علومه
وأدعج يروى لاشتداد سواد عيـ * ـنيه في اتساع لم تحزه رغومه
كذا أشهل العينين يروى وأشكل * لنوع احمرار في البياض صميمه
له كحل الاشفار طبعا وطولها * بلا صنع كحل يستمر لزومه
ولكنها الاهداب اهداب مقلة الـ * ـكمال تولاها الكمال قديمه
وفي أسيل الخدين سالت مدامعي * حنينا وشبت في الفؤاد جحيمه
وقد جاء سهل الخد صاف فما به * نتوء وما للصعب صعبر يقيمه
صليع الفم الاذكى من المسك نكهة * بختم لطيف لا يبارى وسيمه
ثغر بديع الحسن راق بريقه * كبدر بدا لما تقشع غيمه
مضيء الثنايا يلمع البرق فجأة * إذا قال منها والسعيد كليمه
ويفتر عن حب الغمام اذا بدا * تبسم هل بالفتور ترومه
واسنانه در دقاق تفلجت * شداد عليها النور باد جمومه
وفي فيه ريق طيب فاق طعمه * جنى النحل كم ضر شفاه حكيمه
وكم باذئ اضحى برشفه طيبا * حليما وكم جسم توارت كلومه
وكم صالح اجرى بخارق فعله * لتطييب مر او طريح يقيمه
ولاسيما تلك التي قد سرى لها * بما لاكه حلم مقيم نعيمه
واكرم بظمآن قد امتص مصة * فما زال ريانا ذكيا نسيمه

فياليت شعري هل مرارة صبوتي * يباح لها ريق الرضى تستديمه
فؤادي بكث اللحية اشتد وجده * وفي اللحية الحسناء زاد وجومه
بدت تملأ الصدر الشريف فزادت الـ * ـمحيا وقارا ذا الوجود خديمه
يسرحها بالماء عند وضوئه * فياليتني الماء الذي قد يرومه
وياليتني مشط لديه لكي أرى * مفازي بقرب لم ينله حميمه
له عنق مجلى كإبريق فضة * صفاء وجيد دمية مستقيمه
حوى فيه طرف الشكل في حسن هيأة * بإشراق نور قس فيه بكيمه
بعيد مع الاجلال ما بين منكبيه * ـه ياهل ترى بعدي قصير صريمه
عظيم الذراعين اجليلين أي طويـ * ـل ممتلىء الزندين طرف كميمه
له راحة إن الحرير إزاءها * لخشن و رحب الكف سهل كريمه
غليظ كلا الكفين طبعا وسائل الـ * ـأصابع حيث الجود سالت غيومه
و يمناه إذ كلتا يديه يمينه * مقام لاكمل التجلي يقومه
ففيها الحصى لله سبح جهرة * ومنها معين الماء فاض جمومه
وألقت على جيش العدو بإلهها * ترابا فولى الجيش واشتد خيمه
و ردت على الارضى قتادة عينه * وان لمست سقما تعافى سقيمه
ومن يمنها نز ر الطعام نمى بها * فذل قرى الشخص الفريد جمومه
فيمنا لايمان وسقيا لارؤس * حبتها بلبس فاز من ذا قسيمه
ومن يعتبر يغبط عليها ولوحظو * ظ ما قد تولت درة أو تسيمه
وشاة دعتها للنوى ملء كفها * فلبت فهل يمحو النوى من يرومه
جليل عريض الصدر نور فؤاده * مقاليد سر الله قدما علومه
تساوى ببطن كم طواه وكم أحـ * ـله الخشن أو أخواه دهرا يصومه
وفيه أزيز من مخافة ربه * وأخشى الورى لله حقا عليمه
ومن نحره للسرة الشعر في دقيـ * ـق مسربة فيما عداها عديمه
مسيح ومنهوس وأخمص أي حوى * كلا قدميه الحسن حيث نجومه
بعيد الخطى إن سار قاعا ومشيه * على الارض هونا فهو فيه حكيمه
عليه صلاة الله حق مقامه * ومقداره الاسمى الذي يستديمه
وآله والاصحاب ثم سلامه * يدومان ما دام النهى وعلومه

الاستغراق في المقدار العظيم

ثم ان المصلي احتراما لمسرى نور هذا السر الاعظم الاطهر عطف الصلاة المرغوبة من جناب الله على رسوله على اهل بيته الاشهر بقوله ﴿ وعلى آله ﴾ وآله عليه الصلاة والسلام من جهة هم اعضاء عائلته بني هاشم من عمومته ومن تناسل منهم وبني ذريته الزكية من سيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها ومن تناسل منهم الى يوم القيامة . وهذا الفرع الاخير هو الاخص لسريان نورانيته عليه الصلاة والسلام الخاصة في جميع فروعه واطرافه . ولذا كان تعظيم اشخاص اهل البيت الكرام من السنن المعمول بها عند اهل الاحتشام والكرامة والاعظام . وكان من طباع شيخنا حجة الله الكبرى رضي الله عنه لا يقوم لاحد من المقبلين عليه إلا اذا كان شريفا من اهل البيت النبوي فانه يقوم له بكل اجلال واكبار تعظيما للبضعة النبوية وتوقيرا للسراية المصطفوية . وكان يقول فيهم رضي الله عنه وعنهم « عصاة « اهل البيت يسلك بهم مسلك اهل بدر يقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم « واما اهل التوفيق منهم فلا يلحقهم غيرهم » (١) . وجاءه يوما احد اهل البيت من اصحابه وقبل يده رضي الله عنه بغتة فأقسم عليه بقوله « والله حتى تمكنني من « يدك » (٢) . فمكنه منها وقبلها رضي الله عنه . وكان هذا دأبه مع السادة الاشراف عليه وعليهم الرضوان . واعلم ان هذه البضعة الطاهرة آل المصطفى صلى الله عليه وسلم من هذه الوجهة تخصهم أحكام حرمة الاكل من اموال الزكاة والصدقات لان نظافتهم الروحية لا تقبل التلطخ بادناس الناس واوساخهم التي هي اموال الصدقة والزكاة . ولذا قال شيخنا رضي الله عنه وارضاه وعنا به لما سئل عن حل اعطاء اموال الزكاة للاشراف « لا تحل لهم ولا تجزئ معطيها لهم لان العلة في تحريمها عليهم « كونها اوساخ الناس وهي باقية فيها والعلة تدور مع المعلول كما هي القاعدة « الاصولية وما ذكر من ان محلها بيت المال وحيث لم يتوصلوا لحقهم منه رخص « لهم في اخذها لا يصح لاجل ما ذكرنا » (٣)

(١) الافادة الاحمدية حرف العين (٢) حرف الواو (٣) حرف اللام

والآل من جهة أخرى هم مجموع الامة المحمدية عربيها وعجميها شريفها ووضيعها . وهذه الملاحظة مع تقديم الملاحظة الاولى تعميم رحمة عياله على أمة هي في الحقيقة متعلقة بأذيال هذا الرسول الكريم تتيمن رحمته و رأفته وترجو فضله وخيره وتأمل عطفه وشفاعته . وهو عليه الصلاة والسلام بها رؤف رحيم عطوف شفوق . يتألم من آلامها ويتنعم لتنعمها . ولذا كانت اعمالها تعرض عليه فإن وجد خيرا استأنس واستبشر وان وجد العكس دعى لها واستغفر

ولما وقف المصلي عند هذا الحد و رام ختم دعائه وطلبه لم يرق له ان يترك ذهنه فارغا من تصور قدر هذه الصلاة التي لا يدري معناها ولا فحواها والتي تكفل لاله العظيم الجليل بالقيام نيابة عن عبده الضعيف الحقير بافراغها على فاتحه وخاتمه . فأجال قياسه التخميني في اطراف الشرق والغرب ليدرك لها قدرا وميزانا يقدرها به فلم يجد . فاستنجد بعقله فوجده عاجزا جامدا . واستفتى العلم فوجده قاصرا عن تحديد ذلك . فنظر الدنيا فوجدها حقيرة لا تفي بجناح بعوضة . ولاحظ الآخرة فألفاها لا تسد ثلمة . فبقي في ارتعاش وقلق . لا يهدأ رعبه . ولا يقر له قرار . لان ملحوظه الذي لاحظه عند وصفه بالفاتح والخاتم صير في نظره مجموع كل دقيق وجليل من المعلومات والمجهولات لا يفي بمقدار قطرة في بحر حقيقة السر الاعظم الذي يريد أن تكون الصلاة المطلوبة بحضرته لائقة بجلاله وفخامته وعظمته . ولكن الرحمة السابقة بضعف هذا الانسان الهلوع استدركت عليه في ذهنه ما كشف عنه غمة القلق ورعب الحيرة والهلع . قالت له بما أنك لم تدر من أول وهلة معنى الصلاة التي قمت تطلبها من خالقك لحبيبه وصفيه . وجهلك بك فضلا عن غيرك فوضت أمرها للمتفضل بها . وتجاهلت المشاق والمصاعب . وتكبدت المصار والمتاعب . في الغوص وراء معانيها المجهولة وأنت تعترف مع هذا وان حبيب خالق العالمين الذي هو مظهر السر الاسمى لا وجود للحقائق بإزاء حقيقته . ولا ظهور لها البتة . بل الفناء كل الفناء على كل الموجودات يسود عند ظهور تلك الحقيقة العظمى أم الحقائق . كفناء ضياء النجوم عند ظهور نور الشمس في ضحوة النهار . ففوض أيضا قدر هذه الصلاة التي تطلبها لحضرته . واطلب من مصورك أن يجعلها ملائمة لقدر حقيقة من تطلبها لسيادته ومقداره القديم . فإنه هو سبحانه وتعالى مصورها والعالم بهياتها العظيمة فقال صاحبنا إذ ذاك ﴿ حق قدره ومقداره العظيم ﴾ .

وعندئذ نادته تباشير الرجوت من حضرات الملكوت . أن ابشر بالفوز لانمى . فلقد أصبت المرمى . وحق لك المقام الاسمى . لان قدر النبي الكريم . والسيد السند العظيم . عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم . قدر لا شيء في خضيمه الذي لا حد له ولا قعر ولا ساحل ولا ظاهر ولا باطن كل أقدار ما خلق الله تعالى كما

تتلاشى قبضة الكف من الملح إذا ألقيت في لاقيانوس المحيط . فما ثم إلّا قدره ومقداره العظيم قد غمر الزمان والمكان فلا لقاءه وقت ولا للمكان كيان . وكل ذلك جزء من فضل الله الساري . من منبع أزله الجاري . أطلعه شمسا في سماء غيو به أشعتها المعلومات والمجهولات . وأجراه بحرا في أفنية وجوده زبده المعدومات والموجودات . ومجموع المعلوم والمجهول والمعدوم والموجود إذا استقصيناه ما هو إلّا نقطة تقع من شق القلم في اليم بإزاء سعة هذه الحقيقة الرئيسية . وقدرها ومقدارها العظيم

ولما كان فضل الله عظيما على ما بث في الاكوان من المخلوقات لاسيما خلق البشر المكرم في الازل . وحيث أنه أجرى ذكر هذه الصلاة على لسان هذا المصلي لمحبته في رسوله الاكرم الاطهر . وبما انه حقق في فؤاده الصدق في التوجه والاخلاص في التعلق بحكمة فصلها في أم كتابه وقررها في قديم علمه . جعل جزاء هذا المصلي على تقربه إليه بالصيغة المذكورة الجامعة لاساليب العظمة والاجلال . البارزة من حضرة الكلام الاقدس المقدس المنزه عن الحرف والصوت والتقديم والتأخير والمثل . جزاء موافقا لعظمته وعظمة رسوله بمحض الجود والافضال

فكانت مراتبها ثلاثا بحسب مراتب المصلين في المقاصد والنيات والاهلية والتوجه والافضلية

وحصول الفضيلة العامة في إطلاقها . والفضيلة الخاصة في تقييدها . متوقف على شرطين اثنين لا ثالث لها بعد الاستقامة الايمانية . الاول حصول الاذن الصحيح للذاكر في ذكر صلاة الفاتح من أربابه المتصدرين لاعطائه . المجازين بالاسانيد الصحيحة المرتبطة بالقدوة الاعظم شيخنا أبي العباس أحمد بن محمد التجاني رضي الله عنه وأرضاه وعنا به . والثاني الاعتقاد بأن صيغة صلاة الفاتح لما اغلق ليست من تأليف مخلوق بل برزت من حضرة الغيب الالهي . حيث اتسقت معانيها باطنا . وكانت في الظهور الفاظا منتخبة من القرآن الكريم . وفي البطون تدل على ما يدل عليه كلام الله . وسر ذلك لا يفشى لجاحد او جامد على رعونة بشريته . وانما الاعتقاد شرط كما ذكرنا في حصول الثواب الخاص . وليس العلم بالمعنى السري بمستطاع لكل انسان . فعلم ان هذين الشرطين مطلوبان لحصول الاجر المفصل في كتب الطريق . الثابت سماعا وتقييدا عن حضرة سيدنا الشيخ التجاني رضي الله عنه وارضاه وعنا به بوعد صادق من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة لا منامًا . فنرجو الله تعالى ان يحقق لنا ولكل معتقد مآل النيل من هذا المنال وان يجعلنا من اهل دائرة الفضل والافضال . بمحض جوده وكرمه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم

هذا ولما بلغنا هذه النقطة حيث تم لنا الكلام على صلاة الفاتح لما اغلق بتناول الفاظها لفظا لفظا . وتقسيمها على ما يراد من منهج التصوف الذي هو لب الاسلام حقا وصدقا . ولاحظنا الآن عند التمام ثواب ذكر صلاة الفاتح وشرطي حصوله اعتقادا وذوقا . استمعنا اصواتا تهتف غربا وشرقا . واقوالا تجول في الاندية واعمدة الصحف اعتداء عن الطور وخرقا . وتهورا في الغي وحمقا . ورجا هذا الضجيج العنيف تدور بشدة حول نقطة الانكار . على الصوفية الابرار . وعلى اصحاب التجاني الاخيار . وخصوصا على كون صلاة الفاتح كلام الله تعالى وكون ثوابها بالكيفية المقررة . في كلام قطب الكرام البررة . فتعين علينا إزاء هذا الضجيج الشيطاني ان نعقد في ختام هذا الجزء مباحث اربعة هي كالمهات . وعنها تتولد مباحث فرعية يقتضيها المقام للتدقيق والاثبات

المبحث الاول — ﴿ الحد الفاصل . بين الصوفي المنقطع والصوفي الواصل ﴾

المبحث الثاني — ﴿ مناظر التعرف . بشخصيات منكري التصوف والتصرف ﴾

المبحث الثالث — ﴿ إخماد النار . المشتعلة في « المنار » ﴾

المبحث الرابع — ﴿ منازل التسليم . لكون صلاة الفاتح كالكلام القديم . وان ثوابها من محض فضل السميع العليم ﴾

ومقصودنا من هذه المباحث تنزيه الحقيقة الوضاحة في سبيل « سائق السعادة » عن الباطيل ومفتريات المنكرين . وتهدئة يقين إخواننا التجانيين المنزعج من ضوضاء هذا الضجيج المزدوج . وإلا فما يغني الجدل في قوم عميت بصائرهم عن مشاهدة الحق الصريح . فـ « إنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » وحسبنا الله ونعم الوكيل وكفى به هاديا ونصيرا

الحد الفاصل بين الصوفي المنقطع والصوفي الواصل

تمهيد

هذا الحد واجب التوضيح تبيانا لما تقدم من إثبات المقام الاقدس . للصوفي الصادق ذي المسلك الانفس . وكونه الرجل الوحيد الذي استطاع أن يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم في تدينه وتعبده وتخلقه . استمساكا بشريعته . وانقطاعا إلى العمل بقرآنه وسنته . لان مجمل احوال الصوفية في السابق واللاحق مشوه الظاهر غامض الباطن وقد باشرهم من زيغ الشخصيات ما صيرهم هدفا لسهام كل منتقد . حتى وقع الحكم على أكثرهم أنهم ضالون مضلون من جانب من لم يميزبين الغث والسمين . وما وقع بهم إلا ما هو لازم بالزام سنة الله تعالى في تحويل أمور هذه الحوادث وتقليب الافكار بتغيير مناصب الاشخاص واختلاف أمزجتها ومداركها . بحيث أنه ما شذت ملة أو عقيدة أو مذهب أو طريقة او دولة عن هذا المناط من توارد الخير والشر عليها تباعا . والغالب ورود محض الشر عند انتكاص العزائم لتحصل الفتنة ويتم الابتلاء حسبما يريد الله بهذا النوع البشري . ومثلما كانت الملة الاسلامية مع كل نبي ورسول تسلك هذا المسلك حيث ينجح فيها القليل من الخلق ويذهبون في سبيلهم بأحسن ما عملوا ويتركون وراءهم غوغاء السواد الاعظم منهمكة في تتبع أهواء الشخصيات وضلالات النفوس . مع وجود الهدى في سنن الحق بين يديها . فكذلك كانت لامة المحمدية قد سلكت مسالك من سبقها شبرا بشبر . فانقسمت على نفسها كما ترى في التاريخ طوائف ودولا ومذاهب وطرائق . كل نزعة تدعي الزعامة على الحق وتعتقد الصواب فيما ترى ودين الله فيما تفعل والوصول إلى السعادة بما تصنع

فالصوفية بهذا الاعتبار بشر تتبعوا ملة الاسلام بنية الوصول إلى اليقين . وذهبوا فيها يبحثون عن الوجهة الصالحة للنجاة من هول المعاد الذي ملأ الله بالتخويف منه كتابه . فكان منهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وعملوا بالاحوط من الشريعة وسدوا في وجوه نفوسهم ابواب التطلع إلى اهوائها وشهواتها . ألا انهم قليل بالنسبة لمن قلدهم في نواميس الظاهر وانهمك في الباطن مع كل محظور شرعا وطبعا . ثم كان أناس مزجوا الظاهر بمستحسنات وتقاليد أضافوها إلى تغيرات البواطن حيث ترأسهم شيوخ جهال لم يكونوا في مداركهم بأهل فطنة وانتباه فانغمس الجميع فيما يخالف أصول الصوفية . وتوارى المحقون بإرث هذه الاصول وأقفلوا زواياهم مرتطين بأسانيدهم بأسلافهم الصالحين وهم أقل القليل . وبقي عامة المتصوفة تبعا للاغراض الاصلية في النفوس يتصيدون الدنيا بحبائل الدين وفوحوا بذلك على أنفس جواهر الشريعة الاسلامية الباب لمن يرميه بأنجس أقذار النكران . لقد ذهبت الاصول على ظهر ذيل وتبعتها الفروع بخيرها وصلاحها . وبقي المتشبهون يتواصون على المنكر وما يخالف لائر . فلا الخير ابتدعوا . ولا الشر انتزعوا . بيد أن الله تعالى بدقائق حكمته لم يدع حبل هداه منصرما . بل أوكله إلى أناس استتروا باتصاله . واشتغلوا بانفراده . فهم القوم لا يشقى جليسهم . لم يخل منهم زمان . ولا أقفر مكان . لقوله عليه الصلاة والسلام « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله » . وليسوا هم من الصوفية بالمعنى المعهود الآن . ولا من العلماء بالصفة الرسمية المعروفة . ولا من الملوك بالشخصية المعتادة . بل هم صوفية واصلون . وصوفية الوقت منقطعون . صوفية ذاكرون . وصوفية الوقت غافلون . صوفية مستترون وصوفية الوقت متظاهرون . صوفية بالكتاب والسنة متمسكون وصوفية الوقت مبتدعون

ولتبيين الحد الفاصل بين الفريقين يجدر بنا أن نعقد عدة مباحث في هذا السبيل ندرس بها ماضي الصوفية وحاضرهم وما هم فيه مستمسكون بالشريعة وما هو من تلقاء نفوسهم . و إشرافا على نشأة التصوف وتطور أحوال أتباعه ننقل عن العلامتين ابن خلدون والشاطبي قوليهما في القوم . لانهما في أبعد النقط عن دعوى الانتصار للطائفة . ومقالهما أوضح من غيره في شرح الحال والنتيجة والله ولي التوفيق

علم التصوف

تحت هذا العنوان كتب العلامة ابن خلدون في مقدمته ما نصه

« هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة . واصله ان طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية . واصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها . والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه . والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة . وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف . فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة . وقال القشيري رحمه الله ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر أنه لقب . ومن قال اشتقاقه من الصفاء او من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي . قال وكذلك من الصوف لانهم لم يختصوا بلبسه . قلت والاظهر ان قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس فاخر الصوف . فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والاقبال على العبادة واختصوا بمآخذ مدركة لهم . وذلك أن الانسان بما أنه انسان انما يتميز عن سائر الحيوان بالادراك وادراكه نوعان ادراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم . وادراك للاحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وامثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من ادراكات وارادات واحوال وهي التي يميز بها الانسان . وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الاداة والفرح والحزن عن ادراك المؤلم او الملتذ به والنشاط عن الحمام والكسل عن الاعياء . وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لابد وان ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة . وتلك الحالة اما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاما للمريد . واما أن لا تكون عبادة وانما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن او سرور او نشاط او كسل او غير ذلك من المقامات . ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام حتى ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة . قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا اله إلا الله دخل الجنة .

« فالمريد لابد له من الترقي في هذه الاطوار وأصلها كلها الطاعة والاخلاص ويتقدمها الايمان ويصاحبها وتنشأ عنها الاحوال والصفات نتائج وثمرات . ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى إلى مقام التوحيد والعرفان . واذا وقع تقصير في النتيجة أو خلل فعلم أنه انما أتي من قبل التقصير في الذي قبله . وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية . فلهذا يحتاج المريد الى محاسبة نفسه في سائر اعماله . وينظر في حقائقها . لان حصول النتائج من الاعمال ضروري . وقصورها من الخلل فيها كذلك . والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه . ولا يشاركهم في ذلك إلّا القليل من الناس . لان الغفلة عن هذا كأنها شاملة . وغاية أهل العبادات اذا لم ينتهوا الى هذا النوع أنهم يأتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه في الاجزاء والامتثال . وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالاذواق والمواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير او لا

***

« فظهر ان اصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الافعال والتروك . والكلام في هذه الاذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاما ويترقى منها إلى غيرها . ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في الفاظ تدور بينهم . اذ الاوضاع اللغوية انما هي للمعاني المتعارفة . فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف أصطلحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه . فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من اهل الشريعة الكلام فيه . وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص بالفقهاء واهل الفتيا وهي الاحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات . وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الاذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقي منها من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك . فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم . فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الاخذ والترك كما فعل القشيري في كتاب الرسالة . والسهروردي في كتاب عوارف المعارف . وجمع الغزالي رحمه الله بين الامرين في كتاب الاحياء فدون فيه احكام الورع والاقتداء . ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم »

« وصار علم التصوف في الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط . وكانت أحكامها تتلقى من صدور الرجال . كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والاصول وغير ذلك »

« ثم ان هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالبا كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من امر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها . والروح من تلك العوالم . وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت احوال الحس وقويت احوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه . وأعان على ذلك الذكر فإنه كالغذاء لتنمية الروح . ولا يزال في نمو وتزايد إلى أن يصير شهودا بعد أن كان علما . ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الادراك . فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الالهي . وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها من الافق الاعلى أفق الملائكة . وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لاهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم . وكذلك يدركون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها . ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع إرادتهم . فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه . بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة ويتعوذون منه إذا هاجمهم . وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ . لكنهم لم يقع لهم بها عناية وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كثير منها . وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقتهم من بعدهم »

« ثم ان قوما من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والمدارك التي وراءه واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرش الى الطش هكذا قال الغزالي رحمه الله في كتاب الاحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة »

« ثم ان هذا الكشف لا يكون صحيحا كاملا عندهم إلّا إذا كان ناشئا عن الاستقامة . لان الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة وان لم يكن هناك استقامة كالسحرة والنصارى وغيرهم من المرتاضين . وليس مرادنا إلّا الكشف الناشيء عن الاستقامة . ومثاله أن المرآة الصقيلة اذا كانت محدبة أو مقعرة وحوذي بها جهة المرئي فانه يتشكل فيه معوجا على غير صورته . وان كانت مسطحة تشكل فيها المرئي صحيحا . فالاستقامة للنفس كالانبساط للمرآة فيما ينطبع فيها من الاحوال ولما عنى المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلموا في حقائق الموجودات

العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي وامثال ذلك . وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك »

هذا ما قاله العلامة ابن خلدون في خبر نشأة التصوف . وأنت ترى كيف قسم الصوفية إلى ثلاث طبقات . طبقة عمل باخلاص ووصول تام . وطبقة علم وعمل ووصول تام . وطبقة علم وعمل ومنها الواصل والمنقطع . فالطبقة الاولى طبقة الصحابة والتابعين رضي الله عنهم . والطبقة الثانية طبقة تابعيهم باحسان . والطبقة الثالثة طبقة الاقوام الذين تكلموا عند عقبة المشاهدات والمكاشفات

ومع تقسيمه هذا فإنه رحمه الله تعالى قد أثبت النقط الآتية

أولا — أن طريق الصوفية طريق ملية إسلامية عليها كان سير السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم

ثانيا — أن أصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها . والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال . وأن ذلك كان عاما في الصحابة والسلف

ثالثا — أن أصل الترقي في هذه الطريق الطاعة والاخلاص ويتقدمها الايمان ويصاحبها . وتنشأ عنها الاحوال والصفات تتائج وثمرات . ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى إلى مقام التوحيد والعرفان

فهذه النقط الثلاث التي هي حقيقة التصوف لو طبقناها على ذاتية الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن والسنة كما سبق معنا لوجدنا الحقيقة واحدة لا تضارب بينها ولا تعدد فيها . وانما وقع التعدد والانقسام بميل الجمهور إلى متاع الدنيا . فظهرت مكائد النفوس تعمل باجتهاد لتحويل الدين عن غايته ، ولتسويغ هذا الميل صادف علماء السوء من عقولهم قوة على تحويل أدلة الدين ونصوصه لجانبهم تحبيذا للتلذذ بالفاني والتمتع بالراحة عن القيام للنظر في الاهوال الاتية بعد الموت . والاستعداد للمعاد . ولهذا قرر العلامة ابن خلدون أيضا كما ترى أن الصوفية في محاسبتهم لانفسهم « لم يشاركهم في ذلك إلا القليل من الناس لان الغفلة عن هذا كانت شاملة » . وقال ايضا « وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك » . فمن هذا القصور نشأ الانكار من الاغمار على الصوفية . وصار النظر إليهم ممن حولهم نظر الارتياب والظن . حتى صار العمل ضدهم بهذا الداعي السيء دأب الذين استحبوا متاع الدنيا أو فهموا الدين بالفهم السياسي والملكي والدنيوي لا بالفهم الاخروي والمعادي . وصادف هذا النظر الارتيابي الظني حدوث الطبقة المتصوفة المتكلمة في الكشوفات الكونية .

اما الكلام في دقائق التصوف

« فليس ببدعة بإطلاق . ولا هو مما صح بالدليل بإطلاق بل الامر ينقسم »
هكذا افتتح العلامة ابو إسحق الشاطبي بحثه في التصوف وهل هو بدعة أم لا . ثم أفاض في البحث فقال

« ولفظ الصوف لابد من شرحه أولا حتى يقع الحكم على أمر مفهوم لانه أمر مجمل عند هؤلاء المتأخرين . فلنرجع إلى ما قال فيه المتقدمون

« وحاصل ما يرجع فيه لفظ التصوف عندهم معنيان . أحدهما التخلق بكل خلق سني . والتجرد عن كل خلق دني . والآخر أنه الفناء عن نفسه . والبقاء لربه . وهما في التحقيق الى معنى واحد . لا ان أحدهما يصلح التعبير به عن البداية والاخر يصلح التعبير به عن النهاية . وكلاهما انصاف . لا ان الاول لا يلزمه الحال . والثاني يلزمه الحال . وقد يعبر فيهما بلفظ آخر فيكون الاول عملا تكليفيا والثاني نتيجته . ويكون الاول اتصاف الظاهر والثاني اتصاف الباطن ومجموعهما هو التصوف

« واذا ثبت هذا فالتصوف بالمعنى الاول لا بدعة في الكلام فيه . لانه انما يرجع الى تفقه ينبني عليه العمل . وتفصيل آفاته وعوارضه . وأوجه تلافي الفساد الواقع فيه بالاصلاح . وهو فقه صحيح . وأصوله في الكتاب والسنة ظاهرة . فلا يقال في مثله بدعة . إلا اذا أطلق على فروع الفقه التي لم يلف مثلها في السلف الصالح انها بدعة . كفروع ابواب السلم والاجارات والجراح ومسائل السهو والرجوع عن الشهادات وبيوع الآجال وما أشبه ذلك

« وليس من شأن العلماء اطلاق لفظ البدعة على الفروع المستنبطة التي لم تكن فيما سلف وان دقت مسائلها . فكذلك لا يطلق على دقائق فروع الاخلاق الظاهرة والباطنة انها بدعة لان الجميع يرجع الى أصول شرعية

« وأما بالمعنى الثاني فهو على أضرب . احدها يرجع الى العوارض الطارئة على السالكين اذا دخل عليهم نور التوحيد الوجداني فيتكلم فيها بحسب الوقت والحال . وما يحتاج اليه في النازلة الخاصة رجوعا الى الشيخ المربي وما بين له في تحقيق مناطها بفراسته الصادقة في السالك بحسبه وبحسب العارض . فيداويه بما يليق به من الوظائف الشرعية والاذكار الشرعية . او باصلاح مقصده

ان عرض فيه العارض . فقلما يطرأ العامل بل العارض إلّا عند الاخلال ببعض الاصول الشرعية التي بني عليها في بدايته . فقد قالوا انما حرموا الوصول بتضييعهم الاصول

« فمثل هذا لا بدعة فيه لرجوعه الى أصل شرعي . ففي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم جاءه ناس من اصحابه رضي الله عنهم فقالوا يارسول الله انا نجد في انفسنا الشيء يعظم ان نتكلم به - او الكلام به - ما نحب لنا وانا تكلمنا به . قال أو قد وجدتموه . قالوا نعم . قال ذلك صريح في الايمان . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ان احدنا يجد في نفسه يعرض بالشيء لان يكون حمة أحب اليه من ان يتكلم به . قال الله اكبر الله اكبر الله اكبر الحمد لله الذي رد كيده الى الوسوسة . وفي حديث آخر . من وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله . وعن ابن عباس رضي الله عنهما في مثله اذا وجدت شيئا من ذلك فقل هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم. الى أشباه ذلك . وهو صحيح مليح

« والثاني يرجع الى النظر في الكرامات وخوارق العادات وما يتعلق بها مما هو خارق في الحقيقة او غير خارق . وما هو منها يرجع الى امر نفسي او شيطاني او ما أشبه ذلك من احكامها . فهذا النظر ليس ببدعة كما انه ليس ببدعة النظر في المعجزات وشروطها والفرق بين النبي والمتنبي . وهو من علم الاصول فحكمه حكمه

« والضرب الثالث ما يرجع الى النظر في مدركات النفوس من العالم الغائب واحكام التجريد النفسي والعلوم المتعلقة بعالم الارواح وذوات الملائكة والشياطين والنفوس الانسانية والحيوانية وما أشبه ذلك ، وهو بلا شك بدعة مذمومة ان وقع النظر فيه والكلام عليه بقصد جعله علما ينظر فيه وفنا يشتغل بتحصيله بتعلم او رياضة . فإنه لم يعهد مثله في السلف الصالح . وهو في الحقيقة نظر فلسفي انما يشتغل باستجلابه والرياضة لاستفادته اهل الفلسفة الخارجون عن السنة المعدودون في الفرق الضالة . فلا يكون الكلام فيه مباحا . فضلا عن ان يكون مندوبا اليه

« نعم قد يعرض للسالك فيتكلم فيه مع المربي حتى يخرجه عن طريقه ويبعد بينه وبين فريقه . لما فيه من إمالة مقصد السالك الى ان يعبد الله على حرف . زيادة الى الخروج عن الطريق المستقيم بتتبعه والالتفات اليه . اذ الطريق مبني على الاخلاص التام بالتوجه الصادق . وتجريد التوحيد عن الالتفات إلى الاغيار . وفتح باب الكلام في هذا الضرب مضاد لذلك كله

« والضرب الرابع يرجع إلى النظر في حقيقة الفناء من حيث الدخول فيه والاتصاف بأوصافه . وقطع اطماع النفس عن كل جهة توصل إلى غير المطلوب . وان دقت . فإن أهواء النفوس تدق وتسري مع السالك في المقامات . فلا يقطعها إلّا من حسم مادتها وبت طلاقها . وهو باب الفناء المذكور »

« وهذا نوع من أنواع الفقه المتعلق بأهواء النفوس . ولا يعد من البدع لدخوله تحت جنس الفقه . لانه وان دق راجع الى ما جل من الفقه . ودقته وجلته اضافيان . والحقيقة واحدة »

⁂

فتأمل كيف أن العلامة الشاطبي رحمه الله تعالى بغاية ما يكون من الانصاف والاهتمام قد حقق أصول التصوف ودقق مواده . وأثبت ان علمه في ذاته فقه « أصوله في الكتاب والسنة ظاهرة فلا يقال في مثله بدعة » . وان النتائج من مخض هذا العلم بالعمل هو « نور التوحيد الوجداني » . والعوارض التي تعرض في هذا الاثناء للمريد مرجعها الى الشيخ المربي « فيداويه بما يليق به من من الوظائف الشرعية والاذكار الشرعية » . وأثبت ايضا ان النظر في الكرامات وخوارق العادات ليس ببدعة « وهو من علم الاصول فحكمه حكمه » . وان النظر في « مدركات النفوس من العالم الغائب واحكام التجريد النفسي » هو المذموم شرعا ان جعل علما ينظر فيه لخاصيته . وليس عرضه للنجاة منه بمذموم « اذ الطريق مبني على الاخلاص التام بالتوجه الصادق » . فالحاصل آنئذ من هذه الاضرب الثلاثة

أولا — كون التصوف فقه أصوله في الكتاب والسنة ظاهرة .

ثانيا — كون الاحوال الوجدانية الناشئة عن العمل به ترجع الى أصل شرعي فليست ببدعة

ثالثا — كون النظر في الكرامات وحقيقة فناء النفس فقه دقيق ولا بدعة فيه

فأين إذا زعم غلاة ذري الانكار والانتقاد بأن أصل التصوف دخيل في الاسلام من وثنية الهنود والمجوس ؟ . وأين زعمهم ايضا بأن أصله سياسي الهدف منه تفريق كلمة الاسلامية وتحكيم سيف الخلاف والتفرقة في رقابها بسعي الاجانب عنها ؟ . ونحن مع هذا لم ننقل إلّا مقال رجلين (ابن خلدون والشاطبي) ليسا من الصوفية في العير ولا في النفير بل حكما على التصوف حكما يوافق مبلغهما من العلم وما ذهبا اليه من نقد العالم الاسلامي نقدا دينيا سياسيا لا محاباة فيه . وحسبنا أنهما قد أثبتا صحة الاصل فعلى سبيلهما قد نتفرغ لاثبات صحة ما سلم من الفروع . والى الله تصير الامور

نظرة إجمالية

﴿ في تطورات الصوفية ﴾

فالعلامتان المؤرخ المدقق (ابن خلدون) والاصولي المحقق (الشاطبي) قد أثبتا حصول التحول والتغير في التصوف من عقبة المشاهدة والمكاشفة . فإن وقوف الصوفي بها والتفاته إلى ما يراه فيها قد يؤديه إلى الاطمئنان بما عنده . و يبقى طاويا ضلوعه على رعونات وأكدار معنوية تحرمه الزيادة في اختراق الافاق السلوكية . وهذه النقطة هي التي انفق الواصلون من الصوفية على تحقيقها . والتحذير منها . والانكار على من وقف بها موقف القناعة والاطمئنان . ونحن نقول ان هذا الدور هو الذي حدا بكثير من الشيوخ الى تضييق دوائر إراداتهم على مريديهم والزامهم ما لا يلزم شرعا من التبتل والصوم وتشديد المجاهدة مع الخلوة والعزلة الى أن تلوح لهم معالم الوصول الى الطهارة النهائية من رعونات الطبيعة وأكدارها . ولهذا ايضا شدد الصوفية في حقيقة الشيخ المربي وأهليته للتربية خوفا من الوقوع في اصحاب الادعاء والزعامة الفاسدة . ولكن ما أراده الله واقع . ليس له من دافع . فان حالة الصوفية عند هذا الدور وهو دور الاندماج والاختلاط بقيت فرضى لا اندماج لاجنبي عنهم فيهم . وظهور أهل المشاهدة والمكاشفة من غير أن يبلغوا حد الفطام الروحاني . ولم يقفوا عند هذا الحد من ظهورهم بالدعوى فقط بل و باشروا التربية وأسسوا الزوايا وجلسوا في منصات الشيوخ المفتوح عليهم وأسند الامر الى غير أهله في غير موطن تبعا لسنة الله في تغيير أمر الامة

ولقد ظهر رجال في هذا الدور الاندماجي اشتهروا بالاصلاح التام . وتواترت عنهم الاخبار الصحيحة بالمكاشفة والمشاهدة كمولانا عبد القادر الجيلاني والشيخ الاكبر محي الدين بن العربي الحاتمي رضي الله عنهما وأضرابهما فلا يحسبن القارئ في البيان السابق أن هؤلاء من ضمن أولئك . كلا بل هؤلاء شيوخ وصلوا وارتفع عنهم الحجر الموضوع على أولئك . وما تكلموا في المشاهدة والمكاشفة إلا ليفضحوا الكاذبين من المتظاهرين بالدعوى . حتى يكون الكشف في اشتهاره عن شخص مؤيدا بعدالته التامة و وصوله المحض . فالمشتهرون بالولاية والصلاح الذين ترجم لهم الشعراني رحمه الله تعالى في طبقاته وان كان جلهم أرباب كشف وأذواق فالذائع عنهم التمسك بالكتاب والسنة . وتصريحاتهم الغيبية وما ظهر عنهم من الكرامات ليست إلا مظاهر من اللدنيات الالهية جرت على أيديهم

وهم لا يدرون لها قصدا . بل الله سبحانه وتعالى اراد بها إقامة الحجة على غوغاء المنكرين أولا وعلى دعاة الولاية كذبا ثانيا . ومن يراجع تآليف الامام عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه يجد التحقيقات الصحيحة عن المتمشيخين في عصره وما كانوا يموهون به على العامة من فتح الزوايا ودعوى التربية والتسليك وكيف ان الشيوخ الحقيقيين اضطروا لقاء هذه الفوضى التمويهية إلى إقفال زواياهم والاخلاد الى الخمول والتستر . ومن جملة اقواله رحمه الله في هذا السبيل

« ولعمري ان الفلاحين واهل الصنائع احسن حالا واقرب الى الله من هؤلاء المدعين لانهم طول عمرهم في اعمال شاقة في نفع الخلق وهؤلاء المدعون طول عمرهم ساعون لاضرار الخلق لانهم يقصدون بخلوتهم و رياضتهم وذكرهم في بعض الاوقات التمهد على الخلق والتمهيد لطريقهم التي يطلبون انهم يكونون داعين اليها فيجوع احدهم جوعا مفرطا حتى ينحرف مزاجه فيرى شموسا ونجوما من شدة الجوع فيظنون ان ذلك من علامة الطريق وانه من رأى ذلك سالك الى الله تعالى وهذا كله خبط في ظلام . وما أمر الخلق إلّا بتعليم الآداب المتعلقة بمعاملة الله تعالى ومعاملة خلقه لا بأن ينظروا جبالا وأودية وشموسا واقمارا بتوهمات يتخيلها المزاج عند انحرافه ، ولعمري اذا فرضنا ان احدهم اذا رأى من منتهى العرش الى منتهى التخوم واحاط علما بجميع ما بينهما هل ذلك يقرب الى الله تعالى وهل يستحق عليه جزاء من الجنة وغيرها » . الى ان قال « وقد كثر في هذا الزمان الخبيث التصدر لباب السلوك من القاصرين لقلة من يناقشهم لان الاولياء استتروا لعظم ما يشاهدونه من البلاء » (١)

فأنت ترى من كلام هذا الصوفي الكبير مصداق ما نقلته من كلام ابن خلدون والشاطبي آنفا وتبين من الحاصل الحد الفاصل بين الدورين دور التربية بالمجاهدة ودور التربية بالهمة والكمال

فمن هذا الدور المختلط حيث انقرضت التربية بالمجاهدة الرسمية وانقطع السر الامدادي عن الزوايا المختلقة ظهر المدد من جهة أخرى للشيوخ الكاملين في ربط الاسباب والاسانيد بحضرة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بواسطة الشيوخ السلفيين السالفين . وجعل هذه الاسباب مقيدة باوراد معلومة من ذكر الله تعالى في اوقات معينة في القرآن « بالعشي والابكار » مرتبطة مفهومة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح . وانقلبت بهذا النظام التربية من المجاهدة وحمل النفس على المشاق الى التربية البسيطة بالهمة والكمال ، ومقتضاها الاقتداء بشيخ معلوم بالوصول وسعة الامداد في ملازمة ذكر اوراده والسير على اثره تدينا وتعبدا وتعلقا . ليكون

(١) من موازين القاصرين للشعراني

هذا السير وسيلة الى التعرف بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم تعرفا روحانيا . بما أنه صاحب أصل هذه التربية والمهيمن على ما اقتضته شريعته فيها من المفاز والمنال دنيا وأخرى

وقد كانت أسانيد هذه التربية الطرقية متصلة فى الغالب بفحول السلف الصالح حتى امام الطائفة الامام الجنيد كالطريقة الخلوتية . ألا ان اختلاف كيفيات الاذكار ومقامات الرجال الذين يقع لهم الفتح والتعرف بالحضرة النبوية بها قد جعل من المألوف تقسيم الطائفة الى طرق كل طريقة تنسب الى أحد القطاحل والائمة الكمل الذين منحهم حظهم من فضل الله مباشرة الجناب المحمدي يقظة وتلقي البشائر والمعارف اللدنية من حضرته . حيث يأمرهم صلى الله عليه وسلم بارشاد من اراد الله ارشاده من الناس وتقييدهم بنظام الشريعة وتسييرهم على منهاج الكتاب والسنة والزامهم ذكر الله فى اوقات معلومة إلزاما لا يقع منه للنفوس سآمة ولا ضجر كالاوراد الصباحية والمسائية وهو عين ما ذكره الشاطبى فى الاعتصام « فيداوبه بما يليق به من الوظائف الشرعية والاذكار الشرعية »

فلو بحث المنصف بامعان فى حقيقة هذا النظام الجديد فى التربية لوجده نظاما أعاد للامة الاسلامية لو عرفت قدره سارت على منهاجه من غير ان تبدل او تغير الى العهد الاول عهد الصحابة والتابعين . من الاستمداد من الحضرة النبوية واخلاقها بواسطة التوجه فى اوقات الاوراد المعلومة الى حضرة التوحيد . وتقييد هذا التوجه بالسير على نظام الشريعة علما وعملا . والتعهد على سنة من وصل ارتباطا بصحة السند. وتقريبا للمدد . لا توسيطا دون القريب المجيب . بل تعريفا للنفس خصال صالح العمل . من سير صالحي الامر الاول

مقاصد الفروع نحو الوصول

بعد انقراض أمد التربية بالمجاهدة والخلوة وظهور الابتداع في انتحال ألقاب الوصول والتكالب على الادعاء الباطل كان لا يزال أسانيد السلوك على الطريقة الصحيحة التي لا ابتداع فيها مستحكمة الاسباب عند أربابها المتترسين دون الدعوى بعلومهم وعملهم بما يعلمون . ولكنهم كما ذكرنا في النظرة الاجمالية انسحبوا عن الخلوات وأقفلوا أبوابها . وصاروا يداوون من يقصدهم بتلقينه الاوراد والاذكار التي لهم فيها الاسانيد الصحيحة . ويفوضون إلى قوة يقينه مداومة العمل بذلك لتحصيل النتيجة المطلوبة من غير أن يضيقوا عليه لا بخلوة ولا بعزلة ولا بمجاهدة . وانما يشترطون عليه صدق العزيمة والعمل بالشريعة قلبا وقالبا . وكان من هذا الاصل فروع أشهرها الطريقة الخلوتية والقادرية والشاذلية ، وكل فرع من هذه الفروع نجمت عنه فروع أخرى أيضا . فالخلوتية متصلة السند بسيد القوم الامام الجنيد . والقادرية متصلة السند بسلطان الاولياء في عصره مولانا عبد القادر الجيلاني . والشاذلية متصلة السند بأبي الحسن الشاذلي رضي الله عن جميعهم

والسبب في تكون هذه الفروع الجزئية عن هذه الفروع الرئيسية هو أن كل مريد يحصل له الوصول المعبر عنه بالفتح بالاوراد الاصلية والعمل بإخلاص في ترقية نفسه ويباشر « حضرة التوحيد والعرفان » كما قال ابن خلدون رحمه الله ينال رتبة التحصيل . فلما يتصدى للارشاد والتلقين عن أهلية واستحقاق بالاوراد الاصلية التي تم له بها زيادة عن العمل بالشريعة ودقائق فقهها الوصول ، يسري في مريديه الآخذين عنه القول بالانتساب إليه . فبعد أن تكون طريقته مثلا « خلوتية » في الاصل يصبح لاصطلاح عليها « رحمانية » (١) او « عزوزية »(٢) نسبة لمن اشتهر فيها بالوصول والكمال . ولهذا حصل في سائر الطرق التفرع والانقسام . وسرى مع غالب فروعها بهذا الانقسام داء الخلل والابتداع بوجود منتحلي الدعوى الكاذبة في التلقين كما سرى في أصولها الكبرى المذكورة

---

(١) نسبة الى سيدي محمد بن عبد الرحمن الازهري رحمه الله تعالى (٢) نسبة الى تلميذه الشيخ ابن عزوز رحمه الله تعالى

آنفا . ولا ريب أن الانتفاع في فروع الابتداع من غير اذن صحيح يوافق مرتبة المنتحل من الايمان والعلم والعمل والعرفان ممنوع . وحبل الوصول به مقطوع فالمقصد الاول من الطرق الفرعية تسيير المريد على منهاج الشريعة وإرشاده باستعمال فقهها . وجعل الاذكار سياجا على دوام هذا الاستعمال . والتوجه به نحو وجهة الاخلاق الحسنة التي يتصورها في المقتدى به تلقينا وإمدادا لينسج على منواله في سيره حتى يصل الى « مقام التوحيد والعرفان » الذي لا يصل إليه أي مسلم بمجرد الاسلام ولكن كل مؤمن عمل باخلاص على ترقية إيمانه من غير فتور . وما يسهل الاخلاص بدعوى المريد فحسب . ولكن بتحققه عند من سلك مسالكه وعانى اوعاره ومهالكه

والمقصد الثاني ايضا ربط نورانية إيمان المريد برباط المراقبة . وما يستطيع الانسان أن يراقب نفسه أمام حدود الله بضعفه لانه عليها رؤوف . فمراقبة غيره عليه في سيره أقرب نفوذا لانتاج ثمرة الاستقامة . وما يستطيع من أول خطوة أن يتصور الله عليه رقيبا كما قد يتبادر الى ذهن كثير من أرباب المزاعم الباطلة بل ان هذا التصور الصحيح هو أحد اقسام « التوحيد والعرفان » المرغوب فيها من هذا السير . ولو كان هذا المرغوب متيسرا لما مال القوم الى مجاهدة . وقد اكتفوا عن هذه المراقبة التي كانت في الاصل شخصية فعلية بالمدد الروحاني الذي يتصوره المريد في ذاتية شيخ طريقته الكامل . أي بالاخلاق الحسنة التي يراعيها ويرى في الحياد عنها نقصان إيمانه . فصار بهذه المثابة كأنه يراقب نفسه بعيون سره ليجعل الاستقامة ديدنه ودأبه . وهذه احدى المسائل التي أرجعت للامة الاسلامية كما قلنا الى عهد الصحابة والتابعين . أي مراقبة النفس في إيمانها بمرآة المقتدى بهم علما وعملا . ولكن الامة لم تنتبه فاغتبرت ذلك غرورا . وأرباب الشأن زاغوا عنه ليقضي الله امرا كان مفعولا

المقصد الثالث جعل المحبة السارية من المريد الى شيخه ولو بوسائط مادة هذه المراقبة . وقبلة هذا الاقتداء . وكذلك المحبة السارية من الشيخ الى المريد ولو كان الشيخ من الاموات فإن الارواح لها روابط مع بعضها يوضحها كل يوم انسلاخ ما كان منها مقيدا بقيود المادة عن قيوده . وكان من المؤكد ان تكون هذه المحبة متوثقة العرى بإخلاص تام لا يكدره غرض من الاغراض . لقوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان أن يكون الله « ورسوله أحب إليه مما سواهما . وان يحب المرء لا يحبه إلا لله . وأن يحب « المرء لا يحبه إلا لله . وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في « النار » . فمحبة المرء لوجه الله الكريم من موجبات وجود حلاوة الايمان . لاسيما ان كان هذا المرء من الذين يحبهم الله تعالى بنص الحديث القدسي « لا يزال

« عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذي « يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها « ولئن استعاذني لأعيذنه ولئن سألني لأعطينه » (١) . والشيوخ الكمل الذين أسسوا الطرق ذوات المقاصد الصحيحة ليسوا إلا من هذا الفريق الذين يحبهم الله بنص هذا الحديث الصحيح . وبقدر ما تكون محبة المريد نامية كذلك تنمو محبة الشيخ وجاذبيته لمريده نحو رتبته الخيرية . ولذا كانت مخالطة أهل الخير وأرباب النفع انتفاع ومخالطة خصومهم زيغ وخسران

المقصد الرابع البلوغ للتوبة النصوح . وهي واجبة شرعا بقوله تعالى « يا أيها « الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا » الآية (٢) . ولكن اخلاد الناس الى اهواء نفوسهم اصبح عاما . والغفلة خيمت على الخاصة والعامة . فلم يكن ثم من رابط للمريد بالتوبة النصوح أقوى وأمتن من توجهه نحو رتبة التوحيد الخالص والتقيد بطريق أحد المشائخ الصادقين . لان في التقيد إعانة تامة على حمل النفس ما لم ترد حمله بدون تقيد . ويؤيد ذلك حصول المدد الاخلاقي الاحساني الذي يبعث النشاط على ملازمة التوبة والانابة في قلب المريد ما دام صاحب وجهة واحدة شطر الحضرة الالهية بمفهوم ما يراد من الطريق الحقيقية . كما قال سهل التستري « أصولنا سبعة أشياء . التمسك بكتاب الله . والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأكل الحلال . وكف الاذى . واجتناب الآثام والتوبة . وأداء الحقوق . وقال قد أيس الخلق من هذه الخصال الثلاث ملازمة التوبة ومتابعة السنة وترك أذى الخلق »

المقصد الخامس ملازمة ذكر الله تعالى الفاضية بسعادة الدارين وورود الرحمة على الذاكر حسبما قال تعالى « فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » (٣) وذكر الله للعبد إفاضة رحمته وعفوه وفضله عليه . وهو سبحانه وتعالى جليس من ذكره كما في الحديث القدسي « أنا جليس من ذكرني » . ولا اعتبار بالذكر اللساني ما دام الفؤاد صامتا . وما الحركة اللسانية في الذكر إلا وسيلة لحركة القلب الدائمة . فإذا انفكت قيود الصمت والغفلة عن الفؤاد وتحرر من ربقة الجمود فذكره فاتحة السلام . وفيه يضع الله تعالى أمانته السرية ويجعله مهبط الانوار . وكعبة الاسرار . وما دام يذكر فعمله في الجوارح عمل حسن . وتأثيره مؤد الى محق النسب والاغيار عن الحواس فتصبح مصغية اليه . مستأنسة بإرشاداته وخيره . ولا يتيسر الذكر الدائم بحرية للانسان لان من طبع النفس النفور عن الذكر والرغبة في اللهو والاستئناس بالغفلة . فكان من اللائق تقييدها بنظام لا يحصل لها منه

(١) راجع الصفحة ٧٥ (٢) سورة التحريم (٣) سورة البقرة

اشمئزاز ولا نفور . وهو نظام الاوراد الصباحية والمسائية مع الدوام من غير افراط ولا تفريط . ولذا قال أبو القاسم النصراباذي « أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة . وترك البدع والاهواء . وتعظيم حرمات المشائخ . ورؤية اعذار الخلق . والمداومة على الاوراد . وترك ارتكاب الرخص والتأويلات »

المقصد السادس التقرب إلى الحضرة الالهية بكل ما في وسع النفس من همة ومحبة واحساس. وقد يتبادر الى اذهان القاصرين في العلم أن العمل بالفرائض المفروضة في الدين كاف للحصول على القرب المطلوب من جناب الحق تعالى والصواب أن العمل بالواجبات الدينية إذا أقيم معه العمل بالحدود الشرعية في اجتناب المحرمات مقيم لحقيقة الايمان فقط لا مقيمها في حضرة القرب المحض . وبين حقيقة الايمان وحضرة القرب درجات ومقامات لا تنال إلّا بتنمية الايمان بوسائل التنمية وما يزيد عن الواجبات من النوافل التعبدية والاخلاقية كما في صريح الحديث القدسي « لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » الخ الحديث . فالنوافل هي العاملة مع الدوام على تنمية الايمان بالسرعة التي يقتضيها الحديث القدسي الآخر الذي رواه الامام البخاري في صحيحه ونصه « حدثنا « عمر بن حفص حدثنا أبي حدثنا الاعمش سمعت أبا صالح عن أبي هريرة رضي « الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي « بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وان ذكرني « في ملإ ذكرته في ملإ خير منه وان تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا وان « تقرب إلي ذراعا تقربت اليه باعا وان أتاني يمشي أتيته هرولة » . فمعنى التقرب من العبد في هذا الحديث التنقل في المقامات بالعمل الصالح والايمان المتزايد ومزاولة النوافل لاسيما نوافل الذكر القلبي واللساني والله في مقابلة ذلك يطوي للعبد مراحل سعيه نحوه بمضاعفة الاعمال والاعانة على تحقيق الآمال

المقصد السابع الشكر . وهو العمل في الدين والطريق بإخلاص . بقصد شكر المنعم تعالى لا لغرض من الاغراض الدنيوية او الاخروية دقت او جلت

هذه هي المقاصد الرئيسية التي بنيت عليها الطرق وفروعها . وانما الصريح في الابتداع والخذلان من المتعلقين بالطرق الغاؤهم لهذه المقاصد واندماجهم في الانتساب لغايات وأغراض مذمومة كالطمع في الضمان بادئ بدء من عذاب الله ومحو الذنوب دون توبة صحيحة وكفى بذلك خسرانا مبينا . أما نحن فهذه مقاصدنا في الطريقة التجانية بما أنها مقاصد الامام والقدوة التجاني رضي الله عنه حسبما يؤخذ من أقواله وأفعاله . وهي لا جرم مقاصد الصوفية الواصلين . فإن كان هنالك أشخاص تجانيون ظاهرا وهم تباع اغراض فانية او باقية فالعهدة على أشخاصهم في ما ابتدعوا لا على الطريق وكفى بأن الله بصير بالعباد

الطرق والحدود بين الشريعة والابتداع

بعد أن فهمنا أصول علم التصوف التي لا مراء في صحتها وانها مع ما فيها من التربية والمجاهدة من أصول فقه الشريعة المطهرة . وعرفنا كيف دخل الابتداع بعد انقراض زمن السلف الصالح عند تصدر المشائخ الكاذبين للتربية و وقوف من وقف عند دور المكاشفة والمشاهدة واصطياد الخواطر العاجلة . وتبين لنا تكون الطرق الموجودة الآن وفروعها ومقاصد الفروع بعد الاصول نحو الوصول . آن لنا أن نحشر في هذا المبحث النقط والخطوط الهامة التي تعين لنا الحدود بين الشريعة والابتداع في طرق الصوفية المنتشرة بين المسلمين في العصر الحاضر . ونوضح ذلك بأقوال واعمال مشائخها الكاملين المؤسسين لها المستندة على أصول الكتاب والسنة . فنضيف ما هو من الشريعة للشريعة وما هو من ابتداع الاشخاص للاشخاص فنعرف بذلك الحد الفاصل بين الصوفي المنقطع والصوفي الواصل . فنقول مستمدين من المولى تعالى المعونة والتوفيق

١ — المشيخة والتقديم

المشيخة منصب جليل كمنصب الطبيب النطاسي الخبير . هذا يعالج الابدان وذاك يعالج الارواح والنفوس . والشيخ لا يكون شيخا حتى تخمد نار بشريته ويصرح محفوظا في سره وعلانيته من أن ينخدع لهوى من اهواء نفسه . وهو لا يعرف هذا من نفسه حتى يصل الى « مقام التوحيد والعرفان » . ويستوي ايمانه في مقعد صدق . ويقطع مفازات حفت بالوساوس والشبهات لاسيما في دور المكاشفة والمشاهدة حيث يبارزه الشيطان بدكائده ليصده عن قصده الاسمى . فإذا تم له التخلص من كل هذه المهالك الاخلاقية على يد مرب راسخ القدم في

فن التربية الصحيحة . وحصل له الوصول المعبر عنه بالفتح . أي بمباشرة روحانية حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم . يصبح مباشرا احدى الطريقين . اما ان يكون مأذونا في خاصة نفسه في اورادة الخاصة . واما مأذونا بارشاد الخلق وتلقينهم اورادا عامة او خاصة . وقد مضى كثير من السادة الكمل على نسق الاستقلال والتخصيص فلم يتركوا طريقا . وخلف غيرهم طرقا مشتملة على اوراد واذكار وارشادات في الدين لا تخرج عن نظام الكتاب والسنة . وانما تشوهت لطول العهد بحدوث من أضاف اليها بجهله إضافات سيئة اخرجتها عن نظام الكتاب والسنة وإرشادات مؤسسيها . وهؤلاء المضيفون المبتدعون هم مشائخ ايضا تربعوا في تخوت الارشاد دون ان تخمد بشريتهم . فحسنوا ما تحسن لهم نفوسهم . وكدوثهم اسباب لا تنحصر . وأشهرها انه بعد وفاة الشيخ الكامل يجتمع مريدوه فيقيمون اقربهم اليه رتبة مقامه فيتعاطى إدارة التلقين والتربية من غير اذن صحيح . ولا وصول تام . فيتسبب عن ذلك عدم الانتفاع بعمله وادارته . وتظهر البدع والتشبثات بما لا يليق دينا ومذهبا في استعمال الطريق فتنطمس الاسباب دون المقاصد الاصلية . ولهذا قال الامام ابو القاسم القشيري في رسالته « ومن آداب المريدين ان لا يتعرضوا للتصدر وان يكون لهم تلميذ او مريد « فإن المريد اذا صار مراداً قبل خمود بشريته وآفته فهو محجوب لا تنفع احدا « إشارته وتعليمه »

ولما كانت طرق المشائخ الكبار كمولانا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه بعيدة الامد قديمة العهد فقد حصل فيها التفرع والتعدد بقدر عدد المشائخ الذين بلغوا بواسطتها اوج الكمال . وما يقال فيها يقال في الخلوتية والشاذلية . وقد لا يخلو ان يخلف هؤلاء الاخيار رحمهم الله زعماء ناقصو تربية وتهذيب فحصل بسببهم الخلل في جل الفروع ان لم نقل في كلها . حيث انعدم الانتفاع ظاهرا و باطنا . وذهبت إسرار ومراسيم الاوراد التي نظمها الشيوخ الاولون فضلا عن ذهاب مراسيم الكتاب والسنة من اصولها

وما يقال في المشائخ المؤسسين وخلفائهم يقال في المقدمين (بفتح الدال) للتلقين . حيث انقرض في كثير من الطرق اسانيد الاذن الخاص وانقطعت سلاسل الاذن الصحيح . وذلك بإقامة المقدم بالانتخاب والاختيار لا باذن خاص ممن له الاذن تراعى فيه الاهلية وسلامة الطوية . وهناك آفة اخرى وهي كون المقدمين المأذونين في اجازة غيرهم صاروا لا يراعون معرفة المراد تقديمه ولا ادبه ولا تقواه ولا تمسكه بالكتاب والسنة ولا فقهه ومعرفته باصول الدين وسنن السالفين . بل غالبهم صار ينظر الى غناه وثروته ونسبه وشهرته . وينخدع لظاهره وشقشقة لسانه . فيعطونه الاذن في التلقين وربما اطلقوا له في تقديم غيره . فتنقطع من

هنا سلسلة السر النوراني في صحة الانتفاع بالاذن والذكر والعمل بفقه الشريعة للحصول على رتبة « التوحيد والعرفان » . ويصبح المريد المقتبس من هؤلاء الناس محاسن الاخلاق وخلال الدين تائها في بيداء الحيرة منكبا على اعمال محذوفة الاسرار معدومة النفع . ويصير هؤلاء القوم يعملون على إضافة ما تستحسنه عقولهم للطريق إضافة لا يعرفون لها مصادمة من الكتاب والسنة . ولقد قال شيخنا أبو العباس أحمد بن محمد التجاني رضي الله عنه في مثل هذا الفريق « ذكر أهل الكشف أمورا ان من فعل واحدة منها ولم يتب منها يموت على سوء « الخاتمة والعياذ بالله تعالى وهي دعوى الولاية بالكذب وادعاء المشيخة وهي التصدر « لاعطاء الورد من غير اذن » . وهذا الحد في توضيحه هنا منوط بعهدة الاشخاص ومراتبهم في الايمان والتقوى . فذو الاذن الصحيح مجبور طبعا على العمل بالشريعة مبتعد عن البدعة . لانه لم يتحصل على الاذن إلّا بعد أن نال حظا وافرا من فنون الآداب الصحيحة في معاملة الرب والعباد . وبنى طريقته على المقاصد السبع التي تقدمت . فتعيين اعمال الاشخاص الابتداعية واعمال الدين الصحيحة في مسلك الطريق راجع الى عدالتهم ومعرفتهم وتقواهم . وليس من السهل الاحراز على هذا التعيين بمجرد اخبار منقولة او بنظريات سطحية محصورة . بل المومن ينظر بنور إيمانه . ولكن أين الايمان الوقاد وقد اختلط الحابل بالنابل وعم البلاء والعياذ بالله بقلة ارباب الاذن الصحيح فقل الانتفاع . وشاع الابتداع . وانطمست المقاصد والاوضاع . في كافة الاقاليم والاصقاع . وبالرغم من الاحتراز المذكور . والتحذير الذي هو في كتب الطريقة مسطور . فإن في طريقتنا التجانية من ارباب الدعوى الكاذبة كثير بن قد نشروها بلا نور . بل بمحض الافتراء والزور . فهي عند الغالب مظهر ظلماني . ينبرأ منه الشيخ التجاني . ولبيان ذلك نختم المقال بنبذة من استدراك سيدي العربي بن السائح رحمه الله تعالى (١) في الحد بين المقدمين العامل بالابتداع . والعامل بالشريعة بلا نزاع . فقال رضي الله عنه بعد مقال « ومزيد التأكيد على نباهتكم في مراعاة الاهلية المعتبرة بوجوهها المقررة كلا « أو بعضا فيمن ترشحونه للتقديم والانتصاب لتلقين الاوراد والتثبت التام في « ذلك وعدم التساهل فيه بتمكينكم من عهد الله وعهد رسوله والكمل من اهل « الله تعالى من يشتري به ثمنا قليلا فإن وبال ذلك عظيم ومرتعه وخيم لما ينشأ « عنه من التلاعب بالدين وادخال الفتن في الطريق على عباد الله المومنين بما « يزلزل نياتهم ويفسد عليهم طوياتهم مع ما يدخله على الطريق من الاختلال « بتغيير رسومها وهدم قواعدها واخراجها عن نهج الحنيفية البيضاء وسنن الاعتدال

(١) وجهه الى سيدي علي بن عبد الرحمن مفتي وهران رحمه الله عام ١٢٩٣ هج

« فيسجل على المتساهل في ذلك بأنه ممن اتخذ دينه هزوا ولعبا وغرتهم الحياة
« الدنيا فيذوق عن قريب وبال أمره وتكون عاقبته خسرا لا محالة أعاذنا الله من
« بلائه . وعليه فعليك أيها الاخ بالتثبت التام والتحري في أمر التقدم بغاية
« جهدك ولا أقل من أن يكون المراد عندك بالتقديم مستور الحال منزه عن
« رذيلة الطمع والتشوف والتملق للرجال وان لا يكون متجاهرا بشيء مما يسقط
« العدالة لا يبالي بما هو عليه من سمات الخسة والنذالة . (الى ان قال) وان
« ظهر لك من قرائن احواله انه يريد ان يكون مخدوما لا خادما وأجرى مع
« ظهور أثر التشوف منه الى ما في أيدي اخوانه واجرى مع التظاهر بالدعوى
« الكاذبة واعتماد الخرافات الباطلة فلا يحل لك أن تغري عليه نفسه وهواه وتعين
« عليه شيطانه فامنعه ولو أدى منعك اياه الى انقطاعه عنك فإنه لا خير في رؤيته
« فضلا عن صحبته . (الى ان قال) وانما هذا التحرز وهذا التحفظ مما هو جائز
« الوقوع في الطريق من ظهور المتلاعبين الفتانين والدجاجلة الكذابين ليقضي
« الله امرا كان مفعولا فالامر للمقدمين بمراعاة الاهلية والتحفظ انما هو للتحرز من فتن
« الضالين الذين يضل بضلالهم خلق كثير لا أنه تحرز من انقطاع الطريق
« وانتساخها بعد ضمان النبي صلى الله عليه وسلم لها انها باقية ببقاء الدين
« المحمدي في الارض فافهم ذلك . وسأذكر لك امرا واحدا مما يتميز به حال
« هؤلاء الدجاجيل الكذابين عن غيرهم وهو أن كل من رأيته مؤثرا لذكر النوادر
« الغريبة من الكرامات الخارقة والاذكار الزائدة والاسرار العجيبة معتمدا في جل
« ما يذكره من ذلك على التجليات المرئية منوها بتلك الغرائب عوضا عن
« التنويه بالورد اللازم والاذكار اللازمة بلزومه مستغرقا في اللهج بذلك كلما
« جلس اليه أحد من الاخوان فاقطع عليه من غير تردد في امره بأنه ضال مضل
« فتان . وكل من رأيته لاهجا بذكر الورد اللازم والاذكار اللازمة بلزومه مستغرقا
« في التنويه به وبفضائله حاضا بغاية جهده على اقامته بالمحافظة على شروطه
« وأدائه بعد الحض على اقامة الصلوات المفروضة بإتقان شروطها ووسائلها والمحافظة
« على تتميم اركانها وأدائها وفضائلها مؤثرا لايقاعها على الوجه الشرعي المفسر في
« رسائل سيدنا رضي الله عنه ونصائحه متظاهرا بذلك بين الخاص والعام من
« الناس جاعلا حديثه كله في الكأس فاعلم أنه صادق في دعواه أخذ الله تعالى
« بيده فرقاه مكر الشيطان وشر نفسه وهواه »

∴

٢ ــ المكاشفة

قبل أن نخوض في بيان المحمود والمذموم من هذا المقام يجدر بنا أن نمهد له بما ذكره عنه ابن خلدون في مقدمته حيث قال في الكلام على حقيقة النبوءة

« واما المتصوفة فرياضتهم دينية وتحرية عن هذه المقاصد المذمومة وانما يقصدون جمع الهمة والاقبال على الله بالكلية ليحصل لهم اذواق اهل العرفان والتوحيد . ويزيدون في رياضتهم الى الجمع والجوع التغذية بالذكر فبها تتم وجهتهم في هذه الرياضة لانه اذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب الى العرفان بالله واذا عريت عن الذكر كانت شيطانية . وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة انما هو بالعرض ولا يكون مقصودا من اول الامر لانه اذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله وانما هي لقصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخسر بها صفقة فانها في الحقيقة شرك . قال بعضهم من آثار العرفان فقد قال بالثاني . فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا شيأ سواه . واذا حصل اثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يفر منه اذا عرض له ولا يحفل به وانما يريد الله لذاته لا لغيره . وحصول ذلك لهم معروف ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا . وما يقع لهم من التصرف كرامة . وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم ، وقد ذهب الى انكاره الاستاذ الاسفرايني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فرارا من التباس المعجزة بغيرها والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدي فهو كاف . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فيكم محدثين وان منهم عمر . وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر ياسارية الجبل . وهو سارية بن زنيم كان قائدا على بعض جيوش المسلمين بالعراق ايام الفتوحات وتورط مع المشركين في معترك وهم بالانهزام وكان بقرب جبل يتجهز اليه فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه ياسارية الجبل وسمعه سارية وهو بمكانه ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة . ووقع مثله ايضا لابي بكر في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنهما في شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديقته ثم نبهها على جذاذه لتحوزه عن الورثة فقال في سياق كلامه وانما هما أخواك وأختاك فقالت انما هي اسماء فمن الاخرى فقال ان ذا بطن بنت خارجة اراها جارية فكانت جارية وقع في الموطإ في باب ما لا يجوز من النحل

« ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين واهل الاقتداء الا ان اهل التصوف يقولون انه يقل في زمن النبوة اذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبيء حتى انهم يقولون ان المريد اذا جاء للمدينة المنورة يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الداية ويرشدنا الى الحق »

∴

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية (١) في رسائله الكبرى

« واما حجة اهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطبة فإن اهل الحق من هؤلاء لهم إلهامات صحيحة مطابقة كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال قد كان في الامم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر . وكان عمر يقول اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنها تجلى لهم أمور صادقة »

وقال ايضا في محل آخر من رسائله المذكورة

« ومن أصول اهل السنة التصديق بكرامات الاولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات . وكل المأثور عن سالف الامم في سورة الكهف وغيرها وعن صدر هذه الامة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الامة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة »

فالمكاشفة كما مر معنا في مبحثها (٢) وكما رأيت من كلام العلامة ابن خلدون حال ووجدان تتجرد فيهما الروح عن الطبع المادي لتلقي العرفان من عالم الغيب. وهي نوعان محمود ومذموم . ولا يحصل المحمود إلّا بالمرور على صراط المذموم . ولا يتم الكمال إلّا بالاعراض عن المذموم تماما وعدم قصد المحمود بتاتا . وأعلى المحمود مقاما مباشرة الذات المحمدية بالمشاهدة والمحادثة والاخذ والاستمداد . وتلقي العلوم والمعارف المختصة بما وراء المعاد والنشر من خصوصيات الباقيات الصالحات عند الله تعالى في حضرة قربه . وهذا المقام قد صار منزلا لكثير من كمل الرجال الذين برهنت استقامتهم على صدقهم واخلاصهم في الطلب . ومنه نشأت الطرق الصحيحة في التصوف من أصلية وفرعية . وأهمها الطرق الاستقلالية التي برزت من أحضان هذه الحضرة المحمدية مباشرة كالطريقة التجانية الصادرة بوشاحها المحمدي الخاص حتى ان شيخها الناشر لها نفسه لم ينسب إلى نفسه سوى التقديم والوساطة فيها بإعطاء الاذن نيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي الطريقة المحمدية قلبا وقالبا كما سنبين في غير هذا المحل

ونوع المكاشفة المذموم هو الاشتغال بحديث ما وراء المادة كما ذكر ابن خلدون والشاطبي من ملازمة الافتتان بتركيب أرواح العوالم كالسماوات والارضين والنجوم والافلاك والكرسي والعرش والانس والجن والشياطين والملائكة وكيفيات

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الدمشقي الحنبلي كان من أشد المنكرين على الصوفية الكاذبين ومع ذلك فإن إنكاره لم يمنعه من الاذعان لحق الصوفية الصادقين . توفي رحمه الله سنة ٧٤٦ (٢) راجع الصحيفة ٧٢ من هذا الجزء

التصرف بالاسماء والمسميات والخواص إلى غير ذلك من النظريات التي تعوق المشتغل بها عن البلوغ الى المكاشفة المحمودة فضلا عن الوصول الحقيقي الى مقام « التوحيد والعرفان » . ومن قصد من أول خطوة يخطوها في هذا السبيل الحضرة الالهية وحدها فإنه قد يصل الى مقام التوحيد والعرفان و يحل بالمقام المحمود بعد أن يمر على طريق الكشف المذموم . ولكنه يصير زاهدا فيما مر عليه لا من المحمود ولا من المذموم . لان قصده الوحيد تخليص نفسه من أدرانها وأوساخها الطبيعية واخلاص العبودية لله وحده بالشكر والانابة . ولا يخطر ببالـه قط أن يتصرف بسر من أسراره إلّا بدافع لا قبل له به ولا شعور . كما وقع لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال وهو على المنبر « ياسارية الجبل » ولم يشعر . او بأمر إلهي مثلما صدر من العبد الصالح في حضرة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام فخرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار واستعذر بقوله « وما فعلته عن أمري » . او بأمر نبوي كما صنع الذي عنده علم من الكتاب فنقل عرش ملكة سبا قبل أن يرتد طرف سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام إليه

فإبراز هذه الطريقة التجانية - وغيرها من الطرق الصحيحة - الى الخلق كان من هذا القبيل لاخير بأمر من الحضرة المحمدية يدعو الى تقييد الغافلين بالاذكار الشرعية تقييدا مشروطا بمتابعة الكتاب والسنة ظاهرا وباطنا . فأصلها كشف محمود حظي به أستاذها له نظائر عند صالحي الامم . والنتيجة عبادة شرعية ثابتة في الكتاب والسنة . ومظهرها الطبيعي الممتزج بالشريعة التحذير كل التحذير من المقاصد التي تباعد عن مقصد الشكر وتؤدي الى تتبع الغايات والاغراض من الاسرار والخواص والكشوفات والمشاهدات والتصرفات . وان كان القصد محمودا في الكشف المحمود كطلب الفتح ومباشرة الخطوط الباقية ، وهو ما يعنون به التجرد عن الطبيعة في مقام التوحيد والعرفان حتى يحصل اليقين بمشاهدة الذات المحمدية

وأساس هذا الحد المباشر للشريعة والممتزج بها امتزاج الماء بالعود الاخضر تصريح النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ التجاني بواسطة صاحبه رضي الله عنهما بما نصه « قل له هذا المعنى . الرجال هم الذين يريدون المعرفة والوصول الى تجلي « الذات . فإذا وقف الواقف بين يديه لا ينتظر غيره ولا يجعل في قلبه شيئا « يحول بينه وبينه . بل يقصد به الوصول اليه . و يسأله الحرص والاعانة في محبته « و يسأله العفو والعافية في نومه و يقظته وفي أكله وشربه . و يعبد الله بالاخلاص « و ينتظر أحكام الله الجارية عليه . و يسأله السلامة في معاني ألفاظه التي « يسبح بها مولاه . ولا يقصد في عبادته شيئا إلّا التعظيم لوجهه الكريم و يدوم على « ذلك حتى يرى أنوارا انتشرت عليه من قبله . ولا يشاهد غيرها اصلا . فـإذا « تفكر أمور الشريعة الظاهرة التي كان يشاهد قبل افاضة النور عليه يجدها بنسبة

« الليل مع النهار . وقل لحبيبي النجاني كل هذه المعاني في القرآن العظيم . وقل « له هذا الكتاب (يعني القرآن) يدلك على ما أمرتك به . قلت لك لا تقصد « شيئا ولا تجتهد في حرص شيء . اجتهد في العبادة ومخالفة النفس ، والحرص فيما « يقصده الانسان في العبادة هو تأخير الفتح قل له هو تأخير الفتح قل له هو تأخير « الفتح . قل له هو تعويق الفتح (ثلاث مرات) . قل له انتهى واشتغل تعبد « مولاك بما أمرتك به مجردا من جميع المقاصد تعظيما لله واجلالا وتحميدا له « وتقديسا حتى تبلغ المقدار »

فأي مخالفة بين الشريعة المحمدية و بين هذا الكلام المحمدي البين ياهل ترى ؟ وأي كشف هذا يناقض نظام الدين حتى يقال ان المصدر محفوف بالشكوك والظنون ؟ . لا ! لا . ان المقام مقام اخلاص الدين ودليله القرآن . والقصد الغاء كل النوايا والوجدانيات في مشاهدة ما وراء الماديات . فتمحضت الوجهة لله وحده كما أمر . وان عرض عارض لصاحبها من عوالم الغيب فأمر لا مدفع له ، ولكنه يتقيه باخلاصه و يعرضه على الكتاب والسنة فما وافق فصحيح و إلّا فمن المذموم الصريح . كما قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه « اذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك ان الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الالهام ولا المشاهدة . مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الالهام ولا المشاهدة إلّا بعد عرضه على الكتاب والسنة »

٣ ــ الاعادة على رؤية الرسول يقظة

قال الشيخ جلال الدين السيوطي رضي الله عنه في « تنوير الحلك في امكان رؤية النبي والملك » « قد كثر السؤال عن رؤية ارباب الاحوال للنبي صلى الله عليه وسلم وان طائفة من أهل العصر ممن لا قدم لهم في العلم بالغوا في انكار ذلك وادعوا أنه مستحيل فألفت هذه الكراسة في ذلك ونبدأ بالحديث الصحيح الوارد في ذلك أخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رآني في المنام فسيراني في اليقظة « ولا يتمثل الشيطان بي » وأخرج الطبراني مثله من حديث مالك بن عبد الله ومن حديث أبي بكرة واخرج الدارمي مثله من حديث أبي قتادة . قال العلماء اختلف في قوله « فسيراني في اليقظة » قيل معناه فسيراني في القيامة ، وتعقب بأنه لا فائدة في التخصيص لان كل أمته يرونه يوم القيامة من رآه منهم ومن لم يره . وقيل المراد من آمن به في حياته ولم يره لكونه حينئذ غائبا فيكون مبشرا له أنه لابد أن يراه في اليقظة قبل موته . وقال قوم هو على ظاهره فمن رآه في النوم فلابد أن يراه في اليقظة بعيني رأسه وقيل بعين في قلبه حكاهما القاضي ابن العربي

« وقال الامام ابو محمد بن ابي جمرة في تعليقه على الاحاديث التي انتقاها من البخاري هذا الحديث يدل على ان من رآه صلى الله عليه وسلم في النوم فسيراه في اليقظة وهل هذا على عمومه في حياته وبعد مماته . او هذا كان في حياته وهل كذلك لكل من رآه مطلقا او خاص بمن فيه الاهلية والاتباع لسنته عليه السلام . اللفظ يعطي العموم ومن يدعي الخصوص فيه بغير مخصص منه صلى الله عليه وسلم فمتعسف . قال وقد وقع من بعض الناس عدم التصديق بعمومه وقال على ما اعطاه عقله وكيف يكون من قد مات يراه الحي في عالم المشاهدة . قال وفي هذا القول من المحذور وجهان خطران . احدهما عدم التصديق بقول الصادق صلى الله تعالى عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى . والثاني الجهل بقدرة القادر وتعجيزها ، كأنه لم يسمع في سورة البقرة قصة البقرة كيف قال الله تعالى « فقلنا اضربوه ببعضها » . وقصة ابراهيم عليه السلام في الاربع من الطير . وقصة عزير فالذي جعل ضرب الميت ببعض البقرة سببا في حياته وجعل دعاء ابراهيم سببا لاحياء الطيور وجعل تعجب العزير سببا لموته وموت حماره ثم لاحيائهما بعد مائة سنة قادر ان يجعل رؤيته صلى الله عليه وسلم في النوم سببا لرؤيته في اليقظة وقد ذكر عن بعض الصحابة واظنه ابن عباس رضي الله عنهما انه راى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فتذكر هذا الحديث وبقي متفكرا فيه . ثم دخل على بعض ازواج النبي صلى الله عليه وسلم اظنها ميمونة فقص عليها قصته فقامت واخرجت له مرآته صلى الله عليه وسلم قال رضي الله تعالى عنه فنظرت في المرآة فرأيت صورة النبي صلى الله عليه وسلم ولم ار لنفسي صورة . قال وقد ذكر عن السالف والخالف الى هلم جرا عن جماعة ممن كانوا راوه صلى الله عليه وسلم في النوم وكانوا ممن يصدقون بهذا الحديث فراوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن اشياء كانوا منها متشوشين فاخبرهم بنفر بجها ونص لهم على الوجه الذي يكون منه فرجها . فجاء الامر كذلك بلا زيادة ولا نقص . قال والمكر لهذا لا يخلو اما أن يصدق بكرامات الاولياء او يكذب بها . فان كان هو ممن يكذب بها فقد سقط البحث معه فانه يكذب بما أثبتته السنة بالدلائل الواضحة . وان كان مصدقا بها فهذه من ذلك القبيل . لان الاولياء يكشف لهم بخرق العادة عن اشياء عديدة في العالمين العلوي والسفلي فلا ينكرها مع التصديق بذلك . انتهى كلام ابن ابي جمرة . وقوله ان ذلك عام وليس بخاص بمن فيه الاهلية والاتباع لسنته عليه السلام مراده وقوع الرؤية الموعود بها في اليقظة على الرؤية في المنام ولو مرة واحدة تحقيقا لوعده الشريف الذي لا يخلف . واكثر ما يقع ذلك للعامة عند الموت قبيل الاحتضار فلا تخرج روحه من جسده حتى يراه وفاء بوعده واما غيرهم فتحصل لهم الرؤية في طول حياتهم اما قليلا واما كثيرا بحسب اجتهادهم

ومحافظتهم على السنة . والاخلال بالسنة مانع كبير . وقال ابن الحاج في المدخل رؤيته صلى الله عليه وسلم في اليقظة باب ضيق وقل من يقع له ذلك إلّا ان كان على صفة عزيز وجودها في هذه الازمان . بل عدمت غالبا مع اننا لا ننكر من يقع له هذا من الاكابر الذين حفظهم الله تعالى في ظواهرهم و بواطنهم . وقال قد أنكر بعض علماء الظاهر رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة . وعلل ذلك بأن قال العين القانية لا ترى العين الباقية . والنبي صلى الله عليه وسلم في دار البقاء والرائي في دار الفناء . وقد كان سيدي أبو محمد بن أبي جمرة يحل هذا الاشكال و يرده بأن المومن إذا مات يرى الله وهو لا يموت والواحد منهم يمـــوت في كل يوم سبعين مرة »

فقوله « والواحد منهم يموت في كل يوم سبعين مرة » إشارة الى أن هؤلاء الرجال الكمل رضي الله عنهم الذين كانوا يباشرون الحضرة النبويـــة بالمشاهدة كانوا من شدة صفاء بواطنهم وغلبة ارواحهم النورانية على اجسادهم المادية يصلـــون الى حد تتلاشى فيه مادتهم وتبقى نورانيتهم فيباشرون بتلك النورانية مشاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحادثتـــه والاخذ عنه . و يعتبرون هذه الحالـــة موتا أي خروجا عن عالم المادة وان كان الناس يشاهدونهم اجساما قائمة بين أيديهم . وقال حجة الاسلام الغزالي رحمه الله في الاحياء ما نصه

« اعلم ان ارباب القلوب يكاشفون عن اسرار الملكوت تارة على سبيل الالهام بأن تخطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون، وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة . وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الامثلة كما يكون في المنام وهذه أعلى الدرجات . فإياك ان يكون حظك من العلم انكار كل ما جاوز حد قصورك ففيه هلاك من تورع ممن يزعم انه أحاط بعلم المنقـــول والمعقول . والجهل خير من علم يدعو الى انكار مثل هذه الامور على اولياء الله تعالى»

∴

٤ ــ الذكر والتواجد

ذكر الله تعالى غذاء الايمان . وسلم الرقي الى أوج « التوحيد والعرفان ». عليه مدار كافة العبادات الفرضية والنفلية . وعليه حث الله عباده في غير ما آيـــة من كتبه القدسية . وكفاه شرفا ان الله جليس من ذكره . و « ان الصـــلاة تنهى « عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » (١) . وقد كان ذكر الله تعالى رائـــد السلف الصالح في سبل ايمانهم وتقواهم . وهو نورهم يسعى بين أيديهـــم . من

(١) سورة العنكبوت

تلاوة الكتاب المجيد وتسبيح الله وتحميده وتهليله وتكبيره واستغفاره والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم آناء الليل وأطراف النهار . وما كان يشغلهم عن هذا الذكر القلبي واللساني شاغل ولا يصدهم عنه داع من دواعي النسيان والذهول . حتى انساحت الاغراض في ميادين الاعراض . وسادت الغفلة على المسلمين فانحاز الصوفية المثابرة على العمل بعمل السلف من العبادة والذكر . ولكن وجدوا دون حصول ثمرة الذكر فاصل من أدواء النفس وتشوفاتها نحو الترف والنعيم فتوسلوا إلى محو تلك الاهواء والتشوفات بالمجاهدة والخلوة للانقطاع إلى الذكر انقطاعا كليا . فقضوا ما شاء الله أن يقضوا في هذا المقام حيث نبغ فيهم الائمة الاعلام . والفطاحلة الكبار . ما بين حجة ومجتهد ومرشد وسيد وامام . حتى آذن الله بانقضاء ذلك الدور وظهور دور آخر صار فيه الذكر مصيدة لاهواء النفوس وأغراضها كغيره من الاعمال الدينية التي أصبحت مناصب تبتغى وتزاول لنيل متاع الدنيا ولما كان بهذه المثابة فقد دخل فيه من التنويع والابتداع ما دخل في غيره . فبعد أن كان الصوفي الصادق يذكر الله تعالى سرا بمفرده او جهرا مع غيره وهو محافظ على كافة الآداب اللائقة بذكر رب الارباب . من سكون وخضوع وحضور واجتناب للآثام وترفيل الالفاظ الذكر واصغاء بالقلب لما يلفظه اللسان . أصبح الغالب على المتصوفة الذكر بالصراخ والزئير والرقص والتمايل والركض على الارض بالارجل بل وعلى نغمات الدفوف والطبول والابواق وآلات الطرب بالتواجد المزور الموافق . وقد كان السادة الكمل الذين تصدوا لارشاد الناس إلى ذكر الله تعالى والتربية بالهمة والكمال من ترتيب الاوراد الذكرية الصباحية والمسائية واعطاء الاذن فيها حثوا على ملازمة الاداب في تأديتها كالاداب الواجبة على المصلي في اثناء صلاته . فإن الذاكر يخاطب ملك الاكوان وهو جليسه . وأنى لهذا الذاكر الضعيف أن يعرض عن ملاحظة هذا المذكور القوي أو أن يلتفت طرفة عين إلى ما عداه . وقد مضى على عهدهم من تبعهم بإخلاص . ثم انتقلت عدوى الابتداع رويدا رويدا إلى هذه الطرق أيضا بنحو ما لحق أصولها وبأكثر من ذلك . فالطرق الراهنة كما ترى مشوهة الظاهر بما ابتدع اهلها من صيغ الذكر وكيفياته التي لم يعمل بها المشائخ المؤسسون ، وصادمت من الكتاب والسنة لبهما . فالراقصون على نهش الافاعي والعقارب ولهيب النار وحد السيوف والمسامير ونفخ الابواق ودق الدفوف ونقر « البنادير » والمتواجدون زورا بنغمات مخصوصة وميلان موزون وركض للارض مصنوع لمبتدعون ضالون قد أتوا بما لا يرضى به الصوفية الصادقون . وكفى به إثما خروجه عن حدود السكينة والوقار وحسن السمت ومصادمته للشريعة الاسلامية المطهرة من جميع الوجوه . وما كان التواجد عند القوم الواصلين بهذه الكيفيات المصطنعة . إنما كان يحصل لبعضهم

من غير اختيار . بل يحصل لبعض الخاصة عن غلبة واضطرار حيث يغيبون عن حسهم فيعملون بما لا طاقة لهم على دفعه . فهم في هذه الحالة أحرار فيما يفعلون وفيما يقولون لان قيود الشرع ارتفعت عنهم فهم غير مختارين بل مجبورون إذا ركضوا كالارض أو رقصوا أو ذكروا بالالفاظ المفردة والتي لا معنى لها يخص المذكور كالصراخ والزعيق . وشرط هذه الحالة عدم شعور صاحبها ولو ضرب بحد السيوف . و « حدود الذكر في طريقتنا التجانية عدم رفع الاقدام من الارض وركض الارض بها حال القيام في الذكر وهي طريق السادات الخلوتيين خلافا لمن خالفهم في ذلك . وقد كان سيدنا الشيخ رضي الله عنه لا يقبله أعني رفع الاقدام وركض الارض بها ويشدد الزجر على من صدر منه وتابعه على ذلك جميع أصحابه فهو عندهم من الامر الشنيع في طريقتنا ومثله التصفيق أعني في الذم والشناعة في طريقتنا ومن ذلك تفعل شيء من الحركات التي تسقط العمامة او الرداء او نحو ذلك فإن وقع شيء من ذلك عن غلبة وجد فلا بأس به حينئذ . ومن التحرز من زعقة وغيرها اثناء الذكر إلا عن غلبة وجد ايضا وقد نقل عن السري السقطي رضي الله عنه أنه قال شرط الواجد أن يبلغ الى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر به » (١) . وعليه فقد ثبت بفضل الله وأن الطريقة التجانية بريئة من كل ذكر مشوب ببدعة دقت أو جلت . وانما ذكر الواصل فيها كذكر الواصل في غيرها ما كان ذكرا شرعيا موافقا للكتاب والسنة في اللفظ والهيأة فهو به من « الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم « آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون » (٢)

٥ ــ السبحة

ان استعمال السبحة لعد الذكر كان واقعا في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم شائعا بين صحابته . وانما وقع فيه انتقال من العد بالاصابع والنوى والحصى الى العد بخرزات من العود مركبة في عقود كما وقع انتقال الكتابة في الجلود والعظام الى الكتابة في الورق . فاستعمالها مستحسن ان أريد به الاستعانة على عد الذكر المحصور في عدد مخصوص ، وقد استعملها فحول الامة الاسلامية وصالحو علمائها وعبادها . حتى ان الشيخ جمال الدين الافغاني زعيم حركة الاصلاح الاسلامي الحاضرة كان ملازما للسبحة وهو في فراشه الذي توفي فيه حسبما صور رحمه الله في غير ما كتاب . وانما المذموم جعل السبحة في اليد أو في العنق رياء وسمعة واعتقاد عدم صحة الذكر إلا بها . وهذا منكر من ابتداع الاشخاص لا تبعة فيه على التصوف بل ان التصوف لم يكن إلا لمحو أمثاله من قلوب الاشخاص فليعتبر المنيب

(١) بغية المستفيد . (٢) سورة الانفال

٦ــ « الزيارة » والقربان والنذور

« الزيارة » في العرف الجاري عند العامة هي « الهدية » إلى الولي او الى اهل بيته وذريته لله لا لغرض من الاغراض . وكانت جارية في الزمان السالف بين الناس عند الزيارة بمعناها الحقيقي . أي عند ورود الزائر على المزور . كالعادة المتعارفة بين كافة افراد الامة من زيارة باد لحاضر او حاضر لباد او إكرام صديق لصديقه . وكان من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم قبول الهدية والاجازة عليها . وقد تنازل له صاحبه أبو بكر رضي الله عنه عن نصف ماله هدية . وبقي العمل على هذا عند خلفائه وأساطين أمته . ولكن قد يشترط فيها الاخلاص من المهدي في تقديمها . وعدم التشوف والانتصاب لها من المهدى إليه . يؤخذ هذا مما رواه الامام البخاري في صحيحه « عن الزهري قال حدثني سالم بن عبد « الله ان عبيد الله بن عمر قال سمعت عمر يقول كان النبي صلى الله عليه وسلم « يعطيني العطاء فأقول أعطه أفقر مني حتى أعطاني مرة مالا فقلت أعطه من هو « أفقر إليه مني فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذه فتموله وتصدق به فما « جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك »

وهذان الشرطان : الاخلاص في تقديم الهدية لوجه الله ، وعدم التشوف لها من المهدى إليه هما اللذان كان العمل بهما جاريا عند المشائخ الكمل من السادة الصوفية رضوان الله عليهم اقتداء بالسلف الصالح وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم بل قد كانوا يزنون ذلك بورعهم المشهور عنهم . وينظرون في أصول ما أتاهم من الهدايا ولما دا جاءهم . فإذا خلصت أصوله وأسباب وصوله قبلوه وأكلوا منه ووسعوا على غيرهم من الضعفاء . وإلا ردوه أو أنفقوه على الفقراء من غيران يأخذوا منه دانقا . وهكذا كان يفعل سيدنا أبو العباس أحمد التجاني رضي الله عنه . فطالما كانت الهدية تأتيه وفي ضمائر اربابها اغراض دنيوية او أخروية فيصيح عليهم بقوله « من دخل من باب فليخرج منه ما أنا إلا عامي صرف لا شيء عندي ».

وقد كان لما حل بحاضرة فاس واشتهر أمره علما وعرفانا عند السلطان مولاي سليمان(١) أنفذ له هذا السلطان دارا فاخرة تعرف بدار « المرايت » لسكناه . فامتنع جناب الشيخ التجاني من قبولها . ولما فطن السلطان لسبب الرفض أخبره بما أزاح عنه وجه الاشكال في شأنها . فقبل السكنى بها ولكنه صار عند انقضاء كل شهر يخرج أجرة كرائها خبزا فيوزعه على الفقراء والمساكين الى ان توفي رضي الله عنه . ولما شرع في بناء الزاوية العامرة بفاس أرسل اليه السلطان مولاي سليمان صرتين في كل واحدة ألف ريال وقال له استعن بهما على بناء الزاوية فردهما عليه سيدنا

(١) هو سلطان المغرب الاقصى مولاي سليمان توفي رحمه الله سنة ١٢٣٨

الشيخ رضي الله عنه ، وقال له « أمرها قائم بالله » . ولما ألح عليه في قبولها امتنع جنابه من صرفها في بناء الزاوية بل وزعها على الفقراء والمساكين في أسواق فاس . ولهذا كان رضي الله عنه يؤكد في تحذير اصحابه ومقدميه من الانتصاب للدعوى لتغريم الناس اموالهم والتشوف الى ما في أيديهم . ومن ذلك قوله في وصيته المشهورة الى مقدميه « وأن يتباعد عن تغريم دنياهم وان لا يلتفت « الى ما في أيديهم معتقدا ان الله هو المعطي والمانع والخافض والرافع وليجعل همته « في تحريز دنياهم وما في أيديهم من التشتيت والتبذير وان لا يطالبهم باعطاء « شيء لا من القليل ولا من الكثير إلّا ما سمحت نفوسهم ببذله من غير طلب . « فإن عقول الناس حول هذا المطاف تدور وعلى هذا المقدار تجري بهم جميع الامور »

هذا هو الاصل الواجب به العمل عند الصوفية عموما والتجانيين منهم خصوصا كما ترى من سيرة الشيخ رضي الله عنه ووصيته لاصحابه ومقدميه مشترطا عليهم هذا الشرط الاكيد . فإن وجد بين التجانيين الحاليين ومقدميهم من يخالف هذا الاصل الاساسي فوزره على شخصيته لا على الطريقة التجانية وشيخها الجليل . فلقد عم الطرقيين البلاء من المحيط الى المحيط في هذا السبيل . واصبح كل ذي نسبة صوفية او ناموس ترتبت عليه الزعامة في فتح حلقة ذكر مترامية على تغريم دنيا اتباعه متشوفا دائما الى هداياهم و « زيارتهم » بحجة نسبته الى ولي او قيامه بتلقين اذكار شيخ او إرث مقام من مقامات الرجال . وغالبهم يرى أن ذلك حقا من حقوقه الشرعية فيخاصم عليها وينافس من اراد منافسته . وما عملهم هذا إلّا وبال في وبال . أعاذنا الله من سقطات الرجال . وفي هذا الباب قال الامام الشعراني رضي الله عنه في « موازين القاصرين » « وتيقن ان كل من عمل شيخا صار يأكل بدينه الى ان يقدم على الله مفلسا ليس معه إلّا اوزار من اكل طعامهم لانه من حين يشتهر بالصلاح لا يحمل نفسه على عمل حرفة تقوم به ونهايته ان يكون راقدا على جنبه يسبح الله بسبحة فيدخل عليه الناس فيقولون له خاطرك علينا ياسيدي » وقال ايضا « واعتزل هؤلاء المدعين أجمعين فإنهم لا يحبون إلّا التلميذ الذي يطعمهم ويبرهم فلذلك يقدمونه على اقرانه لاسيما ان كان يصطاد لهم المريدين ويأتي بهم إليهم فلذلك يمدحونه ويقولون للتلاميذ العمى الذين حولهم لاجل اللقمة ما عرف طريقتنا غير فلان فيمدحون أنفسهم ويسلكون مسلك ذلك التلميذ فلا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم »

وما يقال في « الزيارة » يقال في القربان والنذور ايضا . فما كان منها لله خالصا من غير تشوف إلى نفع دنيوي او أخروي فذاك الحلال الطيب . أصل الصوفي الواصل وعماده . وإلّا فما خالطه غرض فهو قربة شرك ترجب لانقطاع ومآلها القذف في النار

٧ ــ تصرف الــولي

اذا كان الطعام يشبع والماء يروي والنار تحرق والهـواء ينقي الدم في التنفس وكلها جمادات لا حيوانية فيها ولا عقل فمن الكفر الصريح الاعتقاد بأنهـا تتصرف هذا التصرف بذاتيتها وبتأثيرها الخاص . ومن الايمان الصريح الاعتقاد بأن الشبع والري والاحراق والتنفس احوال تحصـل عند تناول الطعـام والماء ومباشرة النار والهواء لا بها . وان الفعل والتأثير في ذلك كله لله وحده « وما رميت اذ رميت «ولكن الله رمى » (١) . فإذا عزي الى ولي من الاولياء التصرف في امر من الامور سرا او جهرا بصفة عادية او خارقة فمن هذه الحيثيـة حال أجري على يده وفاعله والمؤثر فيه هو الله وحده ، مثل ما وقع لسيدنا عمر بن الخطاب ولغيره من الصحابة الكرام ومثل ما وقع للعبد الصالح مع موسى عليه الصلاة والسلام ومثل ما وقع للذي عنده علم من الكتاب في نقل عرش ملكة سبا . والحقيقة أن الولي الصادق حاله مع الله تعالى لا يكون له قصد البتة في أي تصرف من التصرفات وانما الله تعالى هو الذي يحدث فيه العزم والهمة الخارقة لما يريد سبحانه حدوثه من غير شعور للولي في الغالب . ولذا لم يشترط في التصرف كمال العقل . كما ذكر العلامة ابن خلدون في مقدمته ونص مقاله

« فصل * ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية واحـوال الصديقين وعلم ذلـك من احوالهم من يفهم عنهم من اهل الذوق مع أنهم غير مكلفين ويقـع لهم من الاخبار عن المغيبات عجائب لانهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلـك ويأتون منه بالعجائب وربما يكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل إلّا بالعبادة وهو غلـط فإن فضل الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها واذا كانت النفس الانسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء القـوم لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وانما فقد لهم العقل الذي يناط به التكليف وهي صفة خاصة بالنفس وهي علوم ضرورية للانسان يشتـد بها نظره ويعرف احوال معاشه واستقامة منزله وكأنه اذا ميز احوال معاشه واستقامة منزله لم يبق له عذر في قبول التكاليف لاصلاح معـاده وليس من فقـد هذه الصفـة بفاقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجود الحقيقـة معدوم العقـل التكليفي الذي هو معرفة المعاش ولا استحالة في ذلـك ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شيء من التكاليف واذا صح ذلك فاعلم أنـه ربما يلتبس

(١) سورة الانفال

حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتحقون بالبهائم ولك في تمييزهم علامات منها أن هؤلاء البهاليل تجد لهم وجهة ما لا يخلون عنها أصلا من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف والمجانين لا تجد لهم وجهة أصلا ومنها أنهم يخلقون على البلة من أول نشأتهم والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية فإذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالكلية ومنها كثرة تصرفهم في الناس بالخير والشر لانهم لا يتوقفون على اذن لعدم التكليف في حقهم والمجانين لا تصرف لهم وهذا فصل انتهى بنا الكلام إليه والله المرشد للصواب »

⁂

٨ — ترتيب الذكر بالاوراد المعدودة

روى الامام البخاري في صحيحه فقال « حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا « عبيد الله بن ابي يزيد سمع مجاهدا سمعت عبد الرحمن بن ابي ليلى يحدث « عن علي بن ابي طالب ان فاطمة عليها السلام اتت النبي صلى الله عليه وسلم « تسأله خادما فقال الا اخبرك ما هو خير لك منه تسبحين الله عند منامك ثلاثا « وثلاثين وتحمدين الله ثلاثا وثلاثين وتكبرين الله اربعا وثلاثين ثم قال سفيان « إحداهن اربع وثلاثون . فما تركتها بعد قيل ولا ليلة صفين قال ولا ليلة صفين »

فصريح هذا الحديث الشريف — وله نظائر — اصل عد الذكر وترتيبه اوراداً معلومة والمواظبة عليها . فالرسول صلى الله عليه وسلم قد لقن ابنته سيدتنا فاطمة الزهراء وزوجها عليا بن ابي طالب رضي الله عنهما ذكرا معينا بعدد معين في وقت معين . والامام علي رضي الله عنه كما ترى واظب عليه حتى في احرج الاوقات واشدها ضيقا عليه كليلة صفين وهو بين ذلك الهول المتأججة ناره بين طائفتين عظيمتين من المسلمين . فالمشائخ الكمل ارباب التربية بالذكر قد تلقوا عن الحضرة المحمدية ترتيب هذه الاوراد الصباحية والمسائية كالورد المعلوم النجاني فلم يكن ما تلقوه مصادما للشريعة بحال لان اصله صحيح في السنة صريح كما ترى . وفي القرآن الامر بالذكر غدوا وعشيا في غير ما آية . فالحاصل أن المواظب على اوراده الذكرية صوفي واصل عامل بالسنة سلفي لعمله بعمل ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعلها رضي الله عنهما . والمبتدع من قاده الجهل والهوى وقلة الدين والحياء الى إنكار ذلك عليه من غير سلطان . ومن اظلم ممن ينهى عن ذكر الله ويدعو الى ما زينه الشيطان من نحو التمثيل ولهو الحديث . وكفى بذلك ضلالا واثما مبينا

٩ ــ التوسل والوسيلة

هذه مسألة خلافية جرى فيها الاختلاف بكثرة بين العلماء فمن مجيز ومانع . وللمجيز اعتماد على ما رواه البخاري في صحيحه حيث قال حدثنا الحسن بن محمد « حدثنا محمد بن عبد الله الانصاري حدثني أبي عبد الله بن المثنى عن ثمامة بن « عبد الله بن أنس عن أنس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان اذا « قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا « صلى الله عليه وسلم فتسقينا وانا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال فيسقون » . وذهب جل من منع التوسل بمخلوق إلى سد الذرائع . ومنع فكرة الاشراك واسناد النفع والضر إلى الخلق من السريان في اذهان العامة . وهو الامر الذي لا محيص عنه حيث سرت هذه الفكرة الاشراكية بدافع الجهل ولم ينفع في صدها منع ولا تحذير . فالعارف بأوجه التوسل وأوجه جوازه ومنعه قد يعتقد في روحانية شيخه او رسوله الذي يتوجه إليه في توسله المساعدة على المقصود الصالح بالدعاء مثلما فعل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ويلاحظ مع ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي « وان سألني لاعطينه ولئن استعاذ بي لاعيذنه » (١) . مع قوله صلى الله عليه وسلم « ألا اخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو اقسم على « الله لابره » (٢). فبملاحظة ذلك في المتوسل به يراد الاستعانة بدعاء ذاتيته ان كان حيا او روحانيته ان كان ميتا . لان دعاءه بصفته « محو با لله » اقرب الى الاجابة لاسيما ان كان قدوة في السلوك ومرآة لرسم محاسن الاخلاق . هذا للمتقيد بشيخ كامل . ومع هذا فإنا لم نعثر على امر من شيخ صادق الى اتباعه بوجوب التوسل به فالتوسل ليس بشرط صحة ولا شرط كمال في الطريق . وانما مبلغه مبلغ الاستحباب للمتقيد بأستاذ مع ملاحظة ما ذكرنا آنفا واما ما عداه فهو حرفي يقينه . والذي دعى الى استغراق العامة فيما نراهم فيه من الاعتقاد الاشراكي المحض هو تعصب الفريقين فيما ذهبا اليه من اجازة الوسيلة ومنعها . وما هو إلا سوء تفاهم وسعه سوء الظن والعياذ بالله . وهذا شيخنا النجاني رضي الله عنه لم يلزم اصحابه بدعاء عقب الاوراد فضلا عن التوسل بل عد الدعاء من قبيل المندوب . وفوض الى حسن اعتقادهم التوسل به او بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما هو خالص لوجه الله الكريم من المطالب وادمها السلوك الى « مقام التوحيد والعرفان » ونيل الرضى من حضرة الملك الديان . وإلا « فمن دخل من باب فليخرج منه » كما قال رضي الله عنه ، لان الشيخ دال على الله تعالى مرشد الى حضرته . فمن رام منه المساعدة على هذه الدلالة والارشاد لا يصح في حقه اعتقاده خالقا او رازقا او مدبرا بل الله هو

(١) راجع الصحيفة ١٥ (٢) رواه الامام البخاري في صحيحه

الخالق والرازق والمدبر . وهذا هو مسلك الصوفي الواصل . وما عداه من الاعتقاد فإشراك محض والتوسل في حقه انقطاع واجترام . والطريقة التجانية وكل ما هو على هدى من الله من الطرق الاخرى بريئة من كل من ينسب التأثير الى المخلوق دون الخالق . وما كل اهلها على هذا الاعتقاد . فليحذر المذكر أن يرمي القلوب بما ليس فيها رجما بالغيب فتصيبه فتنة او يصيبه عذاب أليم

⁂

١٠ — زيارة الاولياء

زيارة الاولياء الاحياء والاموات عمل مندوب اذا تجرد من كافة المحظورات والممنوعات شرعا المؤدية الى الاشراك بمقام الربوبية كالاعتقاد في الولي القدرة على التأثير في النفع والضر، وتقديم الهدية له بهذه النية الفاسدة . وكالتمسح بالآثار والاعتاب وتقبيلها . كما هو العمل الجاري عند عامة المسلمين شرقا وغربا وعم به الضلال . وما كان هكذا يفعل السلف الصالح ولا من تبعهم بإحسان من فحول الرجال والكمل من الصالحين حتى هذا الوقت . وليس من سمات الصوفية الصادقين ارتكاب مثل هذه المحرمات والمنكرات من المقاصد والاعمال . فلقد قال العارف سيدي عبد العزيز الدباغ في الابريز « ان الاسباب الموجبة للانقطاع عن الله عز وجل ثلاثمائة وستة وستون منها الهدية للصالحين ليقضوا لصاحبها حاجته دون وجه الله عز وجل . ومنها التوسل للصالحين بالله عز وجل فيقول الزائر قدمت لك وجه الله ياسيدي فلان إلّا ما قضيت لي حاجتي وانما كان قاطعا عن الله لان الزائر قلب القضية وعكس الواجب فإنه كان من حقه ان يتوسل إلى الله تعالى باوليائه لا أن يعكس . الثالث زيارة الصالحين وعلى الزائر دين فرض كعدد صلوات وجب قضاؤها عليه فترك قضاءه الذي هو حق الله وفيه نور الله وسره الذي يرجه به وذهب الى زيارة صالح ولا يخفى ما فيه من الانقطاع والظلام »

فتأمل يارعاك الله حكم هذا العارف في هذه القضية وتحقق أن ما يجريه غالب الناس وأخصهم المتصوفة من شد الرحال وتأليف القوافل الى زيارات الاولياء والصالحين مع ما هو مشاهد من اختلاط النساء والرجال وحدوث منكرات لايرضاها الله ورسوله من الامور التي لم يفعلها الصوفية المحققون ولا يرضون بها بحال . وهذه المنكرات الواقعة في زيارة الصالحين هي من جملة الاسباب الداعية الى منع الزيارة على السالكين بالورد التجاني لاسيما العوام منهم الذين يحسبون كل ما يفعله الناس جائزا فيقتدون بهم فيقعون في القطيعة . وإلّا فإن لزيارة الصالحين نور في قلوب زائريهم لله . والعامة لا تعرف العمل لله كما قال سيدنا الشيخ قدس سره . ولا مراء في « أن الصوفي العالم بدينه الملتزم لسيرة السلف يبغي ويقصد من زيارة الصالحين والقرب منهم في حال حياتهم وبذكر مناقبهم وسيرتهم وتصور

أحوالهم بعد مماتهم أن ينمو في نفسه حب الخير والصلاح والتقوى التي هي صفات الصالحين . وذلك أن رؤية الصالحين والقرب منهم ومشاهدة سمتهم وهديهم يؤثر في النفس و يبعث فيها القدوة . وكذلك ذكر مناقبهم وسيرتهم وتصور أحوالهم بعد مماتهم . و بصد ذلك معاشرة الفساق والاشرار وقراءة أخبارهم وتصور احوالهم في فسقهم واسرافهم يشوق النفس الى المعاصي ويقودها الى الاقتداء بهم » (١)

﴿ قلت ﴾ وهذا هو عين الاستمداد المنشود للمريد من أستاذه

٨ — القبب والضرائح والزوايا

ان الامة الاسلامية بعد أن تبين سلفها ما كان عليه مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم من بساطة الهيأة وكونه من طين وجريد ذهبت كل مذهب في تنويع و رفع أبنية المساجد وقببها وقلدت في ذلك حضارة الروم والفرس في بناء الهياكل والكنائس . فصدق ما ورد في ذلك . « وقال أبو سعيد كان سقف المسجد من « جريد الا خل وأمر عمر ببناء المسجد وقال أكن الناس من المطر وإياك أن « تحمر أو تصفر فتفتن الناس وقال أنس يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلّا قليلا وقال « ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى » (٢). ولم يكن السادة الصوفية السلفيون المتشبعون بروح الكتاب والسنة بسالكين هذا المسلك الابتداعي بل كانوا ينكرونه . وانكارهم هذا دفعهم الى الاستقلال بالزوايا التي أقاموها على البساطة الاولية كي لا يشاهدوا تلك المنكرات المشيدة بالصخور المنقوشة المرصعة بالذهب والفضة والفسيفساء وما شاكلها . فالمشائخ الكمل غير راضين بما بني على مقابرهم من القبب العالية والقوابيت المزخرفة وانما بلاء الابتداع عم العامة والملوك واحبار السوء فعملوا بأغلبية آرائهم على إقامتها ولم ينفع فيهم نصح صالح متمسك بما ورد في صريح السنة . فلقد روي « أن عائشة وابن عباس قالا لما نزل برسول الله « صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن « وجهه فقال وهو كذلك لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم « مساجد يحذر ما صنعوا » (٣). « وعن أبي الهياج الاسدي قال لي علي ألا أبعثك « على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع تمثالا إلّا طمسته « ولا قبرا مشرفا إلّا سويته » (٤). ومثل ذلك ما نشاهده اليوم . فإن سيدنا الشيخ النجاني رضي الله عنه لم يؤسس زاويته بفاس إلّا لذكر الله بنفس الداعي للسلف في بناء زواياهم تباعدا عن رؤية المنكرات الشائعة في عامة المساجد ولم يكن مقصوده أن يدفن فيها . بل وقع دفنه رضي الله عنه فيها بعد وفاته باجتهاد اصحابه بما أن الزاوية ليست مسجدا عاما وانما هي مأوى للذاكرين

(١) « المنار » ص ٩٥٦ ج ١٢ م ١٤ . (٢) و(٣) رواهما البخاري . (٤) رواه مسلم

ولذا لا تقام فيها صلاة الجمعة . ولما دفن بها رضي الله عنه كان ثراه الشريف تحت جدار من جدرانها من غير تابوت ولا قبة عالية . وقد أوصى بعدم دفن غيره بها منعا للبدعة الشنيعة الجارية من قصد الدفن بجوار الصالحين طلبا لبركتهم . أما ما حصل بعد ذلك من التغيير و رفع القبب والتزيين في زاوية فاس وفي غيرها من الزوايا التجانية فالعهدة في كل ذلك ليست على الشيخ التجاني رضي الله عنه ولا على طريقته . وبما أن صريح السنة يمنع ذلك فان الشيخ التجاني أول ناصر للسنة. فالعهدة في البدعة راجعة على الاشخاص اخترعوا ذلك واستحسنوه كما اخترع غيرهم مع غيره واستحسنوه . لانه قد شوهدت أمور ابتداعية تنهى عنها الطريقة والشريعة قد أجريت في الزاوية الفاسية نفسها فما نفع في ردعها ردع رادع لغلبة جهل العامة وضعف المقاومة من الخاصة، ولله في طي ذلك شؤون

⁂

١٢ ــ السياسة والرئاسة

ليس التصوف بمذهب سياسي ولا أريد به السياسة . ولا طرقه الحالية بفروع منه لهذا الغرض . وأقوى دليل على ذلك كون مشائخه ومن تبعهم بصدق من الصغار يحذرون اتباعهم من التزلف للحكام والامراء ومخالطتهم و ينفرون بإلحاح من الرئاسة الداعية لما ذكر من التمذهب السياسي (١) . لان مقصود التصوف اخروي لا تعلق له بزخرف الدنيا وشؤون اهلها . وعلى هذا المهيع سار اسلاف الصوفية الكرام ومن تبعهم بإحسان حتى آخر عهد بالواصلين منهم . ولكن كان من طبع الحكومات ما بين شرقية وغربية ومن مصلحتها الاساسية ان تستخدم الفرق والطوائف والمذاهب في نشر حكمها . وقد صادفت من عشاق الرئاسة زعماء لبوا دعوتها وحولوا نفوذهم الى نفوذها رهبة ورغبة . وكان من شأن حكم استعمار الدماغ الاسلامية ان تكون مصلحته كذلك في تقريب من تظاهروا بالرئاسة الممنوعة في طرق التصوف بتاتا . فأحدثوا فيها الرئاسة فاستعملتها السلطة الحاكمة تسخيرا لنفوذهم في رسوخ نفوذها . وكان من مصلحة اشخاصهم طبعا ان يداروها ويصدعوا بأمرها حفظا لمراكزهم الابتداعية . فهذه الحالة الراهنة بالنظر لاصول الصوفية الاخلاصيين في طلب الاخرى حالة ترجع تبعتها على شخصيات ارباب المبتدعين لها الراهبين الراغبين لا على التصوف وطرقه ولا على مشائخه الكمل العارفين رضوان الله عليهم اجمعين

---

(١) سيأتي في غير هذا المحل اقوال المشائخ الكمل في التحذير من مخالطة الحكام وحب الرئاسة

١٣ — القول بوحدة الوجـــود

هذا القول عبارة عن حالة روحية ذوقية اشتهر بها الصوفية فأنكرها عليهم غيرهم لما يتبادر الى الاذهان فيها من اعتقاد الاتحاد والحلول . حتى ان العلامة ابن خلدون عدها فى مقدمته من جملة ما زاغ فيه أرباب المكاشفة من الصوفية . والصواب أن نظرية وحدة الوجود لا تعطى أدنى اشعار بالحلول ولا بالاتحاد ولا بالغاء المحسوسات فى عين وجودها كما ذكر ابن خلدون نقلا عن ابن دهقان . وانما هى نظريـــة روحية ذوقية لا تظهر إلّا للمستغرقين فى التجرد من ذاتيتهم البشريـــة المتحققين فى « مقام التوحيد والعرفان » . فهم الذين يفنى فى نظرهم حالة هذا الاستغراق والانمحاق كافة العوالم الحسية حتى ذواتهم ، فلا يشاهدون آنئذ إلّا وجود واجب الوجود سبحانه وتعالى . كما قال الاستاذ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه فى قوله تعالى « هو الاول والآخر والظاهر والباطن » ان الله محق الوجود بهذه الاية » . فقيل له كيف يكون كذلك ونحن نشاهد السماوات والارضين والشمس والقمر وغير ذلك مما لا يقدر على انكاره . فقال ذلك كذلـك وانما هو كالشيء الذي يظهر في شعاع الشمس اذا دخل من كوة فأنت ترى شيئا صاعـــدا ونازلا ولكن اذا قبضت عليه لا تجد شيئا » . وهذا بعض تقريب اشارتها الى أن الوجود الحقيقي انما هو للواجب وحده وان وجود الممكن كلا وجود . وقد عبر حجة الاسلام الغـــزالي رحمه الله تعالى عن هذه النظرية — بعد أن صرح أنها غاية علوم المكاشفات — بقوله « ان الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار وقد يكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة وهذا كما أن الانسان اذا التفت الى روحه وجسده واطرافه وعروقه وعظامه واحشائه وهو باعتبار آخر واحد تقول ان مجموع ذلك انسـان (الى أن قال) ومثال الانسان وان كان لا يطابق الغرض لكنه ينبه بالجملة على كيفية مصير الكثرة في المشاهدة واحدا وأنت تستفيد بهذا الكلام ترك الانكار والجحد لمقام لم تبلغه وتؤمن به ايمان تصديق فيكون لك من حيث أنك تؤمن بهذا التوحيد الخـاص نصيب وان لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك اذا آمنت بالنبوة ولم تكن نبيا يكون لك نصيب منها بقدر قوة ايمانك (قال) وهذه المشاهـدة التي لا يظهر فيها إلّا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو لاكثر والـــدوام نادر عزيز » . وقد عبر جناب الشيخ التجاني رضي الله تعالى عنه عن نظرية وحدة الوجود ايضا بقوله « ان اتحاد الوجود من حيث فيضان الوجـــود عليه من حضرة « الحق فيضا متحدا ثم تختلف خواصه وأجزاؤه بحسب ما يتصل ذلـك الوجـه « فإنه يتحد في عين الجملة ويتفرق فى حال التفصيل مثالـــه فى الشاهد مثال « المداد فان الحروف المتفرقة فى المداد والكلمات المتنوعة التى دلت عليها صورة

« المداد لم تخرج عن وحدة مداديته فإنه ما ثم إلّا المداد تصور في اشكاله
« الدالة على المعاني المختلفة والحروف المتفرقة والخواص المتنوعة غير المؤتلفة ولا
« المتماثلة فإنك إذا نظرت إلى تلك الصور التي اختلفت حروفها وكلماتها لم
« ترإلّا المداد تجلى في اشكالها بما هو عين المداد فتتحد بالمداديـة وتختلف
« بالصور والاشكال والكلمات والمعاني فكان المداد في تلك الحروف عين
« تلك الحروف . والحرف في ذلك المداد عين ذلك المداد . وهي مختلفة
« الاشكال والخواص والمعاني الى غير ذلك . كذلك الوجود في ذوات
« الموجودين عين تلك الذوات وتلك الذوات في ذلك الوجود عين ذلك
« الوجود وهي ايضا مختلفة الاشكال والخواص فوحدتها في عين ذلك الوجود
« لم يخرجها عن اختلاف اشكالها واسرارها ومعانيها وخواصها ولا افتراقها بتلك
« الاسرار والخواص والمعاني يخرجها عن وحدتها في ذلك الوجود كما في
« الحروف والمداد كما ان وحدة المداد لم تخرجه عن اختلاف اشكاله ومعانيه
« وخواصه ولا افتراق اشكاله في هذه الامور يخرج تلك الاشكال عن اتحادها
« في ذلك المداد » . فمن هنا يعبر فلاسفة أوربا وفطاحلة علمائها الفلكيين عن الوجود بالوجود المطلق « l'Infini » . وهو الذي حدا بفحول الصوفية لكمال إيمانهم ان لا يصفوا الحوادث إلّا بصفة العدم المطلق في عين وجودها ليبقى الوجود المطلق صفة الحق تعالى . فهم بذوقهم لهذه القضية ذوقا وجدانيا في بعض الاحيان عند الاستغراق لم يألوا جهدا في تنزيه المولى تعالى وتقديسه عن الحلول والجهة والاتحاد . ولم يكن هؤلاء الرجال الروحانيين بنازعين وحدهم الى هذا الذوق بل ان من فلاسفة العصر الغربيين من نزع اليه عفوا بعد امعان النظر في خلق الكائنات كالدكتور الالماني إيستاين (١) الذي قرر أنه « رغما عن التباين الخلقي لجميع المخلوقات الموجودة في العالم فانما هو ظاهري ومن حدد نظر فكره استنتج أن كل ذلك الخلق مرتبط بنواميس مشتركة هي حكمة الله ولابد من وحدة تضمها جميعا . ولعمري هل يمكن لنا أن ندرك يوما هاته الوحدة العجيبة أم ذلك سر الغيب الذي سيعلمنا الله اياه يوم الميقات ؟ » (٢) . والحاصل أن مفهوم نظرية وحدة الوجود لا يتعدى أرباب الذوق وهم في هذا العصر أندر من عنقاء مغرب فتسليمها لهم أسلم وإنكارها على الجاهلين من غيرهم ألزم . لانه ليس من شأن الطرقي السلفي الصادق في سبيله ان يشتغل بذوقه . وصدقه يدعوه إلى توحيد الوجهة نحو خالقه . وان في ذلك ليقينا للمستيقنين

(١) Eistein (٢) تقويم المنصور لسنة ١٣٤٥ الصحيفة ٣١

١٤ ــ الاعتماد على الانتساب وطرح العمل

يقول الله تعالى « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما نزل « وأنذر عشيرتك الاقربين » دعا صلى الله عليه وسلم قريشا فاجتمعوا فعم وخص فقال يابني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار يابني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار يابني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار يابني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يابني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يافاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئا »

هذا هو الاصل الذي يراعى في الدين قبل كل شيء . وهو أصل التصوف لان اللجأ الى التقوى سعي في إنقاذ النفس من النار . فاذا روعي تمام المراعاة ولوحظت معه البشرى بالرجاء الشرعي وصدق القصد في الاخلاص فذلك سبيل الفلاح الذي لا يخيب سالكه . فإن المقصود للشارع من بسط الشريعة احترام الحدود الشرعية واقامتها على وجهها الاتم . والصوفية الصادقون ما نزعوا الى التصوف إلا غيرة على هذه الحدود واقامة لها في أنفسهم . فلا سبيل لهم ولا لغيرهم في اهمال مثقال ذرة منها بدعوى خارجة عن الاعذار الشرعية وموانع الخطإ والنسيان . وانما جاءت البشارات والفضائل و وسائل الترغيب خواتم ترتجى في بعض الاوقات لتنشيط نفوس كلت . أو بعث همم اضمحلت . وذلك خاص بضعفاء الايمان . والعامة من بسطاء الاذهان . بشرط أن لا يؤدي هذا الرجاء إلى درجة يصير فيها مقصودا لذاته ، وتضيع معه مثقال ذرة من نظام الشريعة . لان النفس في هذه الدرجة تميل طبعا إلى راحة أدهى من الراحة التي أثيرت من مناخها . تميل إلى راحة الاعتماد على الرغبة غير مراعية للرهبة شدتها . و بطول مكث هذه الراحة يتأكد مركز العصيان لاحتقاره بالنسبة لما قد عظم في العين من خير الرغبة ونعيم الجزاء

وهذا مرض عضال قد انتشر منذ أزمان طويلة بين فريقين من الناس . فريق يعتمد على النسب الطيني كبعض أهل البيت النبوي وأولاد الصالحين . وفريق يعتمد على الانتساب لطريقة من الطرق الصوفية وعلى فضائل اذكارها ومناقب شيخها .

فمن الفريق الاول من يتباها بنسبه . معجبا بمقام جده أو أبيه . ويتخذ لنفسه رتبة بدعوى فارغة تخدعه في ادراكه . حتى يصير يعتقد بأحقية تصرفه في حقوق من دونه من الناس . وتؤديه الى نسيان الحدود الشرعية فيتعداها في نفسه ونفوس الناس وماله وأموال الناس وحريمه وحريم الناس . كأن نسبه أحل له المحرمات ، وأباح له المحظورات . وهذا جهل بالله قد أغوى قرونا كثيرة وأهلك نفوسا عزيزة وقد عم غالب الاشراف واولاد الاولياء والصالحين والعلماء في

هذا العصر إلّا من عصم الله تعالى وهو شاذ نادر لان الجهل بالدين عم الجميع فلم ينج إلّا ذو الدين والعلم الصحيح

ومن الفريق الثاني من يتأمل قبل كل شيء من الطريق التي يتولى سلوكها فضلها وفضل صاحبها وفضل اذكارها . ويرتاح للرغائب التي فيها بكل شوق متصورا الرتب والكمالات والمنح والخيرات بأشكال تلائم شوقه وارتياحه . من غير أن يضع قدم إقباله على أساس الصدق والاخلاص ، جاعلا رغبته الوحيدة الخلاص والنجاة من بوائق نفسه وكمال الايمان بربه . فإذا مال مع الميل المذكور بكليته . وخاض بحور الفضائل بشراهية ذاتيته . نزعت نفسه طبعا الى الراحة بارتياحها . فأهمل أصول الدين وتهاون بها حتى ينبذ العمل بالمرة ، وبهذا النبذ يفسد يقينه ويخونه أمينه . فيعتمد على النسبة لاعتقاده وجودها في الخيال . وأنها باللسان شيء روحاني في البال . لا تمحوه شرور الاعمال . ولا تؤثر فيه بحال . وربما يؤديه هذا الاعتقاد الفاسد الى التطاول حتى على الصالحين الذين أمر باحترامهم ومحبتهم ، فيزعم ان فسوقه صلاح وشره خير ببركة شيخه . وانه مضمون في الكل والمآل وفتحه حاصل وانه لا يفصله وان عمل ما عمل عن شيخه وطريقته فاصل

وكلا الفريقين شرعا وحقيقة وعقلا في ضلال مبين . فدليل الشرع كما قد رأيت أول الكلام . ودليل الحقيقة قول الشيخ أبي العباس أحمد التجاني رضي الله عنه « واقول للاخوان ان من اخذ وردنا وسمع ما فيه (أي من الفضل) فطرح نفسه « في معاصي الله وانخذ ذلك حبالة إلى الامان من عقوبة الله في معاصيه « ألبس الله قلبه بغضنا حتى يسبنا فإذا سبنا أمانه الله كافرا فاحذروا من معاصي « الله ومن عقوبته » . وقال الشعراني في « العهود المحمدية » « وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول كل الخلق تحت المشيئة يخاف عليهم دخول النار ما عدى الانبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام . وقد درج الاكابر كلهم على قدم الخوف مع عملهم بالشريعة على الكمال فكيف يليق بغيرهم عدم الخوف » وقال الامام الشاذلي رضي الله عنه « وقد أبهمت علينا الامر لنرجو ونخاف . وذلك سر العبودية وبذلك تنقطع الآمال إلّا من الله ويتحقق الرجاء والاعتماد عليه لا على الاسباب » . والعقل يمنع بداهة في اثر الشريعة والحقيقة القطع في معين بنجاته من عذاب الله او كونه يموت على الاسلام والايمان . لاسيما ان كان يعمل عكس ما أمر به من جهة نسبته الدينية او الطينية . لان القطع حكم غيبي تعلق به العلم الالهي خاصة . فبقي كل انسان مكلف ما عدى الانبياء ومن بشره احد الانبياء بالنجاة رهين القلق والخوف على نفسه من تقلبات قلبه . فلم تبق نسبة واقية لمنتسب . فليتق الله في أنفسهم المنتسبون

١٥ ــ الديوان والغــوث والاقطاب

ليس من شأن السالك الواصل أن يشتغل بالخوض في مسألة الغوث والاقطاب والابدال وديوان الصالحين . او يجعل نصب غرضه رتبة من الرتب او مقامــا من المقامات . حسبما سبق معنا من أن النظر في الكشوفات والابتهاج بالخــوارق قاطع كبير للسالك دون الوصول . وبما ان الكلام في ديوان الصالحين والغوث والاقطاب والابدال والنجباء والنقباء والاوتاد امر كشوفي صحته او عدم صحتــه مقرونان بالاطلاع على ما اطلع عليه المتكلمون بــه . اذ لا دليل عليــه صريح في الشريعة (١) والعقل عاجز عن إدراك هذا المنــاط لقصوره عن ما وراء المــادة (٢) . فغاية أمر الصوفي الواصل تسليم الخبر لاربابه ومحو مجمله ومفصله من صفحة فكره موجها وجهته نحو خالقه وحده بعبودية الاخلاص في الشكر والمحبة . ولا يكون له المعول في كل ذلك إلّا على الخالق مولاه « إياك نعبــد و إياك نستعين » (٣) فإن هؤلاء العباد الصالحين لما صرحوا بذلك لم يدعوا احدا إلى الاستغاثة بالديوان او جعل الاعتقاد به و برجاله من ضروريات الاسلام والايمان . ولو فعلوا لاستحقوا المقت من الملك الديان . وناهيك بأحوالهم في عبوديتهم لله دليلا على عجزهــم وضعفهم عن أن يتصرفوا في ذرة من الوجــود إلّا بقــدرة من الله تصرفهــم وهم لا يشعرون او يشعرون ولا يريــدون من حيث لا يشعر من حولهــم وهم بهــم يفتنون . ولقد سلك ختمهم التجــاني رضي الله عنه وعنهم مسلكهم في دعــوة الناس وارشادهم . لا إلى ديوانهم ولا إلى غوثانيتهم بل إلى توحيد الله والانابة إليــه ودعوته وحده « وان لا تدعوا مع الله أحدا » (٤) . فقد قال رضي الله عنه في وصية من وصاياه لاصحابه « ومن ابتلي منكم بمصيبة او نزلت به من الشر نائبة فليصبر « بانتظار الفرج من الله فان كل شدة لابد لها من غاية وكل كرب لابد له من فرج

---

(١) وليس عدم وجود الدليل بالشريعة بنص صحيح للكذب بهذه الدعوى لان الذين تكلموا بها قوم صادقون عدول بواطنهم أصفى من بواطن مكذبهم . فنحن مصدقون بالصادقين ومكذبون بالكاذبين . لاسيما وان هذا القول لا يترتب عليــه ادنى عمل او اعتقاد تعبدي . وشأن ذويه كشأن فلكيي العصر الذين توصلوا بما لديهم من الآلات والقواعد الفنية الى وزن ابعاد الاجرام السماوية وكيفياتها ومقدار عظمة اجسامها حتى الكواكب التي لا تظهر لابصارنا . فنحن نسلم لهم ابحاثهــم وتفاصيل فنهم ولا نكذبهم بحال وان لم تقبل عقولنا ما ذكروا وان لم يكن في الشريعة تأييد لما فصلوا ما دام غير مصادم بجوهرية اعتقاد او عبادة في الدين . (٢) اذ المسألة من المغيبات التي يعذر المنكر في انكارها حيث لم يكلفه الشرع ولا اربابها أنفسهم بتعقلها فضلا عن الايمان بها . (٣) سورة الفاتحة . (٤) سورة الجن

« وان ضاق به الحال فعليه بالتضرع والابتهال حتى يبلغ بالفرج من الله غاية « الامل » . وقال ايضا « وان اشتد بك الكرب وضاق بك الامر فالجأ الى الله تعالى « وقف ببابه لطفه وسله من كمال لطفه تفريج ما ضاق بك وأكثر الضراعة « والابتهال الى الله تعالى منفرد القلب وناده باسمه اللطيف ما استطعت يسرع « إليك الفرج في أقرب وقت » . وقال ايضا في رسالة اخرى « والعاجز من « عجز حتى عن التضرع والابتهال ومن ضيع نفسه من الله فلا جابر له ولتكن لكم « ببابه إلمامات على مرور الساعات وكرور الاوقات فإن من اعتاد ذلك غشيه « من نفحات رحمته تعالى ما يكون ملحقا لمصائبه ومسهلا لاعبائه ما ثقل عليه من « ملماته فإنه سبحانه غني كريم يستحي بكرمه من ان يسلم العبد المصائب « وهو يتعود الوقوف ببابه » . وقال رضي الله عنه ايضا في وصية من وصاياه الجليلة « فليس لك إلّا الله سبحانه وتعالى فلا تشغل عنه بغيره ولا تجعل لنفسك الى « سواه منتجعا ولا الى الاعراض عن بابه تعللا ولا عن الانحياش إليه في الشدائد « والمضائق والكروب ملجأ ولا في الرخاء وتواتر النعم عن مراعاة شكره مصرفا » . وله رضي الله عنه في كافة رسائله ووصاياه مثل هذا النصح عادة يتتبعها ويلازمها وكفى بها دليلا على تمام اهتمامه بنصح مريديه واخلاصه في إرشادهم الى الايمان الصحيح والدين القيم . حيث لا يبقى لهم اعتماد على مخلوق قط . ويصير كل من تمسك بنصائحه وارشاده يعد كل ما احتفل به متتبعو الخوارق وحديث ديوان الصالحين ومراتب اربابه مما لا يعنيه طبعا . « ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » . فتمحضت الوجهة للخالق تعالى في الاستغاثة والابتهال فلا غوث إلّا هو ولا متصرف سواه . ولم يبق لغيره مجال في ضمير التجاني الواصل مطلقا بفضل إرشاد أستاذه الخالي من التخريف والتشويش والايهام والله ولي التوفيق

١٥ ــ التصوف والباطنية

الباطنية طائفة من الشيعة ظهرت في الاسلام بتعاليم كفرية فانتشرت في الشرق ومازجت غيرها من المذاهب حتى ولجت بين المنقطعين من المتصوفة فجذبت اليها جانبا منهم فراغوا عندها زيغا مبينا . ولذا عد العلامة ابن خلدون في مقدمته مخالطة المتصوفة للباطنية أكبر سبب في اشتغال الاولين بالكرامات والكشوفات والاتيان بما لا يعقل ولم يشرع من الاعتقادات والاحوال والعادات . وقد مال بهذه الاشارة جانب كبير من الناس الى الحكم على عامة التصوف أصلا وفرعا بأنه متسم بتعاليم الباطنية تسمما أرداه وصيره غير صالح للهداية الى الاخرى . والذي يصغى اليهم بظاهر الرأي من غير أن يبحث عن الحقيقة الوضاحة بانصاف يغترطبعا بخلاف من يستشير الحوادث ويستنطق التعاليم ويستفهم الفوارق

في التشريح والتحليل التفريقي الخاص والعام . فإن الباطنية سموا باطنية لقولهم بباطن الكتاب دون ظاهره و يعتقدون بالامام المعصوم . و يسمون بالاسماعيلية أيضا والقرامطة (١) . وغايتهم إبطال العمل بالشرائع مطلقا . وما كان الصوفية الصادقون بالذين تنطلي عليهم حيل ودسائس هذه الفئة المارقة . وذلك لامور

١ — ان صدق الصوفية التام لا يكون إلّا بالعمل بظاهر الشريعة عملا متواليا حتى الممات من غير فتور . — ٢ — ان أصل التصوف صدق الايمان والعمل على حفظ هذا الصدق حتى اليقين . — ٣ — ان الصوفية لا يعتقدون بعصمة مخلوق ما عدى شخص النبي ، وانما يعتقدون الحفظ في جانب شخص الولي المفتوح عليه ليس إلّا . — ٤ — لقد مارس مذهب هذه الطائفة الزائغة حجة الاسلام الغزالي رضي الله عنه ودرس فنونه قبل أن ينخرط في سلك التصوف كما ذكر ذلك في حديث تربيته لنفسه (٢) فلما اطلع على ما كل للباطنية من المعتقدات الفاسدة و زيفها ببراعة تعقله في علوم الشريعة مال الى الصوف وانكب عليه علما وعملا حتى أصبح من خاصة أهله المفتوح عليهم فها قال إذ ذاك فيما شهد للتصوف من كمال ايمان وحسن يقين عبادة ومعاملة ومكاشفة أنه مشوب بدسائس الباطنية بل قال « اني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة الخ » (٣) . — ٥ — اذا كان لبعض المتصوفة ميلان الى بعض معتقدات الباطنية فليس ذلك بحجة على فساد التصوف وطرقه الحالية من جهة صدقها . بل نعد اولئك المتصوفين غلاة ابتداع وأرباب انقطاع . قد اغتالهم خلل يقينهم في اعمالهم . وكان الشيطان لهم بالمرصاد فأردى أفكارهم . فإن بقيت منهم بقية في الارض فهي البكطاشية (٤) في الشرق لاشتمالها على تعاليم فاسدة ترجع الى

---

(١) وأصل دعوة الباطنية قائم على ابطال الشرائع . لان الغيارية وهم طائفة من المجوس راموا عند شوكة الاسلام تأويل الشرائع على وجوه تعود الى قواعد اسلافهم و رأسهم حمدان قرمط وقيل عبد الله بن ميمون القداح وهم يبحون المحرمات والمحارم و يستعجلون اللذات و يعتقدون أن الله لا موجود ولا معدوم . (٢) أي في كتابه « المنقذ من الضلال » . (٣) راجع الصحيفة ٧٦ من هذا الجزء . (٤) البكطاشية او البكداشية طريقة من طرق غلاة المتصوفة تنسب الى شيخ يسمى الحاج بكطاش ولي و يقال ان مؤسسها الحقيقي هو « باليم بابا » المتوفى سنة ٩٢٢ هـ . وقد ظهرت هذه الطريقة في الاناضول اوائل القرن السادس المسيحي وكان لها نفوذ راسخ في بلاط الدولة العثمانية ورؤساؤها هم الحاكمون على جند الانكشارية ومن جملة تعاليمها القول بالتناسخ و رفع الفرائض إلّا على المبتدي (راجع الصفحة ٣٦٧ من الجزء الثاني من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » النسخة العربية)

أصول ما ذكرنا . — ٦ — لدينا في الطريقة التجانية كتاب « الترغيب والترهيب » (١) جاء من جملة فصوله « فصل في التعرض لما هو من المقالات كفر » (٢) نقتطف منه النبذ الآتية « ... ان كل مقالة صرحت بنفي الربوبية او الوحدانية او عبادة احد غير الله او مع الله فهو كفر كمقالة الدهرية (و بعد ان عدد فرق الكفار عطف عليهم بقوله) وكذلك القرامطة واصحاب الحلول والتناسخ من الباطنية والطيارة من الروافض ..... وكذلك من ادعى مجالسة الله والعروج اليه ومكالمته او حلوله في أحد كالاشخاص كقول بعض المتصوفة والباطنية والنصارى والقرامطة ..... وكالمعطلة والقرامطة والاسماعيلية والعبيدية من الرافضة وان كان بعض هؤلاء قد أشركوا في كفر آخر مع من قبلهم . وكذلك من دان بالوحدانية وصحة النبوءة ونبوءة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولكن جوز على الانبياء الكذب فيما أتوا به ادعى في ذلك المصلحة بزعمه أو لم يدعها . فهو كافر بإجماع كالمتفلسفين و بعض الباطنية والروافض وغلاة المتصوفة واصحاب الاباحة فان هؤلاء زعموا ان ظواهر الشرع وأكثر ما جاءت به الرسل من الاخبار مما كان ويكون من أمور الآخرة والحشر والقيامة والجنة والنار ليس منها شيء على مقتضى لفظها ومفهوم خطابها وانما خاطبوا بها الخلق على جهة المصلحة لهم اذ لم يمكنهم التصريح لقصور افهامهم . فمضمن مقالاتهم ابطال الشرائع وتعطيل الاوامر والنواهي وتكذيب الرسل والارتياب فيما أتوا به ..... وكافر من ادعى النبوءة لنفسه او جوز اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب الى مرتبتها كالفلاسفة وغلاة المتصوفة ..... وكذلك أجمع المسلمون على تكفير من استحل القتل او شرب الخمر والزنا مما حرم الله بعد علمه بتحريمه كاصحاب الاباحة من القرامطة و بعض غلاة المتصوفة ..... وعلى تكفير الباطنية في قولهم ان الفرائض اسماء رجال أمروا بالبراءة منهم . وقول بعض المتصوفة ان العبادة وطول المجاهدة اذا صفت نفوسهم أفضت بهم الى اسقاطها واباحة كل شيء لهم و رفع عهد الشرائع عنهم ..... وكذلك نقول فيمن قال ان المراد بالجنة والنار والحشر والنشر والثواب والعقاب معنى غير ظاهره وانها لذات روحانية ومعان باطنة كقول النصارى والفلاسفة والباطنية و بعض المتصوفة ..... »

فتبين والحمد لله أن لا نسبة بين الصوفية الاخيار والباطنية الاشرار إلّا في رؤوس الذين لا يعقلون من فنون الفريقين غير الاسم فهم يجادلون بغير علم . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

---

(١) تأليف العلامة الشريف مولاي العربي بن ادريس العلمي الحسيني رحمه الله تعالى كان من جهابذة العلماء السالكين في هذه الطريقة التجانية من باب الشريعة أتم تأليفه عام ١٢٩٩ . (٢) الصفحة ١١٩ الجزء الثاني طبع فاس ١٣٢٠

١٧ ـــ المشيخة معدومة

منذ خاتم الولاية المحمدية انقطعت المشيخة بمعناها الحقيقي . أي الدلالة على الله وتوصيل المريد الى « مقام التوحيد والعرفان » . وقد يقي النفع ساريا بطريقته فيمن تمسك بها اذا روعيت شروطها المشروطة ، ومقاصدها المبسوطة . وأهمها الشرطان الرئيسان في صحبة المشائخ . الاول موالاة صاحب الطريقة بصفته وليا لله تعالى فبموالاته تقع موالاة الله تعالى . الثاني اتخاذ صاحب الطريقة مرشدا ودليلا على الاداب اللائقة بالحضرة العلية بما أنه أدرى الناس بها . وكونه عبدا من عبيدها الناشطين في خدمتها * والمقدمون لتلقين ما لهذا الختم رضي الله عنه بعد وفاته من الاداب والاذكار نائبون عنه في التوصيل والمراقبة والارشاد والافادة وهم الذين بشير اليهم بقوله « الصحبة لا تكون إلّا للحي »(١) بشرط أن لا يحيدوا عن أثره وهديه . ولا يصح لاحدهم كيفما كان قدره في العلم والمعرفة أن يستقل بالنسبة والدعوى والارادة دون القدوة التجاني رضي الله عنه او يتظاهر بالتربية . أو يدعو الناس الى الطريقة ناشرا لها بين العامة بكل تساهل اصطيادا لناموس الشهرة أو رغبة في متاع الدنيا . بل لا يكون المقدم مقدما حتى يكون سائرا سيرة سلفية عاملا في دينه بخبرة و بصيرة . متمسكا بالكتاب والسنة . ذا همة عالية واعراض عن الشهرة والرئاسة . ومن هذا يظهر لك « أن غالب مقدمي

(١) ونص مقاله رضي الله عنه في هذه المسألة « ان الله سبحانه وتعالى جعل في « سابق علمه ونفوذ مشيئته ان المدد الواصل الى خلقه من فيض رحمته هو في كل عصر « يجري مع الخاصة العليا من خلقه من النبيئين والصديقين . فمن فزع الى أهل « عصره لاحياء من ذوي الخاصة العليا وصحبهم واقتدى بهم واستمد منهم فاز بنيل « المدد الفائض من الله ومن أعرض عن أهل عصره مستغنيا بكلام من تقدمه من « الاولياء لاموات طبع عليه بطابع الحرمان وكان مثله كمن أعرض عن نبي زمانه « وتشريعه مستغنيا بشرائع النبيئين الذين خلوا قبله فيسجل عليه بطابع الكفر . « والدليل على أن الصحبة لا تكون إلّا للحي قوله صلى الله عليه وسلم لابي جحيفة « رضي الله عنه « سل العلماء وخالط الحكماء واصحب الكبراء » . فالعالم دلالته « على الامر العام أمرا ونهيا بما يوجب المدح عند الله وسقوط اللائمة عن العبد « ونهايته الجنة . والحكيم دلالته على التقرب الى الله تعالى بالطهارة من أدوية « النفوس ومتابعة الهوى ونهايته منازل القربة . والكبير دلالته على الله من حيث « محو النفس والبراءة من التدبير لها بكل ما يجلب المصلحة لها دنيا وأخرى و بكل « ما يدفع المضرة عنها دنيا وأخرى ونهايته الله . ويؤخذ من هذا أن الصحبة لا « تكون إلّا للحي اذ الميت لا يصحب ولا يكلم ولا يخالط »

زماننا هذا سامحنا الله واياهم وعافانا من الطامة الكبرى التي أصابتهم لا يصلح للتقليد في تلقين الاوراد ولا يصح الاخذ عنه ولا التمسك به والاعتماد كخلوه من شروطه او بعضها وجهله بالمقصود في ذلك المقام » (١) . هذا في الطريقة التجانية القريبة العهد . أما في ما عداها فقد تبدلت الاوراد غير الاوراد ومبادي الاعتقاد ومظاهر الاعمال . فلو نشر الله الجيلاني والشاذلي والكلوتي رضي الله عنهم وشاهدوا المنتسبين اليهم آنئذ في اعمالهم واحوالهم لتبرأوا منهم ومما يعملون

فالمشيخة بمعناها الاصلي الذي كان عليه هؤلاء الكمل مفقودة لا في الطريقة التجانية ولا في غيرها كما ترى . لان من شرط الشيخ المعرفة والتعفف عن ارزاق الناس والتباعد عن آفة الرئاسة (٢) . والذين نراهم الآن يتظاهرون بالمشيخة باسم شخصيتهم او نسبتهم ما هم إلّا دجاجلة كذابون . وأكبر دليل على تدجيلهم وكذبهم كونهم يستعملون الوسائل الترغيبية لنشر طريقهم وتشهير امرهم مع ان الطرق الحقيقية لا تنشر بالتشهير (البروباقاند (٣) . بل بنورانية الحق وسر الصدق وحتى تكون هي المطلوبة لا الطالبة . لانها علم ومن شأن العلم صيانته إلّا عن أهله . وحتى يكون الراغب فيها متأهل الصدر لعمليات الايمان والتقوى . كما نفهم باستقلال من طريقتنا التي تقلدناها عن بصيرة في مآخذها من الكتاب والسنة اذ ليس ثمة من وبال قد أجهد الطرق وصرفها عن مقاصدها الاساسية الى التعطيل من بثها بين العامة على ما فيهم من السذاجة والجهل بأصول الدين وفروعه وسوء اعتقاد وتزلزل يقين ، فلها يتمسكون بها بغير يد شرعية ولا آداب قلبية . يغلون الماء طبعا بلون إنائه . ويسند الامر الى غير أهله . فيسري مع ذلك الاعتقاد الشركي الفاسد والاقاويل الخرافية والمبتدعات التي لا يقبلها الشرع ولا ألطبع مما لم ينزل الله به من سلطان . ولله عاقبة الامور

١٥ ــ التقاطع والتنافر

اللغو عند العامة من الطبائع الغريزية لان الغالب عليها الجهل . ومن طبع الجاهل اللغو مطلقا ما لم تقيده قيود الادب ، ومن طبائع البشرية التحاسد وحب الاستعلاء والتنافس على الشهرة والسمعة . والدين ما جاء إلّا ليحمل الناس على مكارم الاخلاق . والطرق على هديه قد تولت جمع الناس عليه . ولكن الشر أريد بعامة الطرقيين أجروا على غير المراد من الطرق . فصار مثلها يقع بين العوام هذا اللغو المتأجج بنار الحسد والتنافس في المراتب والمعاملات الدنيوية يقع ايضا في الغايات

---

(١) الترغيب والترهيب ص ٨٤ ج اول طبع فاس . (٢) سنذكر في غير هذا المحل صفة الشيخ المرشد بإسهاب . (٣) التشهير في الفرنسوية

والتعلقات بالمشائخ وما استمسكوا به من الطرق الى حد صار فيه التقاطع والتنافر امرا طبيعيا بين الطرقيين لانهم لم يدخلوا الى طرقهم من باب إخلاص الدين لله حنيفا . او بمعنى آخر من باب الشريعة القاضية بفرضية أخوة المسلم والتوادد بينهم . بل دخلوا لاغراض مختلفة ما بين دنيوية وأخروية فصاروا يتقاطعون ويتنافرون لاجلها . والنجاح في الطرق المستقيمة لا يكون إلّا بالاخلاص . والمخلص سليم القلب طبعا اذ مرماه الحب في الله والبغض في الله

وهذا التقاطع لم يكن خاصا بالطرقيين بل قد تناول قبلهم اصحاب المذاهب الفقهية والاعتقادية حينما اشتغلوا بالجدل والتزاحم على الشهرة والمناصب الرسمية عند الملوك . فهو داء عضال لم يدع فرقة من الفرق ولا اصحاب رأي من الاراء او مذهب من المذاهب إلّا وبذر بينهم وبين مباينيهم جراثيمه حتى يتباغضوا الى حد التقاتل وضروب الانتقام . وراجع التاريخ تجد الحقائق الناصعة عن غرائب انتقام الشافعية من الحنفية والعكس وعن ما حصل بين الشافعية والحنابلة وبين هؤلاء جميعا والمالكية وما كان مبذورا بين علماء هذه المذاهب وبين علماء المذاهب الاعتقادية والكلامية وغيرهم بذور العداء والتنافر والتقاطع . فتعرف ان هذا البلاء غير خاص بالطرقيين بل هو شائع مع كل رأي من الاراء في الاجتماع والدين . واصله ناتج عن الاهواء الشخصية والاغراض البشرية التي هي من طباع النفوس الدنيئة وما جاء العلم والدين والتصوف إلّا لمحقها ومحوها . فما كان من مكر هذه الطباع إلّا استخدام العلم والدين والتصوف واستعمالها في سبيل الاستئثار والانتفاع بمتاع الدنيا والزيادة فيه حب الاستعلاء في المناصب والوجاهة . فصار التقاطع باسم العلم او الرأي او المذهب او الطريق امرا مندوبا إليه بالطبع ضد المخالف لذلك العلم او المذهب او الرأي او الطريق . حتى ان كثيرا من الطرقيين وقاع المذاهب لا يتناكحون مع مخالفيهم تعصبا لاهواء نفوسهم . وتجد بعض جهالهم ينابذ السبحة المخالفة لهيأة سبحته ويفر منها كما يفر من الافعوان

وتعاليم المشائخ مؤسسي هذه الطرق الصحيحة الدالة على الله بريئة من التقاطع والتنافر الواقعين بين اتباعها اليوم . بل وحائة على وجوب التوادد بين كافة المسلمين ومعاملة الخلق جميعا بخلق حسن . فإن من جملة شروط الطريقة التجانية شرط رئيسي فحواه « وشرطه (اي شرط ذكر الورد التجاني) المحافظة على الصلوات « في الجماعات والامور الشرعية وإياكم ولباس حلة الامان من مكر الله في الذنوب « فإنها عين الهلاك وترك المقاطعة مع جميع الخلق وآكد ذلك بيكم وبين الاخوان « يعني في الطريقة وزوروا في الله واصلوا في الله واطعموا في الله تعالى ما « استطعتم من غير تعسير ولا كد »

وكان من شيم الشيخ التجاني رضي الله عنه وهي من الشيم النبوية التي

يجب على محبيه واتباع طريقته ان يقتدوا به فيها « انه كان يواسي اخوانه واصحابه « وكل من له معرفة في الله بانواع المواساة ويحسن اليهم فيطعم جائعهم ويشمل « ضائعهم ويكسو عاريهم ويرفد فقراءهم ويعين ضعفاءهم اذ هو رضي الله تعالى « عنه اشد الناس اهتماما بأهل الاخوة الدينية يتألم لمصابهم اكثر مما يتألم لذوي « نسبه ورحمه اعظم الناس عنده قربا اكثرهم في الله تعالى حبا فيقرب الانسان « عنده ذلك ولو كان من ابعد الاجانب ويبعد عنه القريب ولو كان من الاقارب « تجده يستعظم حقوقهم ويرى ان القيام بها غير مستطاع »

∴

١٢ — خرافـــات العـــامـــة

نظرة بسيطة في الخرافات المحشوة بها ادمغة جهلة الطرقيـــن يدرك الباحث مصادرها وانها لم تكن من اصول الطرق ولا من تعاليمها الصادقة . بل هي محض تقاليد جاهلية سرت ولا زالت تسري مع العامة الجاهلـــة . فأي عامي دخل في طريقة من الطرق إلّا وحمل معه تلك التقاليد واستعملها في طـــوره الجديد . فيأخذها عنه غيره كأنها من تعاليم طريقه ونظام فريقـــه . ودليل ذلك ما هـــو مشاهد من انكباب العامة على الاماكن الخالية وينابيع المياه الحارة من سكنى الارواح والجن والشياطين والرحلة الى زيارتها والتبرك بحجارانها واشجارهـــا وذبح القربان عندها وتبخيرها وطلب قضاء الحاجات منها . وكزيارة كثير من الاضرحة ومنها ما هو مجهول الاصل او مزور وذبح القربان لها لاغراض في النفوس . وكالاعتقاد في الرنوج والسحرة والكهان وما جرى مجراهم من كتبة الحروز وارباب الرموز كل تلك الاعتقادات والخرافات سارية في العامة ومالكة لقلوبها من غير داع طرقي ولا عامل صوفي

هل الطرق غير التصوف؟

لقد علم القارئ المنصف مما تقدم وأن التصوف الصادق هو لب الدين الاسلامي وسيرة السلف الصالح . بما أن الصوفي هو الرجل العامل بالكتاب والسنة تحققا وتخلقا عملا ظاهريا و باطنيا . بل باطنيا أكثر منه ظاهريا . فهو السلفي حقيقة لانه سالك مسلك السلف الكرام من الصحابة والتابعين الذين كانوا أدرى الناس بأعمال الرسول صلى الله عليه وسلم . وأفهمهم لمنطوق القرآن والشريعة المطهرة . فقد كانوا محتفلين بشعائر الدين أيما احتفال مقبلين على الاعمال الصالحة والنوافل من صلاة وصيام وصدقة وذكر . متخلقين بالاخلاق الحسنة . متورعين جهدهم عن الشبه والريب . آخذين في الطاعة بكل عزيمة . فالعامل بعملهم هو السلفي وهو الصوفي أيضا ولو لم يكن ذا سبحة وخرقة . واذا طبقنا هيأة هؤلاء السلف وأخلاقهم واحوالهم على ذوات المشائخ الكمل الذين بلغنا من طريق التواتر المستفيض احوالهم واخبارهم و وصاياهم وعلومهم وجدناهم في محشر واحد معهم . قد التحقوا بهم وحتى في أحرج المواقف حيث انقلب الوسط غير الوسط . وشاعت الشبه والريب . وكثر الكذبة والدجاجلة وعباد الدينار والدرهم ، و المتزينون بالسبح للشهرة واصطياد الدنيا . ولما ثبت عن هؤلاء المشائخ الكمل كالجنيد والكاتمي والجيلاني والشاذلي وخاتمة الواصلين المربين التجاني رضوان الله عليهم أجمعين أنهم قد وضحوا للخلق باعمالهم مسلك السلف وارشدوا من فتح الله بصيرته لارشادهم نحو هذه السيرة بملازمة العمل بالكتاب والسنة والتخلق بالاخلاق الحسنة ظاهرا و باطنا ، و ربط ذلك العمل وذلك التخلق بذكر الله حيث يبعث الله عند ذكره رحمته فتنسخ ما يلقي الشيطان في قلب الذاكر إبان الغفلة . و يذكر الرب عبده في من عنده . مع مراعاة المقاصد التي مرت معنا — لما كان تأسيس الطرق غير خارج عن هذا الغرض الشريف النوراني الذي هو غرض النبوة تماما في إرشاد الخلق فقد يثبت بداهة وأن طرق هؤلاء الكمل الواصلين في الارشاد الى الحضرة الالهية هي نفس التصوف الذي هو عين سيرة السلف الصالح وهدى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم

وانما يقع التمييز بين هذا اللب الخالص وبين القشور التي أحيطت به من كل جانب بفعل أهواء البشرية بعرض كل ذلك على الكتاب والسنة بإمعان وبصيرة من غير تحيز ولا تعصب مع العلم والادراك لايماني ولا منافرة بالعقل خاصة لان العقل قاصر في الدينيات والمعاديات (١) . فإن الطريقي السلفي الواصل هو الذي يقوم بأعماله الدينية ويهتم بها قبل كل شيء . لا لغرض بل شكرا لكثرة مولاه طالبا غفرانه ورضاه ، ويتباعد عن الشبه والريب فضلا عن المكروه والمحرم بقدر الامكان . ولا يقدم على شيء حتى يعرضه على الكتاب والسنة ويعرف حكم الله فيه . ولا يعتقد في مخلوق أدنى تأثير في شيء بل لا يعتقد في شيخه إلا أنه مرشده الى مقام التوحيد والعرفان فيحبه لله . وأن لا يشتغل بكرامة أو خارق ، وأن لا يمد عينه الى دنيا او متاع أخيه . غايته تزكية باطنه من أدران البشرية وتعميره بنورانية الايمان الصحيح

هذه هي الحقيقة الناصعة التي أفهمها من طريقة أستاذي أبي العباس أحمد التجاني رضي الله عنه وأرضاه ومن سيرته وأحواله ووصاياه وأذكاره. وهو خاتمة الواصلين المربين في عصرنا فيه بحر المشائخ الكاذبين والدجاجلة المبتدعين بأمواج الضلالات . لاني دخلتها من باب الكتاب والسنة ونظرت اليها بهذه البصيرة. ولست على يقين من أن كل التجانيين فاهمون هذا الفهم أو داخلون من هذا الباب فلقد استحوذ على أكثرهم ما استحوذ على غيرهم . لانه ما كل الطرقيين بل وما كل

---

(١) راجع الصحيفة ٤١ وما بعدها من هذا الجزء واعلم أني بعد كتابة ما كتبته هنالك وطبعه راجعت « الاعتصام » فعثرت في الصحيفة ٢١٦ من الجزء الثالث منه فصلا مسهبا استغرق نحو ٢٨ صفحة بث فيه العلامة الشاطبي رحمه الله البراهين القاطعة على قصور العقل الانساني وفساد حكمه . فحمدت الله على تمام الموافقة ولاتمام الفائدة أقتطف من هذا الفصل أهم تعابيره وأحيل القاريء على بقيته هنالك وأوله * « النوع الثالث أن الله جعل للعقول في ادراكها حدا تنتهي اليه لا تتعداه ولم يجعل لها سبيلا الى الادراك في كل مطلوب . ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في ادراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون . فمعلومات الله لا تتناهى . ومعلومات العبد متناهية . والمتناهي لا يساوي ما لا يتناهى . وقد دخل في هذه الكلية ذوات الاشياء جملة وتفصيلا وصفاتها وأحوالها وأفعالها وأحكامها جملة وتفصيلا فالشيء الواحد من جملة الاشياء يعلمه الباري تعالى على التمام والكمال بحيث لا يعزب عن علمه مثقال ذرة لا في ذاته ولا في صفاته ولا في احواله ولا في أحكامه بخلاف العبد فإن علمه بذلك الشيء قاصر وناقص سواء كان في تعقل ذاته أو صفاته أو احواله او احكامه . وهو في الانسان أمر مشاهد محسوس لا يرتاب —

زعماتهم ومشائخ تربيتهم الحاليين بسالكين هذا المسلك لسوء الحظ . ولهذا ظن الناس وأن الطرق غير التصوف لما يشاهدون في الطرقيين من الغلو في الاعتقاد المؤدي الى الشرك ، والفرح بالجزاء والنعيم من غير سعي لا في تعمير الباطن ولا في تزكية الظاهر . ولما يرون في مشائخهم (وراثة أو احترافا واصطناعا) من الجهل بأصول الدين فضلا عن فروع الطريق . والتكالب على جمع الدنيا والتنعم بزخرفها . لكن اذا وقع فصل ما في الطرق وتحليله تحليلا فنيا بإرجاع ما من الكتاب والسنة اليهما وما من الاهواء اليها تبين الحق لطالبه . غير أن كيفيات التوجه في هذا السبيل نحو هذا الغرض الدقيق شتى ذات صور مختلفة باختلاف أمزجة الطالبين وتباين أفهامهم في ادراك الحق ضعفا وقوة . والصادق منها نادر لان ربك هو أعلم بمن اتقى

ولقائل أن يقول ان التصوف الاصلي الذي كان عليه السلف الصالح هو غير هذه الفروع الطرقية الحاضرة . بدليل أنه كان بالخلوة والمجاهدة والزهد التام في الدنيا و زخرفها . فكيف آل الامر بالطرقيين الى الانتساب الى التصوف وهم ياكلون و يشربون و يتمتعون بما يتمتع به الناس و يزاولون ما يزاوله غيرهم فمنهم الصانع والتاجر والزارع . ولا يذكرون الله إلا في اوراد صباحية ومسائية تابعة للصلوات المفروضة و يزعمون مع هذا أنهم صوفية سلفيون يسلكون مسلك أولئك من غير أن يعملوا عملهم

فالجواب أن التربية بالمجاهدة والخلوة انقطعت منذ ظهور المشائخ الكذابين المستنزفين لدنيا الناس بواسطتها . وأذن للمشائخ الصادقين من الحضرة المحمدية بإرجاع التربية الى عهدها الاول عهد تقويم الاخلاق بالتوبة والتقوى والعمل بالكتاب والسنة من غير تضييق على النفس بخلوة أو مجاهدة . وتلك سيرة الصحابة الكرام . فقد كان منهم الصانع والتاجر والزارع وكانوا أقوم الناس أخلاقا وأكملهم إيمانا وأنصحهم توبة وأعبدهم لله يذكرونه صباحا ومساء و يتهجدون من الليل ما يستطيعون « تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله و رضوانا سيماهم »

ـ فيه عاقل تخرجه التجربة اذا اعتبرها الانسان في نفسه (الى ان قال) فمذهبنا (يعني اهل السنة) ان لا نحكم العقل أصلا . (الى ان قال) فاقتضى للعاقل أن لا يجعل العقل حاكما باطلاق وقد ثبت عليه حاكم باطلاق وهو الشرع بل الواجب عليه أن يقدم ما حقه التقديم ـ وهو الشرع ـ و يؤخر ما حقه التأخير ـ وهو نظر العقل ـ لانه لا يصح تقديم الناقص حاكما على الكامل لانه خلاف المعقول والمنقول (الى ان قال) فحاصل من هذه القضية أنه لا ينبغي للعقل ان يتقدم بين يدي الله و رسوله بل يكون ملبيا من وراء وراء »

« في وجوههم من أثر السجود » . الى جال ذلك العهد النفيس أرشدت الطرق — طرق التوبة والذكر والتقوى لا طرق الرقص والطبول ونهب الارزاق — ارد أصحاب هذا العهد البئيس إلى الحق بواسطة اساطين الاولياء العلماء بالله والذين يحبهم سبحانه لتقربهم إليه بالنوافل وكانت طرقهم هداية الكتاب والسنة يربطون المريد بها بالعهد لتتم مواطبته . ولكن لغموض هذه الهداية عن عمي البصائر حيل بينها و بين اربابها كما حيل بينها و بين غيرهم . وكان المهتدون بها قليلا . « وقليل من عبادي الشكور »

فالحاصل ان الطرق هي نفس التصوف باعتبار اصلها ونظامها اللذين كان عليهما مؤسسوها من قصد ترقية الايمان ظاهرا و باطنا . والعمل بالكتاب والسنة حسا ومعنى . وكل من لا زال فيها يعمل بهذا العمل الاساسي فهو صوفي سلفي محمدي بكل معاني الكلمات . وان الطرق غير التصوف بل هي ضلالات محضة باعتبار ما يتمسك به عامة الطرقيين ومشائخهم الحاليين من التمسك بالقشور كالدعاوي الباطلة والعمل بالحيل والمكائد للتمتع بالزخرف ومنابذة بعضهم البعض بداعي هذا التنافس على المتاع الفاني او الباقي

فتأمل هذا البيان جيدا وضع يدك عليه فإنه نفيس . ولا تحكم حكما عاما على كافة المؤمنين فإن الله تعالى هو المسيطر على القلوب من يهده فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا

الواصل التجاني بمسلك الشيخ التجاني

« من دخل من باب فليخرج منه » التجاني

للطرق الصوفية السلفية بابان باب شرعي وباب ابتداعي . فمن دخل إليها من باب الشرع فقد فاز . ومن دخل من باب الابتداع فقد خسر هنالك المبطلون ان لم يتداركه الله برحمته . وكذلك جعل الله لكل أمر ديني بابين . فالصلاة باب شرعي وهو الاخلاص وباب ابتداعي وهو الرياء . وللشرب في العادات بابان فدخوله من باب الشريعة تناول الاناء باليمين والتسمية وتثليث المص بالتنفس خارج الاناء والانتهاء بحمد الله ودخوله من باب الابتداع التناول بالشمال وعدم التسمية والخروج بالغفلة عن حمد الله . وقس على هذا جميع الامور . فنحن ما دخلنا بحمد الله هذه الطريقة المحمدية إلّا من باب الكتاب والسنة كما يتضح لك من النبذ التي نرتبها بعد من أقوال الشيخ التجاني . وسترى أن اضافتها الى الكتاب والسنة يسيرة على كل ذي قلب بصير

واعلم أن فنون الطريقة تنقسم الى ثلاثة أقسام يجدر بنا تبيينها لتتشخص فيها هيأتها ويتضح شأنها . فإن الناس قد اعتادوا اثارة الصور المبهمة والحكم عليها دون تصورها فانهال الشر من هذا الجانب على المعتقدات الدينية فأبادها . فالقسم الاول من الطريقة التجانية اقامة الكتاب والسنة اعتقادا وعبادة ومعاملة على الوجه الاحوط في الدين كالخروج من خلاف المذاهب الاربعة في بسملة الفريضة وتلاوة المأموم للفاتحة والسلام على اليسار . والقسم الثاني اعمال الطريقة اللزومية كالوردين الصباحي والمسائي والوظيفة اليومية والهيللة الاسبوعية . وهي أذكار شرعية أصولها قائمة بالكتاب والسنة ولها نظائر بهما . والقسم الثالث الاذكار الاختيارية وتفاصيل ما في مقابلة هذه العمليات اللزومية والاختيارية بشروطها من الثواب في المعاد فالقسم الاول أمر لازم على كل مؤمن لا محيد عنه . والقسم الثاني شأن تعبدي على شرط القسم الاول . ولا لزوم له للمؤمن إلّا اذا رغب في تقييد عمليات توبته . وموالاة سير انابته . فيكون آنئذ لازما الى نهايته ، وإلّا ففي قيامه بالكتاب

والسنة غاية كفايته . وهذا الشأن التعبدي في الطريقة التجانية من الذكر اللزومي لم يكن فيه مظنة المشقة حتى يكون من قبيل المكروه . بل هو عمل قليل بالمداومة عليه يتم حب الله له . لقوله عليه الصلاة والسلام « أحب العمل « الى الله ما دام عليه صاحبه وان قل » . وهو التزام لمندوب شرعا من ذكر الله تعالى « يقصد مثله أهل العقل والفراغ والنشاط » (١) فلا يصدق عليه في هذا القسم معنى البدعة (٢) حتى يعمم عليه حكم الكراهة . لان الله تعالى شرع لعباده ذكره وحثهم عليه لاسيما بالعشي والابكار . وقد قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم « أموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله » (٣)

اما القسم الثالث فهو نتائج ما يحصل في القسم الثاني على شرط القسم الاول وترغيب لهما . ولكن من واجبات المرء المخاص في القسم الاول والثاني ان يرجو ما في الثالث ولا يجعله غاية لعملياته . اما ما عدى ذلك من الاراء الكشوفية والاقوال الفلسفية الفائضة عن شؤون الالوهية والاكوان والخلق والنشوء والمعاد وعجائب التصرفات فتلك مباحث لا تعني التجاني الواصل . وانها هي فضول في حقه ينهاه عنها الشرع والشيخ والطبع

فلما كان إحكام العمل بالكتاب والسنة اساس هذه الطريقة ، والدخول فيها امر كمالي غايته ذكر الله تعالى بترتيب خفيف على النفس لا يؤدي الى الملل والحرج . فهو مما قل ودام . كما هي سنة خير الانام عليه الصلاة والسلام . ففي الوصول الى هذا الحد يمكن كف تشوفات النفس الى القسم الثالث او التشوف اليه مع الرجاء . لان الله تعالى وعد عباده ورغبهم في فضله . ووصف لهم في كتابه العزيز انواع الجزاء وما فيها من اللذائذ والنعيم ، وقد وصفت السنة ايضا فضل الله تعالى بكيفيات اخرى لم تخط للنفوس عندها خطا تحدها فيه عن التشوف للنعيم المقيم . فإن كان الله تعالى ورسوله يصفان جزاء دار النعيم ترغيبا للعاملين ولم يحدا حدا دونه لان فضل الله عظيم فان رد ذلك الترغيب بميزان العقل تعسف وتقدم بين يدي الله ورسوله . وقد تقدم ما في حكم العقل من الخطر والخطإ والخطل

ولتصوير القسمين الضروربين للطريقة التجانية من اقوال الشيخ التجاني رضي الله عنه ليتضح وصول من سلك عليها الى الله باخلاص نحشرهنا نبذا من هذه الاقوال الجليلة. يمكن للخبير بأبسط نظر ان يردها إلى اصولها من الكتاب والسنة وفي ذلك آية الحق وبيان للناس لعلهم يعقلون

---

(١) الاعتصام ص ١٤١ ج ٢ . (٢) كما حقق ذلك الشاطبي في الاعتصام في معنى النذر والالتزام . (٣) سورة المنافقون

١ ــ إذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع فما وافق فخذوه وما خالف فاتركوه

٢ ــ ان الناس ما خلقوا في هذه الدنيا إلّا لعبادة الله وتوفية أوامره واجتناب نواهيه وان توفية أمر الله والقيام بحقوقه من آكد الواجبات وأعظم التوجهات الى الله تعالى قضى بذلك بحكم المرتبة الالهية والشرائع النبوية قال تعالى « وما خلقت الجن والانس إلّا ليعبدون »

٣ ــ الواجب للصلاة تكميل الطهارة من الحدث والخبث وليتعلم العبد كيفية الطهارة من الحدث بتكميل غسل اعضاء الوضوء والغسل فإن أكثر العامة اليوم متلاعبون بغسل اعضاء الطهارة لا يستكملونها فصلاتهم باطلة يعرف ذلك من باشرهم في هيأة الوضوء فإن من فسدت طهارته فسدت صلاته

٤ ــ ثم آكد ما يحافظ عليه من امر الله الصلوات الخمس بجميع احكامها ومقتضياتها ولوازمها وهي مضبوطة في كتب العلماء فالواجب لها المحافظة على شروطها وهي معلومة واستكمال فرائضها وهي مشهورة وتثقيل هيأتها في الركوع والسجود على الحد الذي ذكره صلى الله عليه وسلم في الخبر الصحيح بقوله ثم تركع حتى تطمئن راكعا ثم ترفع حتى تستوي قائما ثم تسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ترفع حتى تستوي جالسا ثم تسجد حتى تطمئن ساجدا ثم افعل في بقية صلاتك هكذا . واحذروا كل الحذر من الوقوع في الهلاك الذي وقع فيه الناس من عدم مبالاتهم بتكميل أمر الصلاة فإنهم ينقرونها نقر الديكة للحب وذلك مبطل لها بشهادة قوله صلى الله عليه وسلم في الخبر الصحيح للرجل الذي رآه يفعل ذلك ارجع فصل فإنك لم تصل وهو يصلي كذلك ثلاث مرات على تلك الهيأة التي هي كالاسراع في الركوع والسجود ثم في الرابعة علمه الكيفية السابقة وقد قال صلى الله عليه وسلم صلوا كما رأيتموني أصلي فإنه صلى الله عليه وسلم كان يتم الركوع والسجود بالطمأنينة وحقيقة الطمأنينة في الشرع عدم الاضطراب والسكون ومعناها ان الراكع والساجد إذا بلغ حد الركوع والسجود يتراخى فيهما قدر ما يسبح الله ثلاث تسبيحات وهو راكع او ساجد والمطلوب في الشرع أن يأتي الانسان لصلاته مثل إتيانه لنومه اذا غلبه النوم فإن آتي النوم لا يأتيه مستعجلا ولا متخففا بل يلقي عنه جميع الاشغال ثم ينام منحطا للنوم مطمئنا فكذلك حالة الصلاة يأتيها متشاغلا بها قد ألقى كليته إليها تاركا لما يشغله عنها ثم يفعلها بشروطها المذكورة وأما من صلاها مستعجلا لا يطمئن في حال ركوعه وسجوده على الحد الذي ذكرناه فإنها غير مقبولة وهي التي ورد في الخبر انها تلف كما يلف الثوب الخلق ثم يضرب بها وجه صاحبها واليها يشير قوله صلى الله عليه وسلم أول ما ينظر الله فيه من اعمال العبد الصلاة فإن قبلت نظر في سائر عمله وان

لم تقبل لم ينظر في شيء من عمله ... فالحذر الحذر من وقوع الخلل في صحة الصلاة فإن الصلاة في الايمان بمنزلة الروح في الجسد اذا وجدت الروح وجدت حياة الجسد وان فقدت الروح فقدت حياة الجسد ... وأوصيكم بالمحافظة على الصلوات الخمس في الجماعات اذا كان الامام يستكمل ركوعها وسجودها كما سبق و إلّا فلا تحل الصلاة خلفه

٥ ــ وأوصيكم بالمحافظة على حفظ الفاتحة وتكميل تلاوتها في الصلاة بالترتيل وان تكون على الوجه الذي أنزلت عليه فإن الفاتحة في الصلاة في الاعتبار بمنزلة الياقوت الغالي القيمة مع دراهم الفضة فان مائة صلاة مثلا من الفرائض بجميع ما تشتمل عليه اذا أديت على هيأتها ما عدا الفاتحة لا تعادل كلها فاتحة واحدة تقرأ في فرض فحافظوا عليها

٦ ــ ثم بعد الصلاة المحافظة على صوم رمضان بتكميل شروط صيامه وكف النفس عن اقتحام المحرمات في ليله ونهاره فان حرمته من الشرع لا يجهلها إلّا جاهل وليكف عن الافطار بالاكل الحرام فيه فانه مضر بالدين

٧ ــ وأوصيكم بالزكاة وحفظ نظامها وتكميل شروطها بتمامها على الحد المحدود لها

٨ ــ وأوصيكم وأؤكد عليكم في بذل الصدقة في كل يوم أقلها ربع رغيف الى ما وراء ذلك من وجه يرتضيه الشرع فإن المداوم على الصدقة في كل يوم يحفظه الله تعالى من البلايا والمحن ولتكن النية لله تعالى لا لغيره

٩ ــ وأوصيكم ان بحر الذنوب قد طما وعظمت أمواجه وتراكمت ظلماته حتى عجز الخلق عن الخروج عنه إلّا صديق واصل او من قارب مقامه فحيث كان الامر هكذا فليشتغل العاقل بعد تصحيح صلاة فرضه بمكفرات الذنوب وهي كثيرة فإن من اشتغل بها مع كثرة ذنوبه خفت عنه مؤنة الذنوب وهو خير من الذي يقتحم الذنوب ولا ياتي بمكفراتها قال تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وقال صلى الله عليه وسلم اذا أتيت سيئة فاتبعها بالحسنة تمحها وهذا بمنزلة من يسرع له بجديد الجراح في جسده فكلما وقع عليه جراح أسرع بدوائه وهو خير من الذي تنصب عليه الجراح فلا يتداوى

١٠ ــ فالحذر الحذر من مخالفة أمر الله وان وقعت مخالفة والعبد غير معصوم فالمبادرة بالتوبة والرجوع الى الله وان لم يكن ذلك عاجلا فليعلم العبد أنه ساقط من عين الله متعرض لغضبه إلّا أن يمن عليه بعفوه ويستديم العبد في قلبه انه مستوجب لهذا من الله فيستديم بذلك انكسار قلبه وانحطاط رتبته في نفسه دون تعزز فما دام العبد على هذا فهو في سبيل خير (وهذه نصيحة من الشيخ رضي الله عنه جليلة لا يبقى بعد التمسك بها تشوف الى ضمان او خصوصية او ثواب التعلق بالشيخ والاعتماد على الانتساب من غير توبة وعمل)

١١ — و إياكم والعياذ بالله من لباس حلة الامان من مكر الله في مقارفة الذنوب باعتقاد انكم آمنون من مؤاخذة الله لكم في ذلك الوقت فان من وقف هذا الموقف بين يدي الحق تعالى ودام عليه فهو دليل على انه يموت كافرا والعياذ بالله تعالى

١٢ — وأكثروا العفو عن الزلل والصفح عن الخلل لكل مؤمن وآكد ذلك لمن آخاكم في الطريقة فإن من عفا عن زلة عفا الله له عن زلات كثيرة

١٣ — والعاجز من عجز حتى عن التضرع والابتهال ومن ضيع نفسه من الله فلا جابر له ولتكن لكم ببابه إلمامات على مر و ر الساعات وكرور الاوقات فإن من اعتاد ذلك غشيه من نفحات رحمته تعالى ما يكون ماحقا لمصائبه ومسهلا لاعباء ما ثقل عليه من ملماته فانه سبحانه غني كريم يستحي بكرمه من ان يسلم العبد للمصائب وهو يتعود الوقوف ببابه

١٤ — فاتركوا مخالفة امر الله ما استطعتم وقوموا بأمره على حسب الطاقة

١٥ — وعليكم بصلة الارحام من كل ما يطيب القلب و يوجب المحبة ولو بتنقد الحال والقاء السلام وتجنبوا معاداة ذوي الارحام وعقوق الوالدين وكل ما يوجب طغينة في قلوب الاخوان

١٦ — واتركوا المقاطعة مع جميع الخلق وآكد ذلك بينكم و بين الاخوان وز و روا في الله و واصلوا في الله وأطعموا في الله ما استطعتم من غير تعسير ولا كد

١٧ — وأوصيكم بطهارة القلب من الغل والحقد على المسلمين فان من تخلق به لا يفلح وأوصيكم بالبعد عن سوء الظن بالله و بعباد الله فقد قال صلى الله عليه وسلم خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير حسن الظن بالله و بعباد الله وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر سوء الظن بالله وسوء الظن بعباد الله

١٨ — وأوصيكم بالبعد عن أكل الطعام او المال الحرام شرعا فان المداوم على ذلك يحبط عمله لا محالة

١٩ — وأوصيكم بالبعد عما دار عليه الناس وأكبوا عليه وعم جميع آفاق البلاد إلا النادر القليل من الخلق وهو المعاملة بالغش في جميع احوال البيوعات والمعاملات ومن الانهماك في تناول المعاملة الفاسدة في البيع والشراء مما حرمه الشرع صريحا أو ضمنا

٢٠ — وأوصيكم وأؤكد عليكم بالتباعد عن المجاهرة للناس بسوء القول بل تودوا اليهم بما تقدرون عليه من حسن القول و بما تقدرون عليه من حسن الخلق قال الله تعالى لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وقال صلى الله عليه وسلم وخالق الناس بخلق حسن

٢١ — وصونوا قلوبكم اذا رأيتم أحدا فعل حقا يخالف هواكم اوهدم باطلا

يخالف هواكم أن تبغضوه أو تؤذوه فإن فعل ذلك معدود من الشرك قال صلى الله عليه وسلم الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصفا وأقل ذلك أن تحب على باطل أو تبغض على حق . وكذا صونوا قلوبكم عمن فعل باطلا أو هدم حقا يطابق هواكم ان تحبوه وتثنوا عليه فإنه ايضا معدود من الشرك عند الله تعالى فإن المؤمن يحب الحق ويحب أهله ويحب ان يقام الحق ويعمل به ويبغض الباطل ويبغض أهله ويبغض ان يقام الباطل ويعمل به

٢٢ — وأوصيكم بالمحافظة ثم المحافظة على البعد من أمور كل من وقع في واحدة منها أماته الله كافرا من غير شك الاولى كثرة إذاية المسلمين والثانية الكثرة من الزنا من غير توبة والثالثة ادعاء الولاية بالكذب والرابعة الانتصاب للمشيخة من غير إذن والخامسة تعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكاية قوله والسادسة الانهماك في الغيبة والنميمة بلا توبة فهذه الامور مقطوع لصاحبها أنه يموت كافرا ولو عمل ما عمل ان لم يتب و بقي مصرا على ذلك حتى مات والعياذ بالله

٢٣ — واتركوا التعرض للرئاسة وأسبابها فإنها كعبة تطوف بها جميع الشرور وهي مقر الهلاك في الدنيا والاخرة

٢٤ — وتجنبوا البحث عن عورات المسلمين فإن من تتبع ذلك فضح الله عورته وهتك عورة بنيه من بعده واكثروا العفو عن الزلل والصفح عن الخلل لكل مؤمن وآكد ذلك لمن واخاكم في الطريق

٢٥ — وأحذركم لكل من خوله الله نعمة أن يمد يده بها فيما لا يرضي الله مثل شراء الخمر والوقوع في الزنا ومد اليد بها في المعاملة بالربا او صرفها في وجوه طلب الرئاسة والسلطنة او طلب إذاية المسلمين من سفك دمائهم ونهب اموالهم او هتك حريمهم او بإذايتهم ولو بأقل قليل فإن الفاعل لهذه الامور ربما أنعم الله عليه مستحق لسلب النعمة من الله مع ما يعرض له من مقت الله وغضبه فان فعل الامور او بعضها بما أنعم الله به عليه ولم ير من الله سلب نعمته فليعلم في نفسه أنه ممن يحل عليه غضب الله وسخطه في الدنيا والاخرة

٢٦ — واعلموا ان التقوى قد صعب مرامها وتنامت بعدا عن ان تمد بيد أحد خطامها واحتكامها وكلت الهمم دونها فلا يصل بيد أحد أساسها واحتكامها إلا الفرد الشاذ النادر لما طبعت عليه القلوب والنفوس من الادبار عن الله وعن أمره بكل وجه واعتبار ووحلها في رتع احوال البشرية وحلا لا مطمع لها في الانفكاك عنه وهذا حال اهل العصر في كل بلد من كل ما على الارض إلا الشاذ النادر الذي عصمه الله تعالى وبسبب ما ذكرنا هاج بحر الاهوال والفتن وطما بحر المصائب والمحن وغرق الناس فيه كل الغرق وصار العبد كلما سأل النجاة من مصيبة وعصم منها اكتنفته مصائب وفي هذا قيل سيأتي على الناس زمان تتراكم فيه بحور المحن

والفتن فلا ينفع فيها إلّا دعاء كدعاء الغريق وليكن ملازمتكم لامر المنجي مما ذكرنا أو المطفيء لاكثر نيرانه وهو كثرة الاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وذكر لا إله إلّا الله مجردة وذكر لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين وقول حسبنا الله ونعم الوكيل فانه بقدر الاكثار من الاذكار تتنامى عن العبد كثرة المصائب وشرورها وآزارها وبقدر تقليله منها يقل بعده عن المصائب والشرور وليكن لكل واحد منكم قدر من هذه الاذكار على قدر الطاقة وعليكم بكثرة التضرع والابتهال لمن له كمال العز والجلال فإن الله رحيم بعباده ودود فإنه أكرم وأعظم فضلا من أن يتضرع اليه متضرع أحاطت به المصائب والاحزان ومد اليه يده مستعطفا نواله راجيا كرمه وافضاله ان يرده خائبا او يعرض عنه برحمته

٢٧ — شرك الاغراض هو أحد الاقسام الستة والمراد به عند اهل الشريعة هو عمل اعمال البر لغير الله بل لاجل نيل محمدة من الخلق او تحصيل غرض من قبلهم او دفع مضرة منهم او اتقاء مذمة أو العمل لاجل نيل القصور والحور في الجنة مجردا وخلوه عن امتثال أمره واما اذا نوى بعبادته وعمله وجه الله تعالى وامتثال امره وأداء حق ربوبيته والتقرب اليه وعبادته لاجله لا لشيء غيره ورجا مع ذلك من فضل الله عز وجل ما يهيء له في الجنة من الحور والقصور وغيرها لا لاجل عبادته بل بمحض الفضل والكرم والتصديق بوعد الله عز وجل فذلك لا حرج فيه ولا قادح في اخلاصه وانما يذهب اخلاصه اذا عمل لاجل نيلها خاليا عن ارادة وجه الله عز وجل وعن عبادته لاجله فهذا هو الذي يقال له عابد هواه وعمله محبط بغير خلاف بل وعليه كالاثم زائدا على الاحباط وأن من عبد الله لاجله أو لارادة وجهه او ابتغاء مرضاته او امتثال امره او توفية امره بعبادته او أداء لحق العبودية او قياما بحقوق الربوبية او تعظيما له او اجلالا له او محبة له او حياء منه ان يراه تخلف عن أمره او شوقا اليه او شكرا لنعمه فهو مخلص حقا ولا يخالطه رياء حيث تجرد عن الاغراض التي تقدمت وان من عبد الله عز وجل بجميع انواع الاخلاص فهو المخلص الكامل ثم ان قارنه الرجاء لفضل الله عز وجل ورجاء الحور والقصور ونعيم الجنة بمحض الفضل واعتقد ان الله عز وجل يهبه عندها لا بها فلا قادح في اخلاصه عند اهل الشريعة واما عند العارفين فذلك من شرك الاغراض والاخلاص عندهم تجريد العبادة لوجه الله عز وجل وعبادته لاجله واسقاط الرجاء من غيره أنفة منهم ان يلتفتوا الى الاكوان بقلوبهم لحظة او يعولوا لمحة او يحبوا منها شيئا مع المحبوب الاكبر وهو الله عز وجل

٢٨ — واما ما جاء من الاذكار والعبادات لسعة الرزق ودفع الضرر وهلاك الظالم ودفع الفقر وقضاء الحوائج الى غير ذلك فما كان من ذلك من جلب رزق ودفع فقر وقضاء حاجة مطلوبا لذاته بذلك الذكر أو العبادة فهو شرك الاغراض

وهو حرام بالاجماع وان كان ذلك المطلوب ليعين على عبادة الله عزوجل فلا يخلو من أمرين ايضا اما ان يكون قصده في ذلك الذكر الخاص او العبادة الخاصة مجرد غرضه من سعة الرزق وغيره عن قصد وجه الله عزوجل بالذكر والعبادة فذلك من شرك الاغراض ايضا وهو حرام وان قصد بالذكر والعبادة وجه الله عز وجل ورجا مع ذلك قضاء غرضه ليستعين به على عبادة ربه ويدعو عقب عبادته لله بقضاء حاجة فهو جائز لا حرج فيه لكن بعد اعتقاد ان الله هو الفاعل باختياره لا بذلك الذكر بل عنده لا به وطلب بالذكر وجه الله عزوجل وأن الاذكار والعبادات لاتأثيرلها وخواصها من الثواب هذا وهذاك وان الله عزوجل هو الفاعل عندها بمحض اختياره لا لعلة فهذا وجه صحته وكل هذا تكشفه الادلة النقلية والله الموفق . والحاصل من هذا كله ان من عبد الله عز وجل لوجهه لم يخرج عن دائرة الشرع دون غيره ألا انهم مختلفون فبعضهم الحامل له على عبادة الله تعالى وجهه أعني الذي ترد وأنهضهم اليها رجاء فضل الله تعالى واتقاء عقابه وهؤلاء هم أهل الشريعة وبعضهم حملهم على عبادة الله تعالى ونهوضهم اليها معرفتهم بجلاله وكبريائه وعظمته فعبدوه على الحب والشوق اليه أداء لحق ربوبيته لا لغرض وهم العارفون وسوى هذين هالك لا عبادة له فضلا عن الثواب

١٢٩ — ولكن كل واحد من الصحابة الذين بلغوا الدين مكتوب في صحيفته جميع اعمال من بعده من وقته الى آخر هذه الامة فإذا فهم هذا ففضل الصحابة لا مطمع فيه لمن بعدهم ولو كان من اهل هذا الفضل المذكور من هذا الباب لمرتبة الصحبة فإن عملنا مع عملهم كمشي النملة مع سرعة طيران القطاة وقد قال في حقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه

١٣٠ — ان العارفين في الاشياء بمراد الله تعالى ومحبته وعبادته لاجله والقيام بحق ربوبيته بعزل اغراضهم ومفارقة شهواتهم وعزل أهوائهم ومباينة حظوظهم لم يقضوا فيها لانفسهم وطرا وانما قاموا في الاشياء بمراد الله عزوجل لا شيء سواه كيفما دارت احوالهم في العمل والارادات فكل ذلك لله بالله مع الله بالغيبة عن النفس وشهواتها وقضاء وطرها وكلما وجد لهم فيه غرض فروا منه وتركوه هذا مذهبهم بخلاف غيرهم فإنهم لم يخرجوا عن دائرة الحظوظ والحامل على الحظوظ هو الطمع والطمع كله كاذب واتباع الطمع هو عين الهلاك والذي قادهم الى الطمع هو الوهم والوهم خيال كاذب كسراب بقيعة والطمع في مذهب العارفين حرام بل الطمع هو خراب الدين وملاك الدين الورع والعارفون نظروا في الاشياء سوى الله فوجدوها لا نفع لها من نفسها ولا تنفع غيرها ووجدوها لا تملك نفعا ولا ضرا من ذاتها فقطعوا النظر عنها وأسقطوها من أذهانهم تعويلا وارادة ومحبة اعتمادا ورجعوا الى خالقها

٢١ ـــ الذي يعطيني يعطى الويل (١)

(١) لان الاخذ والعطاء عنده رضي الله عنه لا يكونان إلّا لله خالصا لا لغرض من الاغراض وكانت نشأته كما ذكر صاحب جواهر المعاني « لا يستطيع أحد أن يسومه بعطية ولا بهدية ... وهمته تأبى ان يكون للخلق يد عليه لفساد الزمان واهله وفساد أغراضهم وقد شاهدت يوما وانا حاضر عنده ان أتاه رجل فقال له ياسيدي جعلت لك من مالي كذا وكذا محبة فيك وهدية لك فقبل منه ذلك وطرحه بين يديه ثم أسر له في أذنه قال سيدي اطلب لك ان تفعل لي ما هو كيت وكيت فقال له سيدنا رضي الله عنه ارفع متاعك ولم يقبله منه . وكنت جالسا ايضا بين يديه فأتاه إنسان فسلم عليه ودفع لي دراهم بقصد الزيارة لسيدنا رضي الله عنه وقال له ياسيدي خذ هذه الصدقة التي أتيتك بها فقال لي اردد عليه متاعه وقال له لا تحل لي الصدقة انما أنا غني عن الصدقة . وكان يتحرز عن مقاصد العامة غاية و يدفعهم عنه بالتي هي أحسن . وسئل يوما رضي الله عنه عن سبب عدم قبول الهدايا مع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبلها . فقال كانت الهدية هدية واليوم صارت رشوة فإن الناس اذا أهدى احدهم شيئا لغيره أو قضى له حاجة لم يمكث إلّا قليلا ثم يرجع إليه في طلب بعض اغراضه ولا يهدى في الغالب الا لذوي الجاه ديني او دنيوي ومن لم يكن له جاه لا يهدون له أبدا كما هو مشاهد من حال الناس في زمننا لا يعطون شيئا بقصد المحبة والمودة والاخاء في الدين وانما يعطون لتحصيل اغراضهم الفاسدة كما قدمناه حتى صارت ولائمهم من هذا المعنى الفاسد ولهذا تحرز سيدنا رضي الله عنه من مقاصد العامة لفسادها ولا يخالطهم فيما هم فيه من كثرة التخليط و ربما يتوجه لاصلاح ذات البين فيما بينهم إذا طلبوه في ذلك لكنه لا يكلف احدا باسقاط حقه و ينبه على ذلك انه لا ينبغي لمحافظته رضي الله عنه على حدود الشريعة

و ورد في « كشف الحجاب » ان العدل الزكي سيدي محمد بن فقيرة رحمه الله قال ذهبت انا و بعض الاكابر الى زيارة سيدنا رضي الله عنه فلما اجتمعنا به وضعت انا درهما بين يديه و وضع صاحبي امامه اربعين ريالا . قال فأخذ الشيخ رضي الله عنه الدرهم بيده وجعل يقلبه في يده و يمعن النظر فيه . ثم شد يده عليه حتى دخل به الى داره وقال لصاحب الاربعين ريالا خذ متاعك . فقال له ياسيدي هي زيارة فكاشفه الشيخ رضي الله عنه وقال له اجعل متاعك لست ابيع الاولاد وكان مما اضمره ذلك الرجل ان يرزقه الله اولادا ببركة الشيخ رضي الله عنه ولم يقبل من دراهمه فلسا واحدا . وهكذا داب سيدنا رضي الله عنه مع كل من يأتيه بزيارة بقصد غرض فإنه لا يقبل ما يهديه إليه. وقد كان رضي الله عنه اذا دعاه احد ـــ

٣٢ ـــ وأما ما كتبته لي وأخبرتني به من تصرفات الاولياء السابقين طالبا مني ان افعل في ضررك مثل ذلك كي تستريح فالجواب ان احوال الاولياء لا تجري على قانون واحد ولا سبيل واحد ولا حيث كلما ارادوا بل الامر في ذلك موكول إلى الله جاريا على قانون مشيئته فما قام ولي في أمر باختياره ولا تصرف ولي في شيء بأمره وإرادته بل ذلك كله جار على حكم مشيئة الله فإنه هو الفاعل لما يريد (فتأمل هذا التوحيد الخالص والدين القيم الذي تعالى شأنه عن أن تلحقه شبهات الانكار من شيع الانكار)

٣٣ ـــ وأحذرك مما سمعت من الخصوصية التي أعطيتها من فضل الله تعالى فلا تأمن مكر الله في حال من الاحوال قال سبحانه وتعالى فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون فإن لله سبحانه وتعالى من وراء خصوصيته مكرا وتدبيرا وغيرة يؤاخذ عبده بها من حيث لا يظن وإن كان من ذوي الخصوصية . (تأمل هذه النكتة جيدا واعرف عندها مقدار تمسك الشيخ التجاني بالشريعة وغيرته عليها وكيف ان الفضيلة أي الخصوصية التي أعطيها واصحابه لا تغني فتيلا ما لم تتوفر شروطها من المراقبة والتقوى والانابة . وقد لا تفيد مع توفر شروطها اذا اراد تعالى لانها من فضله وإلغاؤها من عدله جل وعلا)

٣٤ ـــ فليس لك إلا الله سبحانه وتعالى فلا تشتغل عنه بغيره ولا تجعل لنفسك إلى سواه منتجعا ولا الى الاعراض عن بابه تعلالا ولا عن الانحياش إليه في الشدائد والمضائق والكروب ملجأ ولا في الرخاء وتوافر النعم عن مراعاة شكره مصرفا

٣٥ ـــ وإياك والانهماك في مطالب دنياك حتى تتعدى حدود الله التي حدها في شرعه فتهلك نفسك وما لك ملجأ من الله وانظر الى قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح ألا وإن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء شيء عن ان تطلبوه بمعصية الله فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته وهذا البحر هو الذي غرق الناس فيه غرقى وهلكى إلا من عصمه الله بفضله

٣٦ ـــ ما أحوج الناس الى عالم أو علماء يتبعون لهم كتب الفقه ينقحونها مما

ـــ لوليمة لا يمتنع من الاجابة حتى قال له يوما بعض خاصته ياسيدنا ان الناس يدعوننا لنكون معهم كالطوائف (يعني الطرق الاخرى) . فقال وكيف ذلك . فقالوا ان اصحاب المنزل يقولون ان قضى الله لنا الغرض الفلاني نجعل لكم وليمة وان يسر الله علينا كذا نعمل لكم نزهة وهكذا . فقال لهم الشيخ رضي الله عنه أنا ما أمشي لهذا السبب . ثم صار لا يذهب إلا لمن علم إخلاص نيته لله تعالى وأما لغير ذلك فلا فلا يقربه بحال

حشيت به من الباطل قال صلى الله عليه وسلم يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الضالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين ولنا قاعدة واحدة عنها تنبني جميع الاحوال أنه لا حكم إلّا لله و رسوله ولا عبرة في الحكم إلّا بقول الله أو قول رسوله صلى الله عليه وسلم وان أقاويل العلماء كلها باطلة إلّا ما كان مستندا لقول الله او قول رسوله صلى الله عليه وسلم وكل قول لعالم لا مستند له من القرآن ولا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو باطل وكل قولة لعالم جاءت مخالفة لصريح القرآن المحكم ولصريح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فحرام الفتوى بها وان دخلت في كتب الفقه لان الفتوى بالقول المخالف لنص القرآن والحديث كفر صريح مع العلم به قال الله عز وجل ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وقال صلى الله عليه وسلم من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد

٣٧ — أقل ما يجزي حامل القرآن في اليوم والليلة حزبان

٣٨ — أما تفضيل القرآن على جميع الكلام من الاذكار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فأمر أوضح من الشمس كما هو معلوم في استقراآت الشرع وأصوله شهدت به الآثار الصحيحة وتفضيله من حيثيتين الحيثية الاولى في كونه كلام الذات المقدسة المتصفة بالعظمة والجلال فهو في هذه المرتبة لا يوازيه كلام والحيثية الثانية ما دل عليه من العلوم والمعارف ومحاسن الاداب وطرق الهدى ومكارم الاخلاق والاحكام الالهية والاوصاف العلية التي لا يتصف بها إلّا الربانيون فهو في هذه المرتبة ايضا لا يوازيه كلام في الدلالة على هذه الامور ثم ان هذين الحيثيتين لا يبلغ فضل القرآن فهما إلّا عارف بالله قد انكشفت له بحار الحقائق فهو أبدا يسبح في لجها فصاحب هذه المرتبة هو الذي يكون القرآن في حقه أفضل من جميع الاذكار والكلام

٣٩ — ان كلام الله تعالى وصف قائم بذاته لا يدل عليه القرآن كما يقوله العلماء وانما القرآن دال على مدلولات الكلام الازلي واما المكالمة التي يدعيها العارفون من قولهم سمعت وقيل لي إنما حدثا في هذا المحل ان الكلام الوارد على الرجال في هذا الميدان أن نسبته إلى الله تعالى نسبة الخلق إلى الخالق لا نسبة الكلام إلى المتكلم ومن ظن من الرجال أنه يسمع كلام الذات كما سمعه موسى عليه الصلاة والسلام فقد ضل وفارق الحق وخسر قال الله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحيا او لابة

٤٠ — ومع هذا كله فاسنا نستهزئ بحرمة ساداتنا الاولياء ولا نتهاون بتعظيمهم فعظموا حرمة الاولياء الاحياء والاموات فإن من عظم حرمتهم عظم الله حرمته ومن أهانهم أذله الله وغضب عليه

٤١ — قد وقع الاجماع على أن العلم المقرر بالنبوءة لا يتأتى رفعه وتبديله إلّا بنبوءة وأما الولاية فلا طريق لها الى هذا الباب

٤٢ — ومن ابتلي بشيء من مخالفة امر الله فليرجع إليه بالضراعة والابتهال والاستغفار والانكسار والتذلل والاحتقار معترفا بين يدي الله تعالى بعجزه وضعفه ثم الوقوف مع الله تعالى بلزوم الذل والمسكنة في مركز الافتقار والاضطرار وخوف القلب من مزعجات سطوته وفرقا من خفي مكره ولزوم الرضى والتسليم له سبحانه وتعالى لكل واقع في الوجود بلا انزعاج ولا اضطراب ولا طلبا لزواله إلّا ما كان من افعال نفسه فليبادر الى التوبة فيما وقع من خروج افعاله عن الشرع فإنه لا يحل البقاء في ملابسته شرعا وان يعلم انه من حكم الله فلا عذر له في ترك التوبة وليعمل بعضا من أوقاته فيما يجري على يديه من النفع لعباد الله لا عموما بل خصوصا لاقرب فالاقرب من غير افراط ولا تفريط وليكن شديد الاهتمام من حقوق اخوانه طريقته التي لا يمكنه التأخر عنها لكن ملازمة الواجب منها فقط من غير أن يجعلها هجيراه فإن لكل عاقل أوقاتا يخلو فيها بربه لا يمكنه التأخر عنها والاشتغال عنها وأوقاتا يجالس فيها إخوانه في الطريقة لله تعالى لتذكير أو تعليم أو استفادة مما لم يكن عنده من العلم من غير إفراط ولا تفريط ثم ليتحين في خلوته مع الله تعالى الاوقات الفاضلة كوسط الليل بعد نوم الناس الى طلوع الفجر وبعد صلاة الصبح إلى وقت الضحى وبعد صلاة العصر الى صلاة العشاء عاملا في ذلك بالتسديد والتقريب في معرفة ما يقدر عليه وما لا يرجب للنفس كسلا ولا ضجرا جاريا على حد قوله صلى الله عليه وسلم ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلّا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وبشيء من الدلجة وقوله صلى الله عليه وسلم ان هذا الدين متين فتوغل فيه برفق ولا تبغض لنفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى وقوله صلى الله عليه وسلم خذوا من الاعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا وليحذر كل الحذر من المجالس ومآخذ العلم التي تودي إلى الدخول في مداخل العامة أو لاحوال المخزنية فإن من تبع ذلك لا يفلح لا في الدنيا ولا في الآخرة

٤٣ — واياك ثم اياك العجز والكسل والحرج والتواني فيما أمرت به والجلوس في موضع الريب والاضلال وأوصيك بتقوى الله في السر والعلانية واتباع السنة في كل قاصية ودانية وشاذة وفاذة في الاقوال والافعال والرضى عن الله في الاقلال والاكثار والاقبال على الله ومراقبته في جميع الاحوال والاعراض عن الخلق في الاقبال والادبار وتحكيم السنة على جميع الخطرات وعليكم بالاستقامة في جميع الحركات والسكنات وأوصيكم بالصبر ومصاحبة الذكر والجثوم الى الله بكليتكم بشرط ترك الفضول والصبر على الاذى أقرب للسلامة وأحمد في العاقبة

فأقوال جناب أبي العباس التجاني رضي الله عنه التي اقتطفناها كما ترى موافقة تمام الموافقة لصريح الكتاب والسنة . وهي التي يجب على سالك طريقته وذاكر وردة أن يعمل بها و يتبع إرشاده في مباشرتها . لانها من القسم الاول الذي هو أساس القسم الثاني من التوجه في الذكر نحو الخالق تعالى . وما عدى هذه الاقوال مما يتوهمه الضالون خلاف العقل على مذهب أو خلاف الشريعة على مذهب ثان أو خلاف أقوال العلماء على مذهب ثالث فليس لها علاقة بالاصول العملية . بل منها ما هو اجتهاد خاص صادر عن تقوى وقوة إيمان كورعه رضي الله عنه عن استعمال السكر المتحجر لما بلغه من أنه يصفى بعظام الميتة فخشي امتزاجها به فتورع عن استعماله . ومنها ما هو احتراز عن حصول نقصان أو خلل في العبادة كأمره رضي الله عنه لاصحابه بالخروج من خلاف أئمة المذاهب في العبادات حرصا على كمالها . ومنها ما قد رواه رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقظة مشافهة كمسائل فضله وفضل أتباعه والبشائر الترغيبية من تفاصيل الثواب الفائض من محض الفضل الالهي لذاكر وردة المتمسك بطريقته تمسكا أصوله ما قد ذكر في القسم الاول أي بالعمل بالكتاب والسنة وملازمة التقوى والايمان الكامل والتوبة النصوح . فوجب على مريد الوصول التجاني في تصحيح مقاصده تسليم أخبار الترغيب من غير اشغال بال به دون أصوله العامله على تحقيقه . لان هذا الختم الجليل رضي الله عنه لم يختلقه اختلاقا . وليس لذي شغف بمناقشة أمثاله أن يصادف أذنا واعية من ذي ايمان صادق في هذا الامر . لان شغوف رتبة الشيخ التجاني رضي الله عنه في علوم الشريعة تحققا وتخلقا هو الذي أهله لان يقف تجاه الذات المحمدية هذا الموقف الذي تشمأز عند ذكره نفوس عبدة الهوى . فنلقى عنها ما تلقى . تلقى تصريحات لا تعارض بينها و بين الكتاب والسنة . فإن الشريعة لم تحد حدا لفضل الله لانه تعالى يقول « والله ذو الفضل العظيم » . ومن حد لهذه العظمة حدا بتخمينات عقله فقد أصح من الذين « ما قدروا الله حق قدره »

واذا كانت والحمد لله أقوال الشيخ التجاني التي عليها مدار العمل في الارشاد الى التقوى والانابة والذكر موافقة تمام الموافقة مع الكتاب والسنة فأي حامل يحملنا بعد على الالتفات الى غيرها من الاقوال مما لا تعلق له بعمل من الاعمال . أفلا يكفينا ان نوافق الكتاب والسنة في العمل بما وافق من أقواله أصول العمل وهي الضروريات وقد تمت في أقواله السالفة . بل ما كان منها من الترغيب فيما هو غيب فتسليمه لعزيز منصبه الديني أولى لانه ممن يحبهم الله بورعه وزهده وتقواه ومعارفه وعبادته لربه آناء الليل وأطراف النهار ومن أحبه الله كان سمعه وبصره ويده . فهو يسمعه ويهبه من حيث لا يدري أحد من العالمين

فالمأخوذ به العمل من أمور المكاشفة ما طابق الكتاب والسنة او وافق أصولا واشباها بهما . فنظام الورد التجاني ذكر الله تعالى بعدد معين من استغفار وصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا اله إلّا الله . وأصوله بالكتاب والسنة كثيرة والعدد فيها والملازمة معلومان . ولما كان الأمر بذكر هذا الورد التجاني هو الحضرة المحمدية في طور حياتها البرزخية التي هي كالحياة المادية موافقا للاصول الموجودة في السنة كما مر معنا فقد انتفت كل شبهة توجب المغايرة أو الارتياب على الاقل . لان هذا الذكر لم يكن محرما او مكروها بل واجبا لقوله تعالى « استغفروا ربكم « انه كان غفارا » « ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة « واصيلا » « ان الله وملائكته يصلون على النبي ياايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا « تسليما » ولقوله صلى الله عليه وسلم كما في صحيح البخاري « مثل الذي يذكر « ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت » « من قال لا اله إلّا الله وحده لا « شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت « له عدل عشر رقاب وكتب له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له « حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يات احد بأفضل مما جاء إلّا « رجل عمل اكثر منه » . فمن هذا الاصل وامثاله تكونت الاوراد واصبح العمل بها مشروعا . وعند التقاء هذه الموافقة بين اخبار المكاشفة من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم في اليقظة وبين اصول الكتاب والسنة انتفت كل شبهة في وصم هذا العمل بالبدعة او بالمنكر واصبح دينا صحيحا اصوله التوبة والانابة والتقوى وفروعه تمام الايمان والتوحيد واليقين ومحبة الله ورسوله وان في ذلك لبلاغا لقوم عابدين

مناظر التعرف بشخصيات منكري التصوف والتصرف

« وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا »

التناكر في البشرية طبع نفساني متألف من عدة طباع دنيئة رأسها الحسد والتنازع على الرفعة . والدين لم يشرع لها إلّا لحسم مادة هذه الطباع وشرورها . ومظهر هذه الشرور من لانسان العقل في أطوار دناءته حيث يسمى هوى . وبعد ما يهذبه الدين يرتفع الى مرتبة العقل . وقد يبقى بعد التهذيب موصوما بالخطإ في عدة احوال . فلقد أخبرنا التاريخ بأن الناس كانوا يعبدون التماثيل والاصنام والكواكب ويقدسون الجماد والحيوان وهم ذو و عقول يعرفون كيف ينظمون بعقولهم متاع الدنيا . ومنهم من ادعى الربوبية وهو يعقل من نفسه العجز عن خلق ذبابة بل وعن دفع أذاها عن نفسه . وقد بقي البشر بعد نزول الشرائع السماوية أسراء لاهواء بالرغم من نذير السماء كما تسمع من الذكر أن بني إسرائيل طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم آلهة ونعالهم لم تجف بعد من طين الطريق التي انفلق لهم عنها البحر بضرب العصا وبعد ما شاهدوا من آيات ربهم ما لم يشاهده غيرهم . فاتخذوا العجل يعبدونه ولم يراعوا لامر نبيهم قدرا وهو بينهم يعظ ويذكر . على سنتهم مضى الناس قبلهم وبعدهم . لانه قلما يسيطر التهذيب على العقل ويصل به إلى درجة الصناعة التامة . وباختلاف أمزجة العقول في التهذيب والصفاوة والكدورة اختلف الناس في مذاهبهم اجتماعيا ودينيا وسياسيا . ولم تكن لاوضاعهم الشرعية أو ما شرع الله ورسله عليهم من سلطان إلّا فيما قل منهم . وكانت عقولهم باختلاف أمزجتها عائقا دون حصول المرغوب منهم من نفس التشريع . وفي الغالب يتخذ أنبلهم عقلا ما ينطق به التشريع احبولة لتنفيذ رغائبه الخاصة بصورة توهم احقية عمله فيتوهمها في نفسه كما يتوهمها غيره فيه

والصواب في الغاية وراء ذلك لم يثبت إلّا لمن صفت عقولهم تماما وتنورت بنور الحق وتطهرت من كافة ادران الرذائل النفسية . فهي مرآة صقيلة ينوعنها الدنس . ولكن اربابها قليلة اشخاصهم . واعلاهم رتبة النبيّون والمرسلون وطهارة عقولهم طبيعية مجبولون عليها . ثم خلفاؤهم من اجلة العلماء بالله الذين يخشونه ويرجون رحمته ويخافون عذابه وطهارة عقولهم مكتسبة نجمت عن التهذيب . وكما نال الاولين من انكار معاصريهم ومترفي قومهم نال الاخرين . ولما كانوا قليلا كان بالطبع خصماؤهم كثيرين . واتخذوا عليهم الشرائع حجة يسخرون فصولها كيف يشاءون بتأويل او بلا تأويل لينالوا منهم بأقطع سلاح . والدافع على ذلك اختلاف الامزجة العقلية في فهم المقاصد الشرعية وغلبة الاهواء على الغالب بالطباع الدنيئة الجاذبة نحو الرذيلة . « ولا يزالون مختلفين إلّا من رحم ربك ولذلك « خلقهم وتمت كلمة ربك لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين »

فاستعمال العقل في تتبع الاحكام والاعتقادات وجعلها خاضعة لسلطانه ادى إلى وبال عظيم اضر بالامة الاسلامية حتى افترقت إلى فرق متعددة كل فرقة منها تعتقد اعتقادا يخالف اعتقاد الاخرى وتعمل بالشرع عكس عمل الاخرى . وكل واحدة منها تدعي انها الفرقة الناجية المستقيم صراطها

ولما كان عمل الرسول صلى الله عليه وسلم وعمل اصحابه الناطق بالكتاب والسنة هو شعار الفرقة الناجية ودليلها في ظلمات الاهواء لم يبق شك في ان الصادقين من الصوفية بطهارة عقولهم قد اتصفوا بهذا الوصف الجميل وظهروا به في محافل العامة والخاصة . فوزنهم ذوو العقول السقيمة وزنا انعكس عليهم غيا . فجاهروهم بالانكار لينالوا منهم . وما نقموا منهم إلّا ان يؤمنوا بالله ويحبوه ورسوله ويذكروه تعالى شكرا لنعمه . فلما انعم الله عليهم نعمته بأن علمهم علوما لم يفهمها معاصروهم واجرى لهم خوارق لم يدركها اولئك ولم يعلموا لها تأويلا شأن القاصر مع الكامل والجاهل مع العالم . حكموا عليهم تارة بالكفر ومرة بالالحاد وآونة بالزندقة وطورا بالتدجيل إلى ما شاءت اهواؤهم من انواع الانتقام . وانخذوا من الشريعة اسلحة قاطعة ليؤيدوا بها هذه الاحكام

فجمود العقول على اصولها الطبيعية من الرعونات حيث تعتبر اهواء محضة داع كبير إلى الاسراع في الانكار على اهل الصلاح فضلا عن كونه يعمل في اربابه عكس ما تعمل في هؤلاء صفاوة عقولهم . لانه يدعوهم غالبا بالرغم من العلوم التي يزاولونها والمناصب التي يشغلونها إلى مجاوزة حدود الله بالفضول والحسد والبغي والغفلة عن ذكر الله وعن العمل بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من جهة وإذاية احباب الحضرة الالهية الذاكرين والعاملين بالكتاب والسنة من جهة اخرى

بيد أن هؤلاء المنكرين في منازلهم الانكارية كانوا مراتب يعلو بعضها بعضا بحسب مقاصدهم واختلاف درجات عقولهم واحوالهم . فقد تجد العالم المتفنن العاقل المتقرب من سلطانه الشغوف بالرسميات ذا أبهة و رفعة . ولما يسمع بصوفي صالح أظهره الله لاحياء شأن الدين وارشاد الضالين يبادر الى انكار حاله و يهتم بالتقاط اغلاطه وخطيئاته ليعدها و يرونق بها مجلس امره مشنعا به بين قبيله . وداعيه الى ذلك خوفه على منصبه الرفيع من ان يستولي عليه ذلك الصالح كما كان شأن الطيب بن كيران في حضرة مولاي سليمان وكاتبه ابي القاسم الرياني لما ظهر الشيخ التجاني بفاس يرشد الناس . وقد تجد الرجل العالم التقي المجتهد الورع ينظر الى متصوفة وقته بعين الانكار لما ابتدعوه في الدين من تتبع الكشوفات وابتزاز اموال الناس بالدعاوي الباطلة والخرافات الواهية فيحكم عليهم بالضلال والخروج عن جادة الدين . وله الف حق في ذلك . ولكن لما يبلغه خبر ظهور صالح صادق ينتسب الى التصوف و يعمل لارشاد الضالين يعمم عليه حكمه الصارم و يلحقه بأولئك العمي من غير ان يرى شخصه فضلا عن ان يرى عمله و يتبين مسلكه . ولربما ينقل له اخبارا مختلقة عنه فيقبلها من غير تمحيص . كما وقع لشيخ الاسلام ابن تيمية مع ابي الحسن الشاذلي رضي الله عنه حيث رماه من دمشق وابو الحسن بالقاهرة بسهام الانكار فردها عليه . وقد تلقى المنكر عالما ببعض الفنون الآلية ولكنه نقاب عن السوء خواض سفيه الراي لئيم الطبع مسرف على نفسه او بالاقل كسول عن تأدية واجبات العبودية قد اقعدته الراحة والهاه الطبع المادي وثبطه حب النعيم الفاني . فسرعان ما ينكر على العاملين في الدين والعابدين بالفرائض والنوافل والمتقربين بالاذكار . لان التعاكس من طبعه توليد نوعه . مثلما شاهدنا من اقوام نبذوا و يريدون ان تنبذ لامة كل ما للدين من فضيلة وادب وعبادة وذكر لاجل شيء واحد وهو تمتيع النفوس بنعيم الحضارة العصرية وهم مع هذا يدعون انهم سلفيون !

فبهذه الملاحظات يمكن تنزيل القوم الى منازل ثلاث . المنزلة الاولى وهي العليا يقيم بها منكر و ما لم يأت به الدين باخلاص وناجزوا الصوفية الحرب لان بعضهم لم يسلك باخلاص . فقالوا بسد الذرائع حسما لداء البدع لا انهم في هجومهم هذا قد اذوا من كان يعبد الله بصدق واخلاص ونالوا منه بألسنتهم واقلامهم نيلا لم يصدهم عنه ادب الدين وعدوه من الصنف المبتدع ظلما واصغوا الى ما ينقله اعداؤه عنه وان كان باطلا مختلقا . ومن هؤلاء ابن تيمية في القدماء وصاحب مجلة « المنار » في الاخرين . فان شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله لما اعلن الحرب على الصوفية باجتهاده في الدين لم ينكر عليهم الكرامات ولا المكاشفات ولا الذكر ولا العبادة وانما انكر التوسل والاعتقاد بصدور النفع والضر من مخلوق

والتمسح بالآثار وإقامة المزارات والقبب وجمع الدنيا بالدين . واجتهاده هذا صادق قد مازجه إخلاص تام لانه رام سد الذرائع بالجملة عن العامة الجاهلة . غير أنه في هذا السبيل اضطر الى منابذة الخاصة جملة وتفصيلا لما بثه بينهم وبينه عشاق الفتن من الدسائس التي زادته إقبالا على تعميم احكامه واطلاق إنكاره فلم يستثن شخصا واحدا من النبذ والمنافرة حتى كان بينه وبين أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ما كان . وحتى ناواه من ناواه . ولم تكن محنته بإغراء الصوفية بل كانت من قبل فقهاء الحنفية المعارضين له في المذهب لانه مالكي . والمزاحمة بين الفريقين كانت شديدة لنيل المناصب عند الامراء ! . فدسوا له أمورا أدخلته السجن حتى توفي فيه . فنكبته مذهبية لا صوفية . أما صاحب « المنار » فكابن تيمية لم ينكر على الصوفية ذكرا ولا عبادة ولا كرامة ولا مكاشفة . وقد طالعنا « منار » اعواما ، فوجدناه يستشهد بأقوال الصوفية مرارا . وانما ينكر على طرقي العصر ومن قبلهم ما ابتدعوا سدا للذرائع . وقد يغتر بعض المرات بأنقال الرواة فيجري حكمه بناء على ما يسمع ويقدم بين يديه سوء الظن أحيانا . ويغالط القول فينسب الى التدجيل والابتداع من لو قابل الحق فيه لاناب إليه ولندم على ما أغلظ من قول . ولكن سبحان من تفرد بالكمال القائل « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » على ان في أثر هذين الرجلين قد سعى كثير من الاولين والآخرين والافكار فيهم مختلفة متفاوتة كتفاوت أمزجة عقولهم غير ان اصحاب هذا المنزل بمنظر الانصاف يعتبرون أناسا أنكروا على الصوفية تصوفهم وتصرفهم بصدق واخلاص لان مقصودهم سد الذرائع . ولكنهم أخطأوا في شيء واحد وهو إذاية بعض الخاصة من صادقي الصوفية ومجاهرتهم بالعدوان . وعدهم من جملة الدجاجلة المبتدعين بمحض الظن والتخمين

أما المنزلة الوسطى فيقيم بها رجال علماء بالدين وأصوله ولربما يوجد فيهم من منتحلي الطرقية والتصوف ألا ان منازلهم عند الملوك وعند الناس صيرتهم في حرص شديد على إقامة شأنهم وحفظ مراكزهم فصاروا ينقطعون عن النابغين من الصوفية السيئات ويكتمون الحسنات ليصدوهم عن التشوف الى مراكزهم . فهم انتفاعيون يدافعون عن مصالحهم الخاصة . وقد يستعملون في تمهيد سبيلهم هذا نصوص الشريعة والكسد راندهم . وسوء الظن دليلهم . وقد يكون من اصحاب المنزلة الاولى من مازجه سوء الظن كهؤلاء فصار الاقرار عنده بولاية زيد او عدم ولاية عمر ومن مميزات العقل خاصة . ولم يعلموا ان ذلك من شأن الالوهية الخاص « يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب » . واصحاب هذه المنزلة الوسطى بلا شك قد فتنهم الله بهذا الهم وأجراهم على سبيل من الابتلاء خطير

والمنزلة الادنى قد حوت قوما ينكرون التصوف من أصله او ينكرون كون الطرق من التصوف (١) . وهم ينظرون بعين الاعجاب والاكبار شأن الحياة الدنيا . فيرون لتقييد النفوس بقيود العبادة والذكر والتوبة والتقوى تأثيرا ضئيلا يحول دون صاحبه وما يستدعيه إليه شأن الحياة من التمتع باللذائذ الوقتية من بطر ومباهاة وفخر واختيال . وما تؤدي إليه هذه الخلال الدنيئة من اجرام الحواس الخمس . واطلاق عنان الحرية للرأس وما وعى والبطن وما حوى . وهم يصادمون بادعائهم الكتاب والسنة على خط مستقيم ودعواهم الرجوع إليهما كسابقيهم . فيقولون ما الداعي الى وتكرار لا إله إلّا الله . كانهم لم يفهموا الايات القرآنية الآمرة بالذكر والاكثار منه وهي كثيرة . وما ورد في السنة النبوية وهي جلية جليلة . ولكن من الفهم السقيم عولوا على ما صرح به اهل المنزلتين السابقتين . وقلدوا رجال المنزلة الاولى فيما ادعوا من سد الذرائع . واستخدموا اقوالهم حجة في ابطال التصوف عموما وطرقه الحالية خصوصا . لا لسد الذرائع مع اعظام الفن واحترامه . بل ومع اهانته واحتقاره . وعده مجرد اوهام وخيالات لا يقع في شراكها إلّا ضعفاء العقول . ولو أنكروا البدع المبتدعة من جانب الاشخاص وأحالوا ما هو حق إلى نوعه . وقاموا هم بما هو واجب شرعا . ولو لم يراعوا للتصوف أصلا ولا فرعا . لتبينت سلامة مقاصدهم واظهرت محاسن نواياهم ولكن الامر لسوء الحظ بالعكس ، فقد تظاهروا على الرغبة في إبادة الذاكرين لتنمية عدد الغافلين . ودعواهم الرقي في المدنية كاجادة التمثيل وما شاكله من زخرف التمدن العامل على اكتساح آثار الدين من القلوب . لان الصلاة والذكر والعبادة في اعتقادهم مما يحول بين الناس وبين اقتطاف زهرة هذا الزخرف . ولذا كان اهتمامهم متوجها تماما الى اتقان اصطياد اللذائذ وما يدعو اليها . ولا هم يصلون او يذكرون والمحافظ منهم على صلاته قليل اذ دأبهم عدم الاهتمام بها ولا يؤدونها إلّا جمعا او نقرا . تهاونا بقوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة « الوسطى وقوموا لله قانتين » (٢) . ولا يذكرون الله إلّا نفوا لغلبة الغفلة على غالب اوقاتهم . ولم يعتبروا أن تقييد الاوراد في الطرق من صباحية ومسائية وسيلة واجبة للذكر بوجوبه كما هي القاعدة الاصولية . وكل ما يتوسل به الى واجب فهو واجب . ولم يتمتعوا هداهم الله بسلامة الصدور من الامراض المعنوية فهم بها مصابون وجراثيمها تعمل في بواطنهم لابادة نورانية ايمانهم . وبعد أن أجادوا تطبيق أحكامهم الجائرة على كافة معالم الصوفية والطرقية أعادوا

---

(١) وسترى في الرد على « المنار » فتوى رشيد رضا بصحة الطرق وكونها من التصوف اذا سلمت من البدع (٢) سورة البقرة

الكرة على نقطة مركزية رأوا فيها قطع خط الرجعة على الصوفية وإبادة كل ما لهم فيه معول واعتماد . وهي التي وجدوا في الصوفية قصورا عن تحصينها بالدلائل الحسية او العقلية . بما أنها ليست من طور المحسوسات او المعقولات . بل ذوق كشوفي من عالم الغيب . وهو رؤية الاولياء المفتوح عليهم لذات الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة ومحادثته والاستفادة منه والتلقي عنه . فقد عدوا هذا الامر محالا وكل من ادعاه كاذبا بالطبع

ولكنهم مختلفون في ترتيب هذا الادعاء . فمن يعتقد منهم حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الموت لا يسلم ظهوره للاحياء في عالم المادة . وان كان يسلم بالكرامة . وان سلمه جدلا لا يسلم صحة الاخذ عنه وصحة العمل بما أخذ عنه ولو وافق هذا المأخوذ الكتاب والسنة كما هو الشرط عند الصوفية

ومنهم من يرى عدم ثبوت شيء من هذا الطريق لانه محض خيال وتوهم تشاهد به الروح مثالا خياليا لا تصح عنده الثقة بما يصدر عنه

ومنهم من يقول لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم يظهر حقا بذاتيته لاحد الاولياء لكان من الاولى ان يعلمه الكيفية التي ينقذ بها الامة الاسلامية من هوة انحطاطها وانتشالها من وهدة سقوطها ، عوضا عن تذكيرهم وحثهم على العمل للاخرى وترتيبه لهم الاذكار والاوراد والنصائح في الترغيب والترهيب

ومنهم من يقول او كان الرسول صلى الله عليه وسلم يظهر للاولياء حقا لظهر لصحابته الكرام عليهم الرضوان بعد موته وسوى اختلافاتهم وارشدهم للصواب في كثير من المسائل التي حيرتهم

ومنهم من يرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مات وفي وانقرض أمره كغيره من أموات البشر فكل ما يعزى اليه من هذا القبيل محض كذب وتغرير بالامة وتدجيل عليها (١)

واذا تتبعت أقوالهم ومزاعمهم في هذه القضية لا تجدها خارجة عن تخرصات عقولهم اذ لم يفقهوا لها مستندا شرعيا . فاعتبروها بعقولهم أولا أنها مصدر تشريع . والحق أنها مصدر تذكير . ثم اعتبروا وقوعها ثانيا محالا لمجرد كون العقل لا يسلمها حيث لم يوجد هناك نص شرعي يرغمه على التسليم

فأقوالهم في ذلك لم تتعد حد دائرة العقل الضيقة . وهذا شأن خارج عنها طبعا بما أنه من عالم ما وراء المادة الذي لا تنحصر عجائبه . ولما كان من أشد البلاء على العقل الهوى فقد حق القول على مطيعيه في معرض الشبهات كما يزعمون حيث يضل الله به فريقا ويهدي فريقا

(١) وسترى في ردنا على « المنار » جواز رؤية الارواح يقظة باعتراف صاحبه

ولهذا كان من الهين على الجميع أن يردوا كل ما ورد من هذه النسبة على الاولياء من الاذكار والمعارف والعلوم وان كانت موافقة لاصول الكتاب والسنة . واجترأوا على مناقشة هذه النسبة الشريفة الصادقة بكل وقاحة . وأبطلوا بسبب إبطالهم رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظه كل الطرق الصوفية واستنبطوا لها أصولا تارة من المسيحية ومرة من الباطنية وطورا من المجوسية

ولم يقفوا عند هذا الحد في المناقشة والجدل بل تعدوه الى حد كانوا فيه جانين على مبداهم من دعوى الائتلاف والاتحاد حيث صاروا يسلقون اولياء الله بألسنة حداد . فأثاروا عليهم غضاء قلوب تحب هؤلاء الاولياء وتحترمهم . بينما هم ينسبون الى الطرقيين اسباب الافتراق والتنفير جاءوا بطريقة اخرى من التنفير والتفريق . تظاهروا عندها بمظاهر اخلاقهم العامية من تعمير المقاهي ومجالس الفضول والغفلة عن الله لاستحباب نفوسهم ما يوجد في الاسواق من صخب ولهو وكذب وغيبة ونميمة وقيل وقال وكثرة السؤال . فهم أناس اذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وتبهرك فصاحتهم ولكن بينهم قد فشا التهاون بفرائض الدين وسننه وآدابه . وقد أحقوا أنفسهم مع ذلك بالسلف الصالح فان انتسبوا قالوا نحن سلفيون . وأين الثرى من الثريا وأين الذر من الدر

ومع هذا فانا قد وافقناهم فيما يكرون على المسائل الاتية

١ — كون القبب والابنية والزخرف على مقابر الاولياء بل وحتى في المساجد بدعة منكرة لا يرضاها الله ورسوله

٢ — كون الاعتقاد في مخلوق القدرة على النفع والضر اشراكا وكفرا

٣ — كون جمع المال بدعوى « الزيارة » التي يجريها رؤساء الطرق ومقدموها من باب أكل أموال الناس بالباطل

٤ — كون الالتفات الى المكاشفة في الطريق وأخرى قصدها زيغا وضلالا

٥ — كون الذكر بالرقص والتواجد وأخرى بالطبول وأكل الاحناش والعقارب بدعة ومنكرا وضلالة

٦ — كون خدمة السياسة واستجلاب الرئاسة في الطرق من الاستدراج المهلك والغواية الشيطانية

٧ — كون الانتساب للطريق والاتشراح بما فيها من فضل الله من غير عمل اوقصده بالعمل من الضلال المبين

٨ — كون التنافر بين الطرقيين محض جهل من شخصياتهم وتحاسد منهم على متاع الدنيا وزخرفها

٩ — كون سلوك الطريق لغرض دنيوي او أخروي حرمانا وانقطاعا

١٠ — كون سلوك الطريق بالقصد الصحيح غير واجب شرعا وانما هو واجب

نظرا كحاجة المريض للطبيب والظمآن للماء . لان المؤمن المشفـق على نفسه من هول المعاد مضطر الى استعمال الوسائل الدينية الموافقة للكتاب والسنـة للسيطرة على النفس وتوجيهها نحو وجهة واحدة وهي التزكية التامة بالفرار الى الله جلة وتفصيلا

١١ ـــ كون الطريق بهذه الصفة وجهة المقصود منها تنميـة الايمان وترقيتـه . فلا يسوغ لاربابها نشرها بكل وسيلة من وسائل الاحتيال ودعوة النـاس اليها من بر وفاجر . بل تبقى سبيلا موقوفا على أرباب القصد الصحيح والعزيمة الثابتـة في الاسراع الى مغفرة من الله

واذ وافقناهم على هذه النقط الائتلافية فهلا وافقونا من جهتهـم على كون الطرق من وجهة صدقها طرقا صوفية المبدا صحيحة الاصل بحذق ما ابتدعه فيها المبتدعون وأن شيوخها رجال واصلون تمتعوا بمشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم يقظة وتلقـوا عنه ترتيب هذه الاوراد والاذكار المؤسسة على التقوى والتوبة والانابـة كما تقدم معنا في المباحث السالفة

فإن وافقوا على هذه النقطة الاختلافية فليس القصد من موافقتهم الكف عن انكار ما أنكروا وأنكرنا من بدع المبتدعين وضلالات الدجالين . وانمـا القصد من الموافقة الكف عن الانكار على المشائخ الصادقين المؤسسين للطرق باخلاص وصدق وولاية لاسيما الاموات منهم . والكف عن الانكار على من اتبع أثرهم في هـذا الوقت اتباعا موافقا للكتاب والسنة واستثناؤهم دائما وان كانوا الاقل من طوائف الابتداع التي هي الاكثر طبعا « وقليل من عبادي الشكور »

إخماد النار المشتعلة في «المنار»

« ولكنني ما عاديته ولا اعاديه لانه خالفني في هذه المسألة وهو لا يعاديني كذلك . وهذا هو الواجب على كل مسلم فقد نهينا عن التحاسد والتباغض والتدابر وامرنا ان نكون إخوانا . ولم يشترط المرشد الاعظم صلى الله عليه وسلم في هذه الاوامر والنواهي ان نكون متفقين في كل مسألة لان هذا من المحال (تأمل) فاتقوا الله ايها المسلمون في انفسكم وليعذر بعضكم من يخالفه وان جادله فليجادله بالتي هي احسن ولا يجعله اقل من اهل الكتاب الذين نهينا أن نجادلهم إلّا بالتي هي أحسن إلّا الذين ظلموا بالحرب والقتال ولا كلام لنا مع أهل السفه والطيش والاضلال » . (المنار ص ١٥٢ ج ٢ م ١٣)

حصل خلاف بين جماعة من المسلمين ببلاد سنغافورة من أقصى الهند في جواز لعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وعدمه فقال قوم به ومنع الاخرون وأنت ترى ما في المسألة من الحرج والضرر في الدين لانها تمس قدر صحابي من أكابر الصحابة رضي الله عنهم . فألف زعيم مجيزي اللعن كتابا في نصرة مذهبه بعد ما كاتب صاحب « المنار » في شأنه ونصحه هذا بأن لا يفعل . ولكن بعد فعله هذا وتأليفه للكتاب وطبعه ونشره الذي يعتبر إذاية للرسول صلى الله عليه وسلم بإذاية كاتب وحيه رضي الله عنه سئل صاحب « المنار » ثانيا عن رأيه في الكتاب ومؤلفه فأجاب بما رسمناه أعلاه . وهو كلام المقصود منه حث المخالفين في المسائل الاجتهادية على ان لا يتعادوا ويتباغضوا . وهو كلام جميل وجيه . ولكن المتأمل في هذا التصريح الجميل الوجيه مع مبتدع قد تحامل على سب ولعن أحد الصحابة الكرام يندهش طبعا من تحول النوايا والاقوال لما يطالع

ما كتبه صاحب «المنار» نفسه عن ولي الله الصالح والامام الحجة أبي العباس أحمد التجاني رضي الله عنه ويرى ان التلاعب من الساسة في مختلف مواقفهم الرسمية مع تباين المصالح أقل خداعا واعتسافا من احكام هذه النار المتقدة في «المنار»

لو كان الاسلام قائما بالعنف والشدة وتمزيق الاعراض بالالسنة والاجسام بالسيوف والاسنة ، وهو الامر الذي ينكره صاحب «المنار» ويكاد يلتهب غيظا كلما سمعه من اعداء الاسلام ، لما قامت الملة السمحة قائمة في الدنيا . بل قام الاسلام بحسن القول واقامة الحجة وتبيين سبل الهدى . ولم يعمل السيف بين يديه إلّا للمناضلة والدفاع ، وهي دعوى صاحب «المنار» ونوافقه عليها . بل وقع النهي من العزيز الجبار عن شتم الاوثان والاصنام ومجادلة الاغيار عن الدين بسوء القول وشر الالفاظ . وما ذلك بخاف عن تلميذ الاستاذ عبده فنلتزم له بالنقل والسرد . وانما نقول له متى سمحت الشريعة الاسلامية ومنطوق الكتاب والسنة وحتى في موقف المناضلة لمسلم أن يثلب عرض مسلم . او يرد على مسلم او كافر بأقبح رد (١) فضلا عن ان يصف أخاه المسلم بصفات الكفر والاشراك والضلال (٢) ان العمل بعلوم الشريعة حجة العامل . واما الذي يتنكب عنها بعدم العمل بها صراحا و يستعمل مخالفتها سلاحا ضد المشكوك في مخالفته لها كفاحا فليس عمله عمدة . بل هو هباء في هواء . ضرره قد أباد نفعه . وشره أهلك خيره

فكيف والحال أن التلميذ بالازهر المسمى بمحمود محمود قد استشاط غيظا بنكرانه على الطريقة التجانية وهو مطموس البصيرة فكتب مقالة الى صاحب «المنار» المشهورة دعواه في الزعامة على الارشاد والاصلاح وارجاع المسلمين الى الدين الحق الذي ارتآه باجتهاده — والمجتهد قد يخطئ وقد يصيب — فلم يتروا إذاعها ونشرها مجترئا في الصحيفة ٧٤٩ من الجزء العاشر من المجلد السادس والعشرين الصادر في رمضان عام ١٣٤٤ هجرية . ولم تحتو هذه المقالة الرهيبة إلّا على محض الانكار الذي لم يخل منه زمان ولا مكان . وطالما ألفناه منصوبا على أهل الصلاح والفضل . بل إنها فاقت غيرها من النشريات الانكارية بكونها محشوة بالالفاظ الشنيعة من الشتم الذي تنقلب به المناظرات فتنا وشرورا . وهو في هذا المقام ان لم يصادف من جانب المعتدى عليهم انتقاما ورد فعل موافقا فقد تسجل على موقد ناره ومعينه بمناره في السجل الذي تقتضيه غيرة الجبار على الصالحين من خلقه بل وغيرته تعالى على العصاة منهم إن عدم التأويل في قصده

---

(١) تأمل قوله صلى الله عليه وسلم « مهلا ياعائشة فان الله يحب الرفق في الامر كله »

(٢) وتأمل قوله عليه الصلاة والسلام « اذا قال الرجل لاخيه ياكافر فقد باء به أحدهما » وقوله « ومن رمى مؤمنا بكفر فهو كقتله »

ومن جملة الالفاظ التي سطرها الكاتب المذكور أن نسب لحضرة الشيخ التجاني رضي الله عنه الابتداع والتغرير والمخالفة للدين والكذب والزور على النبي صلى الله عليه وسلم والضلال والالحاد والزيغ والعناد والتحكم في رقاب الناس والاتجار بهم وايقاد الفتنة ومقاطعة الاولياء والحمق والسقوط والانغماس في الخطيئة والغرق في الضلالة والوقاحة والاعتداء وطاعة الشيطان والطمع والجهل والنذالة . أما صاحب « المنار » فقد استعمل الشتائم لاتية . شعلة ضلالة والاشراك بالربوبية والضلال والتدجيل والبدعة ونسخ الشريعة والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم والجناية على الاسلام والمسلمين

ومن الايات القرآنية التي قصد الله بها الكافرين والمنافقين ووضعها كاتب «المنار» وصاحبه على الشيخ التجاني واصحابه رضي الله عنهم قوله تعالى « فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » . « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون » « ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » ، « قد ضلوا وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل » . « يوم يعض الظالم على يديه الاية » ، « ثم ردوا الى الله الاية »

فهذه الشعلة النارية التي اتقدت بـ « المنار » وصيرته بعد أن كان منار أمن وهدى وارشاد بركانا يقذف شواظا وسعيرا من النكر والعناد لم تكن صادرة إلا عن عنصرين . عنصر جهل بحقائق الامور . وعنصر الحكم عليها قبل الاحاطة بعلمها . ومن هذه الحيثية قد جلب رشيد رضا إلى نفسه ومناره تهمة الذهول فيما يرويه لقرائه . وقد يداخله في هذا الذهول الافتراء والتزوير فيصير نور عدالته الذي كان المؤمنون يستضيئون به في ظلمات الغي معروضا لعواصف رياح هذه التهمة . فهي تأخذه من كل جانب . وقد يخشى عليه الخمود . أو هو واقع ليس له دافع . إن لم يداركه الله بتوبة وانابة . ذلك لان قراء « المنار » يطالعون فيه دائما الفتاوي الدينية والنشريات الارشادية ضد المبتدعين والمغررين بالامة في كل عصر وصقع . وقد تقع تلك النشريات والفتاوي من المصدقين لكل ما يقال موقع القبول والتصديق . وقد يوجد في التجانيين من هذا الفريق طائفة تقرأ « المنار » وان لم يدر صاحبه بها . ولما كان هؤلاء التجانيون أدرى الناس بأستاذ تربيتهم أبي العباس التجاني رضي الله عنه وأرضاه وبتفاصيل احواله وأقواله فإن في نظرتهم الاولى لمقالة (محمود محمود) وتذييل (رشيد رضا) ثار في قلوبهم الريب العام في كل ما ينقله لهم تليذ (الاستاذ الامام) . لا لانه ثلب أستاذهم القطب المكتوم وشتمه وأكل لحمه ميتا وكذب عليه وافترى وأعان عليه من سبه وصادمه تلك المصادمة الشنيعة فقط ، بل لانهم قد تبين لهم وان ما كتبه عن الامام التجاني

عليه رضوان الله ورحمته مبني على قواعد مركبة من الجهل المحض . فأصبحت تلك الكتابة بذلك شامخة في السماء بأركان الزور ومنائر الافتراء مستمدة من عنصري الجهل بالحقائق والحكم على الاشياء قبل تصورها . فهي بركان النار في « المنار » . قد دعت كل محقق إلى الاعتقاد بأن كل ما يكتبه صاحب « المنار » على الناس سواء في ذلك الاحياء او الاموات هو من هذا القبيل . وهذا شأن مهين لسمعة المرشدين . مؤد إلى سحب العدالة عن ما به يفتون وما فيه يحكمون. فهلا تأنى رشيد حتى راجع أحوال أبي العباس أحمد التجاني رضي الله تعالى عنه وبحث فيها عن حقائق هذا الشيخ الجليل ونظام طريقته وتبين الغث والسمين منها وما يتأول منها وما لا يتأول وما يجب تفويضه وما يجدر تسليمه ؟ ...

أم من دعواه أن أشغاله اليومية لا تعطيه الوقت لهذا العمل الشاق ؟ . فالجواب أفما كان في وسعه السكوت عما لا يعلم و يدعه حتى يعلم ؟ والله تعالى يقول « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » . أو على الاقل كان في إمكانه الانتقاد من غير شتم . وتعليق أحقية الانتقاد على ثبوت نسبة المنكرات المنتقدة إلى جناب الشيخ التجاني رضي الله عنه . أما وقد ظهرت هذه النار مشتعلة في « المنار » ولم يترك موقدها لنفسه منفذا إلى الحق يصونه عند المناقشة والحساب فقد وجب علينا أن نخمد هذه النار إخمادا بتعقيب النقط التي عرض بها كاتب « المنار » وصاحبه معرض التهويل من الاحوال والاقوال التجانية . تاركين تعقيب نقط الشتم وقبيح القول للعلي العليم . ونسأله تعالى ان لا يجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا وان يغفر لمن أخص في القول والعمل لوجهه وان أخطأ وان يبلغنا من عملنا رشدا

ولترتيب موضوع المباحث يمكننا حصره في النقط الاتية

١ — تكفير فوائت الصلاة . — ٢ — زيارة الاولياء . — ٣ — فضل الشيخ التجاني رضي الله عنه . — ٤ — المدد الروحاني وحقيقته — ٥ — شطط صاحب « المنار » في الحكم على الاشخاص . — ٦ — دعوة صاحب « المنار » الى التقليد . — ٧ — كيف يتهم الميت بعد مائة عام بالتدجيل والجناية على الاسلام . — ٨ — كلمة عن فضل الله المطلق واخلاص العامل . — ٩ — استقامة الاسقم . — ١٠ — أكاذيب « المنار »

هذه هي النقط الرئيسية التي سنبحث فيها لمطابقتها للمسائل التي حشرها كاتب « المنار » في لهيبه . وهي لعمري مسائل طالما أنكرها من هو أعلم وأتقى من صاحب « المنار » على السالفين من الاخيار ولم ينفعه انكاره . لا لانه يصادم الباطل . لان الباطل يدمغه الحق . بل لان انكاره باطل . والباطل لا ينفع صاحبه في مصادمة الحق . والله من ورائهم محيط

صلاة تكفير الفوائت

ان صلاة تكفير الفوائت من الصلاة الفرضية او غيرها التي قام لها «الازهري» وقعد ودمدم و زمجر لها أصل قديم في التاريخ . وأول مدون لها هو السيد محمد غوث الله الهندي الشطاري في الجزء الاول من جواهره الخمس . فلم يبتدعها الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد التجاني رضي الله عنه ولم يأمر بها اصحابه . بل لم يصح عندنا أنه عمل بها او أمر أصحابه بالعمل بها . وانما جاء ذكرها في كتاب «الجامع» نقلا عن الجواهر الخمس . ويمكن ان الشيخ التجاني رضي الله عنه هو الذي ذكرها وتكلم عنها لصاحب «الجامع» نقلا عن «الجواهر الخمس» . ولكن هل مجرد الذكر او الكلام عن امر من الامور حجة قاطعة في إسناد ابتداع او تشريع او العمل او لامر بذلك لامر للمتكلم عنه او الذاكر له ؟

ان «الجامع» تأليف الفقيه العالم سيدي محمد بن المشري أحد أصحاب الشيخ التجاني عليه الرضوان وعنه نقل السيد بدر عبد الهادي في «النفحة الفضلية» والآفة جاءت من هذا النقل وامثاله . فلسنا بموافقين على نقل ما لم يثبت به العمل من حضرة الشيخ رضي الله عنه و يوهم المنقول اليه صحة العمل به بصحة مصدره . و «الجامع» في نفسه لم يطبع . ولم يجر به العمل عند الاصحاب لتقدم ما هو أهم منه عليه وهو «جواهر المعاني» (١) الذي تمحضت فيه إرشادات ابن سالم بتمامها . و وضع رضي الله عنه موافقته على ما فيه بخط يده في أوله وآخره . وفي وضع هذه الموافقة الاثباتية ما يدلك على صحة النسبة إليه من قول وعمل . وتعلم منه شدة تحريه رضي الله عنه في تقديم ما يوافق الكتاب والسنة لاصحابه وأتباعه غيرة منه عليهما

ولما لم ترد أخبار كيفية هذه الصلاة المكفرة للفوائت في «جواهر المعاني» الممضي بخط يد الشيخ التجاني رضي الله عنه فليس و رودها في «الجامع» العاري من هذا الامضاء والموافقة بحجة على كون الشيخ التجاني رضي الله عنه امر بها او عمل بها او قال بصحتها . ومن هنا يظهر كذب هذا الازهري وطيشه في إلصاق كل ما في كتب الاصحاب التجانيين لاسيما المتأخرين منهم بالشيخ التجاني رضي الله عنه من غير بحث ولا تنقيب بانصاف وسلامة بال . وهب ان الشيخ التجاني وافق على العمل بهذه النافلة بصفة تعبدية فهل من إنصاف المنكر ان يسرع الى رميه باعتقاد تكفير الفرائض وهو يرى بين

(١) قد تكلم بعض المنكرين في جواهر المعاني بما هو زور و بهتان وسنتعرض لرد ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

يديه الشرط لاكيد في الطريقة التجانية من المحافظة على الصلوات في أوقاتها بشروطها وآدابها (١) . انه لو كان منصفا لراعى هذا الشرط كحد حاجز للمريد التجاني دون أن يضيع صلاة واحدة في عمره . وعندئذ يعتبر هذه النافلة كتكفير لما قد يحصل سهوا لهذا المريد من تضييع سجدة أو تكبيرة او ما أشبههما من فرائضه من غير تعيين او ادراك ، بل كندامة وتوبة عما لحق عامة صلاته الفرضية من غفلة أو خلل فاته وقت تداركه كانقضاء ليال له من غير وتر لغلبة نوم او مرض وكيف يصح مع هذه الكفارة الاعتماد عليها مع إهمال الفرض كما يدعي هذا الناقم ؟ . إذ كيف يصح إهمال فريضة الصوم وتعويضها بالكفارة ؟

ذكرنا هذا على فرض ان مسألة هذه الصلاة مرت على لسان الشيخ التجاني رضي الله عنه نقلا عن الجواهر الخمس لغوث الله الهندي فوعاه عنه بعض اصحابه رضي الله عنهم بهذا التأويل . اما ولم يثبت في كتاب « جواهر المعاني » لا بتأويل ولا بغيره فهي عندنا غير ثابتة . وما دام الحق غير واضح فيها فالترد حتى يظهر الحق . وان نقلها بعض اصحابه فتبعية نقلها او اثباتها راجعة عليهم لا عليه

وانما عندنا عنه رضي الله عنه انه كان متشددا في امر الصلاة بانيا تربيته وارشاده في الطريقة على تصحيحها والمحافظة عليها وتكميل اركانها في اوقاتها بالخشوع المطلوب لها

وكان يحث فيها بعد تصحيح الاوقات الخمس في الجماعة على السنن والنوافل لاسيما صلاة التسبيح الواردة في صحيح السنة وكان يفعلها رضي الله عنه ويحث اصحابه على فعلها ولو مرة في العام

بقي علينا ان نلاحظ على غواة الاعمال ذوات الاجور الفضلية والخواص الوهبية المشغوفين بنقل كل ما يقفون عليه من الاسرار والخواص ناسبينها الى مصادر لم تثبت إلّا بالتخمين او من طريق ما يتوهمون من النقل في النقل او المنقول عنه ان هذا شأن في الدين خطير يجب التثبت له ومزيد التروي اذ لا يجمل بهم ولا بغيرهم سلوك هذا الطريق بمحض التوهم والظن والتخمين لاسيما فيما شذ عن نطاق التربية والارشاد من العبادات التي لها مقاصد خاصة في ظاهر امرها فتكون فتنة على الجاهلين المتبعين لكل غرض والمصدقين لكل ناعق

ولقد احالنا سيدنا الشيخ رضي الله عنه على الشرع ولم يحلنا على التخمين في قوله « اذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع » وكفى بذلك هداية وارشادا لقوم يعقلون

---

(١) راجع الصحيفة ١٩٤ من هذا الجزء

مسألة زيارة الاولياء

أما مسألة زيارة الاولياء وكيف أن الشيخ التجاني رضي الله عنه منع اصحابه منها منع تربية وارشاد ، فلسنا ندري لاي داع تثيرها يارشيد وأنت الرجل الذي تظاهرت بالاجتهاد والاصلاح ومحق البدع وحرضت الناس على تقليد ابن تيمية واتباع مذهبه . ونحن نعلم كما تعلم أنت أن ابن تيمية هو أول مخترع لمنع زيارة الاولياء بتلك النوايا والمقاصد الاشراكية التي انعقدت في أدمغة العامة الجاهلة . مع ان الزيارة في أصل الدين وان سلمت من تلك النوايا الخبيثة فهي لا تخرج من كونها فعلا مندوبا لا واجبا ولا مسنونا . وذلك بإجماع أئمة الامة الاسلامية . فأي داع الى إنكار منعها على الشيخ التجاني رضي الله عنه كأنه منع واجبا او مسنونا او ابتدع ضلالة يضل بها الناس ؟ وعدم انكار المسألة نفسها في جانب ابن تيمية ؟ . على ان أبا العباس التجاني رضي الله لم يمنع إلا زيارة الاستمداد والتبرك التي تثور عندها الاغراض والمقاصد السيئة . ولم يمنع ما كان لله خالصا . فقد كان رضي الله عنه يقول « زوروا في الله وصلوا في الله وأطعموا في الله » (١) . ولكن لندورة من يعرف كيفية العمل لله كان رضي الله عنه يقول « ان العامة لا تعرف العمل لله » . وسدا للذرائع منع زيارة الاولياء على متبعي طريقته مثل ما منعها ابن تيمية على عموم المسلمين . وليس له في هذا أدنى غرض في إهانة الاولياء ولا في مقاطعتهم . بل انه رضي الله عنه بالعكس كان يحث اصحابه على احترام اولياء الله مطلقا (٢) وكان في خاصة نفسه يزور الاولياء بخالص نيته لانه أدرى بمقاماتهم وأعلم بالمقصد الصادق لله في مواصلتهم وقد اشترط على اصحابه احترامهم مطلقا وتعظيم شؤونهم . بحيث ان كل من خالف هذا الشرط يعتبر عنه منقطعا . وعن تبعيته الصحيحة منفصلا

فتهويل « مذموم » بهذه المسألة ضلال محض قد أعانه عليه قوم آخرون . وخالف فيه « المنار » سنته في الاصلاح والارشاد لمقصد واحد وهو مس جناب ابن سالم رضي الله عنه واذايته . والله يعلم انها لاذاية للجناب المحمدي نفسه ومحاربة للحق تعود على مثيرها بالوبال الابدي ان لم يتداركه الله برحمته

∴

فضل الشيخ التجاني وشفوف رتبته

أما فضل الشيخ أبي العباس أحمد التجاني رضي الله عنه على ما دون الصحابة رضوان الله عليهم من الخلق وشفوف مرتبته في الايمان والتقوى والمعرفة بالله ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم فذلك أمر يعرفه الله ورسوله خاصة . ولم يصرح به

(١) راجع الصحيفة ١٩٦ من هذا الجزء . (٢) راجع الصحيفة ٢٠٢ من هذا الجزء

رضي الله عنه إلّا باخبار من الرسول صلى الله عليه وسلم له مشافهة بذلك . وهذا الاخبار لا يناقض الشريعة بحال حتى يسهل رده ما دامت الشريعة لم تقيد لاسمى مراتب الايمان بعد الصحابة شخصا معينا . ولما كان حب الافضلية الظاهرية من طباع البشرية لما جبلت عليه النفوس من الحسد والكبر والبطر وحب الحمدة والاستعلاء والرياء . فإن قام الناس جميعا لانكار هذا التصريح الصحيح على الشيخ التجاني رضي الله عنه فإنما يسلكون مسلكا طبيعيا من مسالك بشريتهم . فلم يأت لهذا «مذموم» لازهري ببدع من الانكار لان طبعه فاضح سريرته كمعينه بـ«المنار» . والتقوى درجات في الرفعة . وأكرم الناس عند الله أتقاهم . ولابد للذروة العليا من التقوى من صاحب . فإن يكن فليس ثمة إلّا ابن سالم عليه الرضوان على رغم أنف من عانـد وأنكر . والحمد لله وله الشكر والمنة حيث تفرد سبحانه بمعرفة من اتقى . ولم يكن هذا التفوق العرفاني في درجات اليقين والايمان ذا علاقة بمراجعة احد من البشر حتى يصح الاعتماد في نفيه او إثباته على مصادقة صاحب «المنار» او كاتبه لازهري . بل هو درجة عـلياء مظهرها الحقيقي من شؤون الآخرة . فالشيخ التجاني غير محتاج والحالة هذه الى مصادقة انسان على شفوف رتبته المذكورة لاطمئنان باله بما أعطاه الله وبما بينه وبين عالم الغيب من المباشرة الصحيحة . لاسيما وان الشريعة لا تحجير فيها في الافضلية بعد رتبة الصحبة على معين قبله . ولما كانت الاخرة هي مصداقها فالاخذ والرد فيها بين منكرها وبين مثبتها من قبيل العبث الذي لا يأتي بطائل . غير ان المثبت مطمئن القلب بصحة تصريحات الشيخ التجاني رضي الله عنه لانه يتحقق صدورها من عين الصدق وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

⁂

المـدد الروحـــاني

وان تعجب أيها القارئ فعجب ان يستدل هذا الرجل على عدم وجود امداد الشيخ التجاني رضي الله عنه لغيره من الصالحين قبل ظهوره الحثماني بقوله تعالى « ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقـون » . فاستنتج من ذلك ان التقوى الذي يكون به الامداد لم يحدث إلّا بعد الظهور المادي فكيف يصح للشيخ التجاني ان يمد من سبقه من العارفين وهو في حيز العدم . وهذا جهل منه مطبق باحكام الله في طيات غيوبه وانكار لوجـود الارواح في سابق لازل . وإلّا فما جوابه عن قوله تعـالى « واذ أخـذ ربك من « بـني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى « شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين او تقولوا انما أشرك آبـاؤنا

« من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » (١) . فكيف تمكن أخذ شهادة ذرية آدم واعترافهم بالربوبية قبل ؟ وقبل إتيان وقت التكليف لذواتهم المادية ؟ . ألم يسبق في علم الله القديم بقدم وجوده تفصيل الاسباب والمسببات وترتيب السنن والامدادات وعمليات الارواح وعمليات النفوس ؟ . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم « كنت نبيئا وآدم بين الماء والطين » إشارة الى هذا المبدإ الروحاني ؟ فإذا قدر الله تعالى في اسرار غيوبه بقدم الارواح وفصل ذواتها وأبرزها عالما مستقلا يستمد أدناها من أعلاها العلوم الالهية المختصة بأسرار العبودية وجعل لكل روح ذاتا تبرز عند حلول أجل ظهورها لتقوم بأحكام العبوذية ثم ترجع الى الله عند موتها . فهل « لمذموم » الازهري أو لمعينه بمناره تحكم خاص على المشيئة الربانية في تقديرها وهي كل يوم في شان ؟ . أم هو التهاون بالحق في مقام المادة المتعفنة يؤدي الى الاستهزاء بحقائق الغيب التي لا يدركها إلا الراسخون في العلم والتقوى

⁂

شطط صاحب « المنار » في الحكم على الاشخاص

فلقد تجاسرت يارشيد حتى قلت « النجاني دجال ومبتدع وناسخ لشرعة الله بشرعته » . فهل هذه الصفات الثلاث التي ألصقتها بأبي العباس أحمد التجاني رضي الله عنه تبينت لك بمكاشفة عن مباشرة لروحه لان بينك و بينه أكثر من مائة عام . أم تبينتها من أقواله وأقواله الصحيحة التي هي أساس طريقه قد تقدمت معنا في فصلها ويظهر أنك لم تطلع عليها من قبل لانك لو اطلعت عليها لما قلت ما قلت . أم أذهلك الرأي الخاص بفتنك والتعصب له فتهجمت بتلك الالفاظ الشنيعة غير حاسب لامرها عند الله حسابا . و بما ذا أيضا تبرر دعواك بكذب الشيخ التجاني في دعواه رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة وتلقي الاوراد والاذكار والبشارات عنه ألك مباشرة مع عالم المكاشفة أم لك ذوق من أذواق اليقين حتى تفرق بين أهل الشمال وأهل اليمين . فان قلت الشريعة تمنع ما ادعى . قلنا ان أتى بما يناقضها فلك صدق الادعاء . أما وهو رضي الله عنه كما رأيت من أقواله أول مدافع عن الشريعة قام يهدي الى الله تعالى و يرشد بصدق فليس ثمة لمكذبه من مجال . لان مسألة رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة مسألة خلافية عند أهل الظاهر الجامدين على أدران بشرياتهم . وعند الصالحين أمر مسلم بالمباشرة واليقين. سبيله التقوى وصفاء

(١) سورة الاعراف

السرائر ومحبة الله و رسوله . وما يجني منكر ذلك عليهم إلّا الخسران والحرمان. ولست أدري ياأيها الرشيد بأي مسوغ من الشريعة تتحامل به هكذا على أئمة الاسلام مع جهلك بأحوالهم . كما أني لست ادري كيف تقيم حضرة الشيخ التجاني رضي الله عنه بصف مبتدعة الصوفية حاطا من قدره في العلم والفصاحة ذاما له بأنه كذب مثلهم وابتدع . وأنت لم تعاشر اصحاب اصحابه ولا راجعت له علما ولا نظما ولا نثرا . على ان لنا عليك عدة حجج تدل على انك عمدا ام خطأ تستعمل سوء الظن (١) المنهي عنه شرعا في نقدك للرجال .

---

(١) وسوء الظن الذي ذكرناه المنهي عنه شرعا هو الذي يؤدي الى مس الاعراض والاذاية المنكرة لا سوء الظن الذي يمنع من الاتباع و يحث على الحذر والاحتراز من اعمال الاشخاص الدينية . وميزان هذا الصنف الاخير الوقوف مع حدود الشريعة والاستدلال بها على صحة اعمال الاشخاص بخلاف الاول فان داعيه يبعث من غير احتراز على التنقيص من اقدار الاشخاص واختلاق الشبهات في اعمالهم للتوصل الى مس اعراضهم . وكان الاولى بحسب الصنف المعاكس له عدم اتباعهم ما دام الحق غير ظاهر في جانبهم وتفويض شؤونهم الى حين ظهور الحق عندهم . ولكن لفساد في طويات هؤلاء الناس الذين عدوا انفسهم « مصلحين وسلفيين » اتخذوا اعراض المشائخ الصوفية الكبار ومن اخلص في اتباعهم العوبة يعبثون بها و يلطخونها بكل شنيع من الالقاب والاوصاف بداعي سوء الظن المنهى عنه شرعا . ولو اتبعوا سوء الظن الذي هو بمعنى الاحتراز والتثبت لامتنعوا من الاتباع وحذروا منه جهدهم على الاكثر حتى يظهر الحق من غير اعتداء على اعراض السادات السلفيين والمصلحين الحقيقيين رضي الله عنهم اجمعين . ومما يدل على فساد طويات هؤلاء الناس وضلالهم كونهم يختلقون الاسباب للتوصل الى شتم الصالحين وتمزيق اعراضهم كما ترى من فعل الكاتب بالمنار وصاحبه . من غير ان يصوروا البدع والضلالات الموجودة عند الطرقيين تصويرا شرعيا يثبتونها به على مبتدعها اولا . ثم يقطعونها من اصولها بفؤوس الشريعة ثانيا . وما وجدنا واحدا منهم تحرى هذا المسلك بنزاهة وعفاف . وهذا ما يحملنا على رد عملهم بكل كرامة معرضين عن قبولها اعراضنا عن اللغو . وما دام الخوض في الاعراض شغلهم وهدف الاصلاح الذي يبتغونه فحسبنا ما ابتغاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم خلقا حسنا من الاعراض عن الجاهلين

ومما يضحك الثكلى من افعالهم وسوء ظنهم في هذا المجال انه منذ برز بواسطة الصحف خبر وضع هذا الجزء الاول من كتاب « الابداء والاعادة في مسالك سائق السعادة » تحت الطبع وعلم عنه قيامه بنصرة التصوف الصادق —

وتستمع به لمن يعطيك المختلق اكثر ممن يعطيك الصواب . ولنذكرك في هذا

— وافراد من هؤلاء الناس الفضوليين يستعملون الاسباب للتوصل الى شتم مؤلفه والتنقيص من قدره وعد كتابه هذا من جملة الضلالات الطرقية . وذلك قبل ان يعرفوا من حقيقته ورقا ومدادا . ومنهم بعض التونسيين وبعض القسنطينيين ومنهم « كاتب كبير » ! (كما يشتهي ان يسمى) بالجزائر قال في ورقة « الشهاب » بهذه المناسبة « وما ذا يقول الكويتب سي عمر بن قدور الذي يتمذهب بألف مذهب في يوم واحد وساعة واحدة فانه نقل من مقدمة ابن خلدون ما ذكره من محاسن المتصوفة ولما وصل الى مساويهم كما تقدم جف قلمه وحال الجريض دون القريض » . والذي طالع كتابنا هذا يعلم من انشائنا كيف حشرنا مساوي الطرقيين وبدعهم بترتيب لم يأت احد أعدائهم بمثله بل ولم يأت ابن خلدون به ويتضح له كذب هذا الرجل الذي القاه عنا وعن كتابنا رجما بالغيب . وهذا طبع دنئ قد عهدناه من هذه الطائفة في تتبع رجال التصوف فيكذبون على الاحياء كما يكذبون على الاموات من غير حياء من الله ولا خجل من الحق . ولست ادري — في شريعة السلف — كيف علم الرجل اني « اتمذهب بألف مذهب في يوم واحد وساعة واحدة » وهو نفسه بعد هذه الجملة بأربعة اسطر قال « قلت الكويتب مجاراة له لاني لم اعرفه حق المعرفة » فحيث انه لم يعرفني حق المعرفة كيف تسنى له ياهل ترى الاطلاع على كوني اتمذهب بألف مذهب في يوم واحد وساعة واحدة ؟ . اليس هذا إلّا لان سوء الظن يدفع هؤلاء الناس الى تصور اسباب واوهام لم يأذن بها الله توصلا الى حك حزازات صدورهم والتشفي من اولياء الحق في ظواهرهم وبواطنهم . وليس هذا الطبع بحال من طباع رجال السلف الذين ينتسبون إليهم ويتلقبون بتبعيتهم بل اولئك رجال كانوا يدورون مع الحق حيث دار ولا يجعلون في قلوبهم غلا على احد من المومنين . ولقد يقف هذا الرجل المتحنك عند هذا الحد في الاذاية والكذب بل تعداه الى ان سلب من مؤلف « الابداء والاعادة » صناعة الكتابة وعده حسودا للكتاب وهو لم يعرفه حق المعرفة . ولم يدر حضرة الخطيب المصقع ان قلم ابي حفص الاصلع هو اول قلم كتب في انكار الخرافات والبدع والضلالات بهذه العاصمة الجزائرية مدة عامين قبل الحرب الكبرى وقراؤه كلهم وكتابه لا زالوا يتذكرون ذلك ومن جملتهم الشيخ عبد الحميد بن باديس صاحب الشهاب والشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي صاحب النجاح بقسنطينة والسيد الطيب بن عيسى صاحب الوزير والسيد حسين الجزيري صاحب البديع في تونس والسيد احمد توفيق المدني وغيرهم من علية الكتاب وجلة الاقلام

المقام بواقعة هي أقل ما صدر منك في حكمك على الاشخاص بسوء الظن

— وأعني بقلم أبي حفص لاصلع جريدة « الفاروق » الاسبوعية التي أنشأها مؤلف هذا الكتاب قبل الحرب الكبرى بعامين وكانت الجريدة الاسلامية الاصلاحية الوحيدة في شمال افريقيا . وقبل ذلك بمدة كانت جريدة « اللواء » المصرية في عهد صاحبها المرحوم مصطفى كامل باشا وجريدة « الحضارة » في عهد صاحبها المرحوم عبد الحميد الزهراوي بالاستانة ينشران « للكويتب » الفصول والمقالات الفائضة . فضلا عما كانت تنشره الصحف التونسية في ذلك الاوان الذي كان فيه « الخطيب السلفي » رهين الصمت والخمول . ولست أدري ما ذا كان يصنع اذ ذاك لاني لم أعرف من حقيقته شيئا إلّا بالسمع والسمع يحول حقائق الامور في الغالب . ولست كحضرته أحكم بالتقليد وأبرم بمحض الرجم بالغيب . إذ كيف يصح في الاذهان السليمة الحكم على شخص بدون معرفة حقيقته بأنه يتمذهب بألف مذهب في يوم واحد وساعة واحدة وأنه حسود للكتاب الخ ؟ . فالنتيجة أن الحاكم بهذا على الحي المعاصر له في وقت واحد و بلدة واحدة من غير اجتماع به ولا معرفة بحقيقته باطل الحكم فاسد الرأي مردود الحجة . وأحرى فيما ينسبه الى سادات الصوفية الاولين رضي الله عنهم من دسائس الباطنية والاسماعيلية وأنهم مجانين وخرافيون أتباع أوهام وخيال و باطل الى آخر ما رماهم به في غير ما مرة . وان ما يكتبه و يحكم به على هؤلاء الاموات منذ قرون كالشيخ الاكبر محي الدين بن العربي الحاتمي وجلال الدين السيوطي والدردير والشعراني وأضرابهم رضي الله عنهم محض قذف وسباب و زور . وهو لم يخرج في ذلك كله عن تقليد ابن خلدون وهو عاض على هذا التقليد بشدة و يكرره بركاكة في كل نكاية يريد إلحاقها بسلف الامة رضوان الله عليهم كما تعود قراء كتابته في الصحف وفي و ريقاته المسماة بـ « الاسلام الصحيح » المضطربة من أولها إلى آخرها وأبقاها فضيحة له في التاريخ وصحيفة سوداء يسأل عنها امام الديان يوم الدين ان لم يتب إليه من طغيان قلمه . فالذي يكذب على الحي الحاضر هو من باب أولى واحرى كاذب على الميت الغائب . ولولا الحرمان لما انسلخ عن طريقته الخلوتية لمجرد ما شاهد فيه من بدع الاشخاص اذ كان في امكانه ملازمتها من وجهة صدقها ولما اطاع قصور عقله في الاستدلال بامثال الاشخاص على فساد طريقه . وهذه العماية العامة هي التي غرت هذا الفريق واضلته عن مستقيم الطريق فنسأل من الله السلامة والعافية

هذا تعليق جرنا اليه بيان نقطة واحدة وهي ان سوء الظن وخبث الطوية يسوقان دائما الى الحكم على الاشخاص بدون رؤية حكما قاسيا . ولا عجب اذا استهوى

في هذا السبيل . لتدرك بها من نفسك أمثالها طول عمرك . فلقد روى لنا ثقة اجتمع بك منذ مدة قليلة بأنك قلت له « كم تدفع الدولة عندكم للجريدة الفلانية من ألف فرنك في العام » . ولما سألك عن مستند استفهامك قلت لانها كتبت في طالعتها « تعمل لسعادة لامة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديموقراطية » مع أننا نتيقن أن لهذه الجملة معنى مبدئيا لهذه الجريدة لا علاقة له بالمال ولا بالمساعدة . ولكن تبادر اليك ياحضرة الشيخ هذا الظن لوصف قام بك وطبيعة استمسكت بها في كثير من مباحثك مع من خالفك في المشرب ولو من سادات السلف السالفين

وان كانت هذه الجريدة التي ظننت فيها هذا الظن السيء لاناس قد قادوك وانبعوك ونصروك وجعلوك زعيمهم الاكبر في استعمال سوء الظن والتهجم على عباد الله الصالحين بالشتم والثلب فما هو مقدار ظنك مع غير من قلدك بل ومع من خالفك في الرأي والمذهب ؟...

ان الشيخ النجاني يارشيد امام من أئمة الاسلام العظام . سلك الطريق بنفس ما سلك به الغزالي قبله . وهو السلوك الذي كنت ترومه لما طالعت لاحياء في ابتداء أمرك و رغبت من الشيخ القاوقجي رحمه الله أن يرشدك اليه . فان أبا العباس التجاني سلك به ووصل كما وصل الغزالي وذاق ما ذاق الغزالي

— هذا الهوى زعانفة الكتاب مثل « السلاوي » و « موحد » و « الجراري » وأضرابهم كالذي أعانهم بصحيفته وكمحمد بن اليماني الناصري صاحب « ضرب نطاق الحصار » إلى مس جناب الشيخ التجاني رضي الله عنه و إذايته وبينه وبينهم ما ينيف عن مائة عام . لان طباع الذين ذكرناهم او اشرنا إليهم عنوان ما عليه إيمانهم من الضعف والوهن وما ملأ قلوبهم من الغي والضلال . ولقد سلكنا مسلكهم في ابان الصبا وطبعا ادعينا دعواهم واستطلعنا براهينهم وفهمنا فهمهم السقيم وما كنا لنشتم أحدا من الصالحين بما هم يشتمون . وانما العجب كل العجب من العلامة صاحب « المنار » مع شهرته بالمعرفة والاطلاع في فن التصوف وما كان يتحققه من تصوف شيخه الاستاذ الامام والاغاني من قبل ومن اندماجه في حزب الافاكين الشانمين . بل في الحقيقة ما تشجع هؤلاء السفهاء على التناول من عرض الامام التجاني رضوان الله عليه إلّا باشارة « المنار » وفتحه لهذا الباب بأبشع مظهر . ولهذا خصصنا الكلام معه وأظهرنا أكاذيبه كما ترى منزهين قلمنا عن التعرض لاناس لا خلاق لهم وقد دانوا بالباطل وانما القول مع الذين يعقلون . والذين يلغون هم الجاهلون . والاعراض عن الجاهلين من تعابير الايمان الصحيحة

رضي الله عنه وأكثر. وأيضا فهل من حاجة إلى تذكيرك بأن الاستاذ الامام رحمه الله كان من أبطال هذا الميدان وأنه لو لم يكن صوفيا لم يكن مصلحا لا حاجة الى ذلك بعد أن بسطته بقلمك في منارك وبينت كيف كان أستاذك وشيخه جمال الدين الافغاني رحمهما الله تعالى ملازمين للعبادة والذكر والمباشرة لاذواق الصوفية وتعاليمهم (١)

ثم ألا ترى أن حجة الاسلام في إحيائه لعلوم الدين يشير إلى طور المكاشفة ويعبر عنه بضرب الامثال ويذكر كما نشرتم في المنار «أن من أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد». وهو أبو حامد الذي طالما ترجمت له وبجلت شأنه في مجلتك. فهل تنسب نقاله هذا إلى الكذب. أم تجعل العقل حكما فتجيز لابي حامد ما تراه مستحيلا في جانب الشيخ التجاني. وتتقدم بين يدي الله فتولي من تشاء في مرتبة الولاية والصلاح وتعزل من تشاء «والله يجتبي من يشاء ويهدي اليه من ينيب»

وان كان الغزالي يشير في تصريحه السابق الى مباشرة المثال في المكاشفة فانه يشير إلى المرتبة التي هي أعلى وأدرك وأتم بقوله «ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والامثال إلى درجات يضيق عنها نطاق الناطق» (٢)

وهي التي تمحصت بها النتيجة في منارکم يا أيها الرشيد لصدق كلام الصوفية في الاخبار عن مشاهدة الارواح - بما فيها من أرواح الانبياء وغيرهم - مشاهدة حقيقية والاستفادة منها استفادة تامة. حيث ذكرتم في منارکم في مباحث الكرامات

«ورأيت أن كلام الصوفية الذي حل الاشكال يشير ويصرح بأن وراء هذه المشاهدات الخيالية والمكالمات الوهمية شيئا آخر أعلى منه وهو إدراك الارواح إدراكا صحيحا والاستفادة منها استفادة حقيقية لم يكن يعلمها الملء من قبل. وهذا شيء لا يمكن أن يعرفه إلا من ذاقه وهو جائز وان لنا من الثقة بصدق بعض المخبرين به أكثر مما لاهل هذا العصر من الثقة بأهل أوربا إذ يصدقونهم بكل شيء غريب يقطعون بثبوته وان لم يعرف دليلهم هؤلاء المصدقون» (٣)

(١) راجع الجزء العاشر من المجلد الثامن من المنار (٢) راجع الصحيفتين ٧٧ و ٨٠ من هذا الجزء والصحيفة ٥٢١ من المنار ج ٧ م ١٠ (٣) المنار ص ١٩٥ ج ٥ م ٦

فالثقة التي لكم بصدق بعض المخبرين - ولا شك انهم من الصوفية - بمشاهدة الارواح مشاهدة حقيقية هي نفس الثقة التي لنا بصدق الشيخ التجاني رضي الله عنه فيما ادعاه من مشاهدة الرسول صلى الله عليه وسلم مشاهدة تامة في حالة اليقظة والاستفادة منه استفادة حقيقية . ومزان ثقتنا به موافقة ما تلقاه عنه للكتاب والسنة . وهو لم يتلق عنه إلّا الامر بالحث على ذكر الله وعبادته باخلاص كما ترى مثالا سبق منه في هذا الكتاب (١) وارشاد الناس الى تقوى الله وطاعته ونبذ الخرافات والاوهام . وقد يمكنك ان تقول ان كثيرا من التجانيين مبتدعون ويتبعون الخرافات والاوهام ولا يعرفون من آداب الطريق ولا الشريعة شيئا مما يدل على مفهوم وظيف الشيخ التجاني في الارشاد . فالجواب ان هذا الفريق الغالب من التجانيين والذي ضل عن حقيقة ما ارشد به واليه الشيخ ابن سالم ليس بحجة على فساد هذه الحقيقة من اصلها . وإلّا لكان المسلمون الذين ضلوا عن حقيقة الاسلام حجة على فساد حقيقة القرآن . فعمليات الاشخاص في الضلال والفساد راجعة على سوء المقاصد الاساسية التي بثت في قلوبهم . والنتائج جاءت لهم وفق اصولها ، وانما الاعمال بالنيات . والمرشد السليم المقصد غير حفيظ عليها ولا الذين اتبعوه باحسان واستقامة

نعم لربما ان هذا الجور في الحكم للاشخاص وعليهم هو الذي صدك عن فهم كيفية النقد بأدب وشهامة وسلامة صدر . ولقد قلدت ولم تدرك كيفية التقليد فان في الرجال الذين تصدوا للنقد من تأدبوا بآداب الشريعة « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذئ » ، وكان قبلك منهم الشاطبي رحمه الله تعالى وقد قمت بشخصك بتصحيح « اعتصامه » . الم تراه قال عند بحثه في اعمال الصوفية

« ثم نقول — ثانيا — اذا نظرنا في رسومهم (اي الصوفية) التي حدوا واعمالهم التي امتازوا بها عن غيرهم بحسب تحسين الظن والتماس احسن المخارج لم نعرف لها مخرجا فالواجب علينا التوقف عن الاقتداء والعمل وان كانوا من جنس من يقتدى بهم ، لا ردا لهم واعتراضا بل لانا لم نفهم وجه رجوعه الى القواعد الشرعية كما فهمنا غيره . الا ترى انا نتوقف عن العمل بالاحاديث النبوية التي يشكل علينا وجه الفقه فيها . فان سنح بعد ذلك للعمل بها وجه جار على الادلة قبلناه . وإلّا فلسنا مطلوبين بذلك . ولا ضرر علينا في التوقف . لانه توقف مسترشد لا توقف راد مقترح . فالتوقف هنا بترك العمل اولى واحرى » (١)

فهلا اقتديت ايها السيد بهذا العلامة المنصف وتوقفت عن متابعة التجاني رضي

(١) راجع الصحيفة ١٦٢ من هذا الجزء (٢) الاعتصام الجزء الاول الصحيفة ٢٩٠

الله تعالى عنه بتلك الالفاظ الشنيعة . واذا لكفيت مؤنتها بين يدي الرقيب العتيد الذي هو منك بالمرصاد

∴

دعوة صاحب « المنار » الى التقليد

ومن جهة أخرى فلقد علمنا أنك قضيت عملك في « المنار » طول الامد في الدعوة الى نبذ التقليد . ولكن في تهجمك على الشيخ التجاني رضي الله تعالى عنه صرت تدعو الى تقليد ابن تيمية والانكباب على كتبه . كأن الدين ليس إلّا في ما كتبه ابن تيمية رحمه الله وكأنه وحده العارف بالكتاب والسنة. أما ما ذكرته من أن حسبك وشيعتك كتاب الله وأذكاره فان أبا العباس أحمد التجاني حسبه وأصحابه ما ذكرت . والاذكار التي لقنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تخرج عن هذه الدائرة (١) سوى أنكم تريدون أن تحصروا الدائرة بحكم العقل وتخترعوا من التضييق على الامة بما لم تصرح به الشريعة . وان كان مقصودكم سد الذرائع فليس مع أمثال الشيخ التجاني الحجة الذي هو أحد الائمة المجتهدين الذي لا يلحق غبار أثره أمثالكم وامثال شيوخكم . ولكم أن تقولوا أين علومه وتآليفه وكتبه وآثاره في الارشاد ، فنجيبكم أين كتب وتآليف وعلوم وآثار جمال الدين الافغاني ومحمد عبده رحمهما الله تعالى . فليس التآليف بحجة على غزارة العلم وندورته بل السر والنور في سريان روح الارشاد لمن صحبه او اتبع اصحابه وسار على الصدق في الاثر « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم « الحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم شيئا » الاية . فالشيخ التجاني رضي الله تعالى عنه قد خلف روحا نورانية تسري في الصادقين من المومنين سريانا يقيمهم

(١) ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة تبيانا على ان اذكار الطريقة التجانية موافقة للكتاب والسنة وليس فيها أدنى بدعة يجب شرعا محوها هو أن أعوان حكومة نجد بالحجاز المكلفين بمحاربة البدع والضلالات اقتحموا الزاوية التجانية بباب السلام من الحرم النبوي على صاحبه افضل الصلاة والسلام مساء يوم جمعة والاخوان التجانيون يذكرون الوظيفة جماعة جلوسا بكل سكينة ووقار وأدب . فجلسوا أمامهم يراقبون عملهم حتى اتموها وشرعوا في الهيللة الى ان اكملوها فقالوا لهم ليس في ذكركم بدعة نمنعكم منها فلازموا عملكم فأنتم الذاكرون حقا . ولقد دخلوا على الرفاعيين وغيرهم من اصحاب الطرق الاخرى فوجدوهم ما بين راقص وراكض وناقر ومزمر فشتتوا شملهم ومنعوهم من الاجتماع بذلك الابتداع

بالدين الصحيح ومحبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . والذي يتمسك بطريقه بالشروط المشروطة من اتباع الكتاب والسنة والتوبة ولانابة يذوق بفؤاده ذوقا نورانيا يزيده إقبالا على الله وادبارا عن وساوس الشيطان

ولقد أفتيت أنت في منارك بصحة الطرق وصحة الاخذ عن المشائخ العاملين بالشرع لاسيما الذين تأيد علمهم بعملهم وورعهم وتقواهم كالتجاني وأضرابه ونص فتواك

« وأما مشائخ الطرق فمنهم العالم بالشرع والجاهل به . فإذا أرشد العالم تلميذه ومريده الى التوبة والذكر والفكر والادعية المأثورة في الكتاب والسنة الصحيحة فله أن يتخذه مرشدا ومربيا وأن يهتدي بهديه السالم من البدع » (١)

ولقد اعتبرت هدى الشيخ العالم وتفوقه في الاستقامة أتم الكرامات وأوضحها وأرضاها حيث عددتموها كرامة معنوية وقلتم فيها

« ونقول ان هذه الكرامة المعنوية لا ينكرها أحد وكلها نفع وليس فيها ضرر ولا خداع فان العلم نور لا ظلمة فيه والولي المحمدي لا يليق به التعويل على غير هذه الكرامة فان آية نبيه الكبرى معنوية والكرامة قبس من نور المعجزة كما يقولون » (٢)

والشيخ التجاني رضي الله عنه كان أشد الناس تباعدا عن دعوى الكرامات إلا ما لا طاقة له على رده ويتباعد من الخوارق جهده كما رأيت في رسالته للعالم التونسي (٣) ويصرح لاصحابه دائما بأن الكرامة الحقيقية هي الكرامة المعنوية كالمعرفة بالله والخشية له ودوام المراقبة والرسوخ في اليقين والقوة والتمكين ودوام المتابعة والفهم عن الله ودوام الثقة به والتوكل عليه وان المكاشفات الحقيقية هي ان يكاشف عن الله ورسوله يفهم كلامهما وما تضمنه من الاسرار العقلية والانوار التوحيدية فهذه المكاشفة هي التي يزداد بها معرفة ومحبة وقربا من الله تعالى

وبالطبع لا يكون أتباع الشيخ التجاني في هذه الدرجة أمة واحدة بل في باب الاختلاف يظهر الابتداع . وما تبعة الاختلاف براجعة على الشيخ ولا خاصة اصحابه الذين فهموا حقيقة مشربه في التربية والارشاد

ولقد كنا نقرأ منارکم ونذهب مذهبكم في الانكار على متصوفة الوقت ولكن

---

(١) المنار ص ٩٠٧ ج ٢٣ م ٦ — وقد نضم هذه الفتوى الصريحة في صحة الطرق من وجهة صدقها وسلامتها من البدع الى ما كتبناه في مبحث « هل الطرق غير التصوف » لتكون عمدة المسألة في صلبها . (٢) المنار ص ١٨٤ ج ٥ م ٦
(٣) راجع الصفحة ٢١٠ الرقم ٢٢ من هذا الجزء

لما أعطانا الوقت فرصة البحث فى كتب الصوفية ولاسيما كتب التجانية منها استطعنا ان نضع الانتقاد فى مواضعه من جهل جاهلي المتصوفة ومبتدعيهم ورد ارباب الحق اليه . وفعلا لم نجد للشيخ التجانى رضي الله عنه كما ترى من اقواله السابقة ومن سيرته المأثورة خطيئة يؤاخذ عليها . لانه سلفي من صالحي العهد الاول مشربا و مذهبا وتقوى وانابة . وان تأخر زمانه

ولقد وجدناه رضي الله عنه يبذل النصيحة لاصحابه باخلاص الاعمال لله والتباعد عن الاغراض الدنيوية والاخروية ولم نفتتن بعد كما لم يفتتن هو ولا اصحابه الصادقون بما أوتيه من البشرى من جانب الاخرى . بل شأنه فى ذلك الحمد والشكر كما امر رضي الله عنه وان افتتن ببشراه كثيرون . بعضهم اعتمد واتكل وجعل البشرى غرضا فخسر . و بعضهم انكر البشرى وعدها كفرا واعلن على الحق حربا وساء ما يصنعون

و بمجرد ما سلكنا طريقته المثلى سهلت علينا التكاليف الدينية الفرضية والنفلية . ووجدنا لها حلاوة في الفؤاد وانضحت لنا حدود التوبة والانابة . وشعرنا بزيادة الايمان كل وقت زيادة محسوسة . لاسيما في اثناء الصلاة والذكر بالحضور الموصى عليه من جناب الشيخ رضى الله عنه

و بذلك فهمنا حقيقة التربية وما يراد بها فى الطريق . واستطعنا ان نحفظ اللسان والبنان من الخوض فى القيل والقال وكثرة السؤال . و بالجملة اقتبسنا انوارا لم نكن نعهدها من قبل ولا نستطيع التعبير عنها بحال . اذ مظهرها لا يكون إلّا للمعاد . وهى داعية الى ما يلزم من الاستعداد للرحلة والمآب

وفى ضمن هذا التنقيب اتضح لنا غلط المنكرين حيث انهم يؤاخذون ارواح المشائخ الاتقياء الابرياء بجنايات شخصيات اتباعهم المجرمين

هذه هى الروح الارشادية النورانية التى خلفها ابو العباس احمد التجانى رضى الله عنه فى اتباع طريقته وارشاداته الصحيحة بتدقيق . وذلك بسر متابعته رضوان الله عليه لشريعة الرسول صلى الله عليه وسلم وتمكنه من محبة الله ومحبته حتى صار الله ميسرا عليه وعلى اتباعه بصدق السير باخلاص وتوفيق المتزجين بالخشية والانابة فنبغ منهم العارفون وكبار المرشدين كالشيخ المجاهد ابي حفص عمر بن سعيد الفوتى امير السودان الذي اشتهر امره بنشره لدين الاسلام فى انحاء افريقيا الغربية والذي قال عنه « بونى موري » « انه ذهب الى بلاد هوسة واخذ يعظ الناس بالرجوع الى عقيدة السلف و يطعن فى تساهل القادرية » (١)

(١) L'Islamisme et le Christianisme par G. Bénet Maury.

وتقد له عندئذ ترجمة حافلة ختمها بمقابلة سياسية عجيبة (١) تعطي شأنا واي شأن للتجانية في التاريخ والحق ما شهدت به الاعداء (٢)

***

كيف يتهم الميت بعد مائة عام بالتدجيل والجناية على الاسلام

ولقد كبرت كلمة تصدر منك يارشيد أن تقول « ان الدجال التجاني بل الجاني على الاسلام والمسلمين وأمثاله من المتصوفة الخرافيين قد رأوا دعوى الكرامات أنجح الوسائل لتأسيس المجد الدنيوي أي الجاه الذي هو ملك القلوب والمال

(١) راجع الصحيفتين ٢٧٦ و ٢٧٧ من الجزء الاول من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » في تعليق الامير شكيب ارسلان . (٢) ولتوضيح مقام الشيخ ابي حفص عمر الفوتي رحمه الله تعالى في الدين والعمل بالشريعة تحققا وتخلقا نثبت هنا سبب قيامه للجهاد ونشر الاسلام بين السودان الوثنيين لتتضح روح التربية التجانية لمن يجهلها نقية من كل ما يرميها به المفترون . فقد روى الثقة العلامة أبو العباس احمد بن محمد بن العباس العلوي الشنجيطي فيما كتبه الى اخوانه بالمغرب ان الشيخ عمر رضي الله عنه شيخ علم وتعليم وتربية له مريدون عديدون سكن بهم في خلاء من الارض لم يسكن احد قبله يعلمهم الظاهر والباطن كليهما ويذكرهم ويعظهم صباحا ومساء بالموعظة والحكمة ويربيهم بالنظرة واللقمة قد تكفل بكسوتهم ونفقتهم . سمعته مرة يقول أقل ما يخرج من بيتي للاضياف في كل ليلة قبل هذا الجهاد خمسمائة مائدة وأقل ما يكون في المائدة الواحدة قرى خمسة اضياف . ولم يزل هذا حاله الى ان وقع عليه الكفار . قال لي رضي الله عنه وقع علينا الكفار ولم يكن لي حينئذ اذن صريح في جهاد الكفار من جانب الحضرة الالهية وانما لي اذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الشيخ التجاني رضي الله عنه بالدعوة والارشاد الى الله تعالى وأخبرت بعد ذلك من طرق شتى بعضها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعضها من الشيخ التجاني رضي الله عنه ويامرونني بالجهاد ولم أقبل حتى وقع علينا الكفار فأخذت الاذن من قوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » . فأنجز الله تعالى وعده وهزم الاحزاب وحده . وبعد ذلك أعلمني الله بعد العشاء ليلة الاثنين العشر بقين من ذي القعدة الحرام عام ١٢٦٨ بأني مأذون في الجهاد بهاتف رباني يقول لي أذنت في الجهاد ثلاث مرات . فكان ما كان من أمره فيه لم يكن الخط هنا يفيه

الذي هو ملك الاعيان فتوسلوا بها ! .... » . أفما كان من إيمانك واعظ يصدك عن كتابتك هذه القولة الشنيعة السيئة التي لا يرضاها الله أن تقال في الفاسقين من غير تبين فما أدراك بتطبيقها على إمام حجة وسلفي صالح ومرشد أمين هو أحب إلى الله منك وأقرب وأتقى ؟...

وتأمل يا أيها الجاني ببشاعة الالفاظ التي ليست من متاع المؤمنين في هيئة الشيخ التجاني رضي الله عنه تجاه الجاه والمال (١) وتأمل هيئتك وكيف تسعى منذ ظهورك بكل وسيلة وراء الجاه والمال. ولولا شدة تشبثك بالجاه والمال لما تلقبت بـ « السيد » ولما حاربت الخلافة الرسمية في إبانها بتلك الدسائس التي ذهبت بها من الاوطان العربية خدمة لمصلحة حاكمة الاحرار التي لا تغيب الشمس عن املاكها . فها أنت تنشد الخلافة الآن فلم تجدها فخلدتها في الاوراق والدفاتر ولم يبق لك شغل إلا تكفير منكر مشروعيتها في عين انعدامها . وما كنا لنتتبع كل ما صنعت ونرفع عنه الستار لان ذلك نعتبره فضولا وكشفا لعورة مسلم من إخواننا في الدين ، غير أننا نبهذك الى ذلك في مقابلة قولتك الشنيعة هذه في حق الشيخ التجاني رضي الله عنه صاحب الهمة السامية والزهد الكامل . فما كان رضي الله عنه ليرضى بأرزاق الملوك ولا بهباتهم ولا بمهجهم لسنتهم . وانما كان قائما بوعظ الناس وارشادهم إلى الصواب من الدين . يذكرهم الله ويكرههم من ذات يده ولا يقبل منهم أجرا ولا هدية (٢) . وكان رزقه إرثا أنماه الله له لمحبته له في بلاده ومسقط رأسه . فكانت قافلته تحمل إليه ارزاقه من صحراء الجزائر إلى فاس . وكان يطعم في الله ويصل فيه

على أن أهل فاس والمغرب لم يكونوا مقبلين عليه لاقبال الذي يتطلبه عشاق الجاه . بل كان في نفسه رضي الله عنه راكنا إلى الخمول غير باث لدعوة ولا ناشر لطريق بالكيفية الداعية لجلب المال والجاه كما يفعل الدجاجلة ومن شاكلهم من متمشيخة هذا العصر . وانما كان يقبل من أمه بنية خالصة في تخليص النفس من أدران الهوى . ناصحا من استنصحه مرشدا لمن استرشده . وكان العلماء المتقربون من بلاط السلطان طلاب الجاه والمال - واسمح لي أن أقول مثل حضرتك يا رشيد - يؤذونه ويتحاملون عليه خشية على مناصبهم من أن تذهب عنهم لظهوره رضي الله عنه عليهم في العلوم والمعارف وتبرزه عليهم بالاجتهاد وعدم التقليد . لاسيما عندما أخذ السلطان مولاي سليمان بطريقته وصار يسترشده في شؤون آخرته

ولما كان رضي الله وارثا محمديا بأخلاقه وعلومه وفتوحاته نال ما قسم له من

(١) راجع الصحيفة ١٦٨ من هذا الجزء (٢) راجع الصحيفة ٢٠٠ من هذا الجزء

كالابتلاء الذي نال عظماء الرجال وكملهم . وطالما أنكر عليه المنكرون ثم رجعوا إليه خاضعين بعد أن تبين لهم الحق . وأشهرهم في هذا العصر المولى عبد الحفيظ سلطان المغرب الاقصى الاسبق حفظه الله فانه بعد مواقفه الشهيرة في دولته تجاه التجانية والتي لا زل المنكرون يحتجون بها أصبح اليوم من أساطين المحبين في الجناب التجاني المتمسكين بطريقته بل والمؤلفين في الدفاع عن حوزته (١)

ولقد تتبع ما عدد « مذموم مذموم » أزهريك في عصر الشيخ رضى الله عنه من هو أعلم منك ومن أزهريك وأكبر جاها كالذي رد عليه شيخ الاسلام أبو إسحاق ابراهيم الرياحي رحمه الله تعالى (٢) وكالشيخ البكاي الذي رد عليه علامة مراكش سيدي محمد أكنسوس رحمه الله تعالى بالجواب المسكت ورد عليه الشيخ علامة شنجيط سيدي محمد بن الصغير بالسرية والجيش وكمنكري السودان الذين رد عليهم الشيخ عمر الفوتي رحمه الله تعالى بالرماح . ومن العجيب أن هؤلاء المنكرين بأجمعهم كانوا كمحمودك لم يخرجوا عن الكلام في شأن صلاة الفاتح والزيارة وفضل الشيخ التجاني وأصحابه ولفظة لاسقم . فانك لم تأت يارشيد وكانبك الازهري بانتقاد جديد بل أتيتم بأمور فرغ فيها البحث وتم النقد والرد ومن الدليل على قلة اطلاعكما نشركما لمسائل علمها الناس وعلموا المخرج منها والحجة فيها لمن أثبت . فهذا العمل من العبث المحض الذي يهين صاحبه أمام الحق ويخجله بين يدي الحق

---

(١) وله كتاب تحت الطبع سماه « زجر المعتدي على الجناب الاحمدي » ضمنه قصيدة غراء في مدح الشيخ التجاني رضي الله عنه مطلعها

ألا هل يلذ النوم والربع شاسع * وهل عن لقاء الحب يغني التواضع

ومنها بعد أن تخلص الى مدح الشيخ رضي الله عنه

هو الكامل المشهور والغوث والذي * سنا مجده في الناس أبيض ناصع
تمده بالاسرار روح محمد * فياحبذا نهج به النور ساطع
وإياك والانكار فهو حماقة * وذو الطعن في نهج التجاني مخادع
امامي ليالي الوصل غيرها النوى * فرحماك قد جفت دموع هوامع
فلا العيش يحلو ما نأيت وماعسى * وان مكانا قد هجرت كخاشع
واني وان كنت المسيء الذي اعتدى * وحارب جهرا ها أنا اليوم طائع
فما عن قلى كان البعاد وانما * أطاع الفؤاد ما هوته المسامع

(٢) واسم كتابه « مبرد الصوارم والاسنة . في الرد على من أخرج الشيخ التجاني عن دائرة أهل السنة »

كلمة عن فضل الله المطلق واخلاص العامل

بقيت لنا كلمة في شأن ما هول به موقد النار بالمنار من دهشته من عظمة صلاة الفاتح المطلقة التي أصمته وأعمته وأبكمته وصيرته هباء منثورا ومثله بالشرق والغرب أناس خبثاء مثله اكبروا هذا الشأن فنقول لهم ولمن وازرهم على هذا الاكبار الاستهزائي الذي يريدون به تضييق دائرة الفضل الالهي ، انا واياكم لملاقون يوما عصيبا لا ريب فيه يوم يقوم الناس لرب العالمين . فقد ابتغينا ان نعبد الله على صدق في هذه الدنيا مخلصين له العمل في الاستقامة مع الشريعة والطريقة شكرا له تعالى وقياما بواجب العبودية . فكيف الحال اذا ارتفع الغطاء وكشف عن ساق . ومن هو المغبون اذا قدم المتاع ووقفنا جميعا في صف المحشر . فان كان ما صدقنا به في الدنيا واقعا حقا فأينا صاحب الندامة الكبرى ؟ وان لم يقع فأينا المفلس ونحن قد قدمنا العمل لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته لا لقصد ثواب او فضل ؟ (١)

∴

استقامة لاسقم

أما لفظة لاسقم واتخاذها دليلا على كون صلاة جوهرة الكمال ليست من املاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشيخ النجاني رضي الله عنه يقظة فأساس واه ودعوى باطلة . فلقد انتقد هذه اللفظة كثير من مغروري العلماء و رد عليهم جهابذة الطريق بما أعجزهم وهزم جمعهم . ومنهم الشيخ النبهاني في الاخرين الذي رد عليه العلامة اللغوي أحمد بن الامين الشنجيطي برسالة « الرد المحكم على منكر لاسقم » . وفيها ساق الادلة اللغوية على كون لاسقم لفظة فصيحة لا يتوقف في فصاحتها إلّا من لا معرفة له بمقاييس كلام العرب . وقد قسم في هذه الرسالة وجوه الاعتراض الى ثلاثة — ١ — ان اسم التفضيل لا يصاغ إلّا من الثلاثي المجرد على المشهور — ٢ — ان هذه الكلمة توهم انتقيص في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لانها بمعنى الاخس او الاضعف — ٣ — ان المألوف حذف الزائد وابقاء الاصل والاسقم أصل فعلها استقام والالف التي هي عين الفعل منقلبة عن واو فكان ينبغي ان تبقى لانها اصل وتحذف السين لانها زائدة . وقد اجاب عن الاشكال الاول بأن اسم التفضيل يجوز صوغه من الثلاثي المزيد فيه وهو ظاهر كلام ابن مالك في التسهيل ونقله الرضى عن الاخفش والمبرد كما في كفايته

(١) راجع الصحيفة ١٩٨ الرقم ٢٧ والرقم ٢٨ من هذا الجزء

« وقال صاحب الوافية انه يجوز صوغه من الثلاثي المزيد فيه وأن ذلك غير الغالب . وقال المرادي يجوز صوغه من الثلاثي المزيد فيه قياسا مطلقا . وهو مذهب سيبويه والمحققين من اصحابه . وقال في شرح شواهد الرضى عند قول حسان « أرخهما للمفصل » وأرخاهما أفعل تفضيل من أرخى المزيد فيه . وهو سماعي عند قوم مقيس عند آخرين . وقال في التصريح أجاز بناءه من الثلاثي المزيد فيه الجاري مجرى المجرد ابن السراج وطائفة . واستقام ثلاثي مزيد فيه جار مجرى المجرد لان الوصف منه قويم . وقال في القاموس وما أقومه شاذ . وقد اتفق لائمة على أن ما جاز في التعجب يجوز في التفضيل إطرادا وشذوذا

وأجاب عن الاشكال الثاني أن لاسقم لم ترد في اللغة بمعنى لاخس ولا لاضعف واذا كان لاسقم من السقم وهو المرض فليس فيه تنقيص لما ثبت في لاحاديث مما كان يعتريه عليه الصلاة والسلام من شدة الوعك . والتنقيص هنا لا يتوهمه أحد لان سياق الكلام السابق واللاحق قرينة صارفة وقرائن لاحوال تغني عن اللفظ . واستدل على ذلك بدلائل من كلام العرب أطال فيها

وأجاب عن الاشكال الثالث بأن لاسقم أصل فعلها استقام . فكان حق اسم التفضيل لاقوم لان الواو اصل والسين زائدة . والمعهود حذف الزائد وابقاء لاصل . قلنا هذه قاعدة أغلبية وإلا فقد حذف لاصل وأبقي الزائد في مثل أمكنة فانها جمع مكان وحق الجمع أكونة لكن حذف لاصل وأبقي الزائد . ويرجح هذا كون لاقوم تقدمت في الصلاة قريبا فلو قال لاقوم لحصل التكرار اللفظي وإنكار المعترض للتنظيرين لاسقم وأمكنة عجيب . وذلك ان الجمع يرد لاشياء الى أصولها وكذلك المزيد فيه إذا صيغ منه اسم التفضيل فهذا وجه التنظير . وهناك شيء آخر وهو أن لاسقم يجوز في أن يكون أصلها لاقوم فحذفت عينها وعوض منها السين والعوض لا يلزم كونه في موضع المعوض منه بل الغالب كونه في غير موضعه . وحشر بعدئذ لادلة الكثيرة على هذا من تصانيف اللغة المعتمد عليها

ثم ذكر في النهاية ما ذكره ابن لاثير في « النهاية » في مادة « حرج » وتحرج فلان اذا فعل فعلا يخرج به من الحرج كما يقال تأثم فلان وتحرج فلان وينتجس ومتأثم ومتحوب ومتحنث ومتلوم تعطى عكس معانيها . فعلى هذا يجوز في لاسقم معنى لاشرف أو لاقوى أو لاصح لانه مقابل لاسقم كما قال ابن سيده في المخصص . واذا جاز وقوع اللفظة الواحدة للشيء وخلافه جاز وقوعها للشيء وضده اذ الضد ضرب من الخلاف وان لم يكن كل خلاف ضدا . وقال ابن جني في الخصائص ان باب تحوب وتأثم أي ترك لاثم والحوب واسع وأهل اللغة يسمون هذا فيرونه ساذجا غفلا ولا يحسون لما نحن فيه من حديثه فرعا

ولا أصلا . وما ذاك إلّا لبعده وقلة من يعرفه

وهل بلفظة واحدة وجوهها كما ترى في لغة العرب مع جهل المنكرين بفصيح اللغة يساق الشيخ التجاني إلى صف الكاذبين ويحشر في زمرة الدجالين . اللهم ان هذا غاية ما صورت الجهالة في الافئدة ورقمت الضلالة في صحائفها من سطور النكر والعناد . وكفى ابن سالم شرفا تعداد خطيئة واحدة عليه ان كان شرف غيره أن تعد معائبه

ان يسمعوا سبة طاروا بها فرحا * مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به * وان ذكرت بسوء عندهم أذنوا

أكاذيب «المنار» الجاني على جناب الشيخ التجاني

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقيين » (١)

« ان الصدق يهدي الى البر وان البر يهدي إلى الجنة
« وان الرجل ليصدق حتى يكون صديقا وان الكذب
« يهدي الى الفجور وان الفجور يهدي الى النار وان
« الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » (٢)
« آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب واذا وعد اخلف
« واذا اؤتمن خان » (٣)
« رايت رجلين اتياني قالا الذي رايته يشق شدقه
« فكذاب يكذب بالكذبة تحمل عنه حتى تبلغ
« الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة » (٤)

إن يعلموا الخير اخفوه وإن علموا * شرا اذاعوا وان لم يعلموا كذبوا

ومن قابل مقالة « محمود محمود » وتعليق « المنار » عليها مع اقوال جناب الشيخ التجاني رضي الله عنه السابقة يستخرج من المقالة والتعليق اكاذيب كثيرة هي اقبح سلاح اتخذه المفسدون بدعوى الاصلاح . فهم يختلقون ويكذبون ويزورن ويهولون بسفاسف الامور لينشروا دعواهم بين العموم . ولبيان بعض

(١) سورة براءة (٢) و (٣) و (٤) رواها البخاري في صحيحه

لاكاذيب المشار اليها نرتب ما يأتي بناء على ما تقدم

١ ـــ قال « مذموم » في طالعة مقاله ان الشيخ التجاني « مبتـــدع » وقد يمحق هذه اللفظـة الكاذبة تصريحه رضي الله عنه (١)

٢ ـــ قال انه تصفح أكثر الكتب التي ألفها أصحاب الشيخ رضي الله عنه. ويكذبه مقاله لانه لم يذكر إلّا كتابين لمتأخرين من الاصحاب على أنه لم يطالع جواهر المعاني ولا الرماح ولا بغية المستفيد ولا الجيش ولا سريتـــه ولا العضب اليماني ولا الجواب المسكت

٣ ـــ ادعى أن الشيخ التجاني هو القائل بتكفير الصلاة الفائتة . وقد سبق التفصيل بأنه لم يكن إلّا محدثا عنها بين أصحابه بصفة لم يعط فيها أمرا كامره بصلاة التسبيح الواردة في صحيح السنة . وانما القائل بها غوث الله في الجواهر الخ

٤ ـــ زعم لافاك أن الشيخ التجاني يريد أن يقول دعوا الصلـوات واهجروها ولا تقربوها . ويكذبه قول الشيخ رضي الله عنه وعمله (٢) . وعدم اطلاعه على هذا القول والعمل يكذب قوله انه تصفح أكثر كتب الطريقة التجانية

٥ ـــ الصاقه اسناد ضلالة تكفير الفوائت بالحديث الى الشيـــخ التجـاني والامر على خلاف فعله كما تقدم معنا

٦ ـــ زعمه السفيه أن قطيعة الاولياء عند التجاني أمر مقرر . وينسفه قولـه رضي الله عنه (٣)

٧ ـــ ادعاؤه أن الشيخ التجاني ساوى رتبته مع رتب الصحابة الكرام عليهـــم الرضوان . ويهدم ادعاءه هذا من أساسه قول ابن سالم الهمام (٤)

٨ ـــ زعمه أن التجانيين « اجتمعوا مع شيخهم على الشيطـان وقالوا عليـه انه نبي الرحمن » وهو تكذيب لقوله صلى الله عليه وسلم « من رآني في المنام فقد رآني حقا فان الشيطان لا يتمثل بي » فقد عصم شخصه الشريف عليه الصلاة والســلام عن ان يتمثل به الشيطان في المنام فعصمته عن أن يتمثـــل به في اليقظة من بـاب أولى وأحرى

٩ ـــ دعواه بالجهل والكذب في شأن « لاسقم » وقد ارتفع عنها الاشكال كما تقدم

١٠ ـــ نسب إلى الشيخ التجاني النهم والجشع وعدم استطاعة الناس اطعامـــه لهذين الوصفين . وقد تقدم قول الشيخ التجاني رضي الله عنه في شـــأن الهدية و « الزيارة » و الولائم « الزرد » (٥) . على أن سفاهة كهذه السفاهة لا يليق أن تقابل إلّا باعراض الكرام لوما أن صاحب « المنار » جاراهم في الكذب فادعى

---

(١) راجع ص ١٩٧ الرقم ٢٢ (٢) راجع ص ١٩٤ الرقم ٤ (٣) راجع ص ٢٠٢ الرقم ٤٠
(٤) راجع ص ١٩٩ الرقم ٢٩ (٥) راجع ص ٢٠٠ الرقم ٣١ كلها من هذا الجزء

١ — ان الشيخ التجاني رضي الله عنه نسخ شرعة الله بشرعته . ولعمر الحق انه ليس في اعمال هذا الشيخ ولا في اقواله ما يناقض الشريعة . بل باستقامته على طريقة الشريعة كان مرشدا ونعم المرشد . و يؤكد هذا البيان قوله رضي الله عنه (١) فاتضح كذب « المنار » وافتضح بهتانه

٢ — و زعم ان الشيخ التجاني كذب على الرسول صلى الله عليه وسلم تقليدا لصاحبه . ويرد افتراءه تصريح الشيخ رضي الله عنه (٢)

٣ — وادعى ان الشيخ التجاني كان كالخرافيين من المتصوفة يطلب الجاه والمال وقد تقدم معنا ما يمحو ذلك (٣)

هذه هي الاكاذيب الرئيسية التي مزجوها بفاحش القول وسفه الرأي . وما انسحب تحتها كله كذب بما ان اصوله زور و بهتان . فلم يبق بعد إلّا الحجة الباطنة والظاهرة في جانب حجة الله الباهرة ابي العباس التجاني عليه الرضوان . وخاب هنالك المبطلون . وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون

(١) راجع الصحيفة ١٩٤ الرقم ١ والصحيفة ٢٠١ الرقم ٣٦ من هذا الجزء . (٢) راجع ايضا الصحيفة ١٩٧ الرقم ٢٢ من هذا الجزء . (٣) راجع الصحيفة ١٦٨ الرقم ٦ والصحيفة ١٩٩ الرقم ٣٠ والصحيفة ٢٠٠ الرقم ٣١ وما في حاشيته من هذا الجزء

منازل التسليم بان صلاة الفاتح كالكلام القديم وان ثوابها من محض فضل السميع العليم

ما ترك من الجهل شيئا من سلم كل ما يسمع أو كذب بكل ما يسمع . وخير الناس وأعلمهم من يستمع القول فينتقي أصدقه باستيعاب أصوله وادراك غايته . و بين الافراط والتفريط الاستقامة التي هي عين الكرامة . فمن الناس من يسمع عن حضرة الشيخ التجاني رضي الله عنه أنه قال ان صلاة الفاتح كلام الله القديم . فيدفعه حبه في هذا الجناب المقدس عن الاغراض الدنيوية أو الاخروية إلى التغالي في هذا الاعتبار حتى يحذف التشبيه الفارق بين النبوة والولاية ويقرر ان صلاة الفاتح قرآن محض مما يجعلها نبوية تامة الاتصاف . وهذا غلو يتولد عنه غلو آخر من طرف مناقض . حيث يبلغ هذا التصريح نفسه المنكر المعاند لاولياء الله تعالى فيصادم منه قلبا مستعدا لرد الفعل فتشمئز نفسه جملة بقابليتها اذ يسهل عليه كصاحبه نقض الفرق واحالة القول الى الصبغة الحقيقية التي نزل بها القرآن إنشاء وتشريعا . و بتسهل بذلك الخط من كرامة الشيخ التجاني رضي الله عنه وابطال طريقه والمأثور عنه في التربية والارشاد

وكلا الرجلين على حرف وجرف هار من الخطإ والغلط . ولو تبصر الخبير منهما عند استماع الخبر فأجراه على ما يعلم ان كان يعلم او استفتى فيه بصيرا لانصح له وان لفظة تشبيه صلاة الفاتح بالكلام الالهي القديم لا تعطي لها اعتبار القرآن عينه لفظا واعجازا ووحيا ومقاما وتشريعا . وانما تنسبها الى مصدرها الغيبي . بمعنى أنها

ليست من انشاء البشر . والمصدر الغيبي من الكلام القديم هو فيضان عام يشمل الانبياء والاولياء وغيرهم حتى الحيوان . وانما يعطي للانبياء بوصف وذوق وأحوال خاصة بهم لامر لانشائي التشريعي . ويعطي للاولياء الذكرى والبشرى والتبصر فيما جاء به الانبياء

* * *

الكلام القديم

أجمع أئمة الاسلام على أن الله تعالى موصوف بصفة الكلام . وهي صفة قائمة بذاته تعالى أزلية بلا جارحة ولا تقديم ولا تأخير ولا حرف ولا صوت

ووجود الكلام كالقدرة والارادة قائم بالخلق والامر قد تعلق بالموجودات مخاطبا لها . قد تقرر في الازل بقدمه . وصدر الى كل موجود بالخطاب الايجادي والاعدامي او الالهامي او التشريعي . في الاجل المقرر لظهوره « انما أمرنا لشيء اذا اردناه أن نقول له كن فيكون » . فقول « كن » كلام قديم أريد به الخلق . وهو متعلق بالموجودات يباشرها كلها بترتيب السنن القاضية باحداثها . وهذا القول يعمل أبديا كما كان يعمل أزليا

* * *

الوحي

الوحي لفظة عامة لالقاء القول سرا لقوله تعالى « يوحي بعضهم الى بعض زخرف « القول غرورا » . أي يناجي بعض شياطين الجن والانس بعضا سرا بغرور الكلام هذا فيما بين الخلق . وأما فيما بين الخالق والخلق فوحي الخالق لخلقه كلامه القديم تعالى ينزل اليهم بمظاهر شتى حسب مراتبهم في الاستعداد والقوى لقبول الكلام الالهي وفهمه وادراكه . « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا او من « وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء » . فوحيه تعالى للسماء « وأوحى في كل سماء أمرها » غير وحيه للنحل « وأوحى ربك إلى النحل الاية » وقوله للنار « قلنا يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم » غير قوله للملائكة « واذ « قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » ووحيه جل جلاله لام موسى « وأوحينا « إلى أم موسى أن ارضعيه الاية » غير وحيه للانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام « انا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيئين من بعده الاية »

فهذه مراتب يعلو بعضها بعضا ويتخصص فيها كل مخلوق بمرتبة تخصه لا يتعداها . فوحي الله بكلامه القديم قد شمل المخلوقات بأجمعها سيما جنس الانسان « وهديناه النجدين » . وانما تباينت النسب بتباين المراتب . وعند تخصيص المراتب ظهرت الخصوصيات في معنى تعلق المخاطب (بفتح الخاء) بالخطاب

القديم . فأنى للنحل أن يباشر في ما أوحي إليه ذوق ما أوحي إلى أم موسى مثلا ؟ وأنى أن يحيط عمر بن الخطاب ذوقا مثلا (١) بذرة مما سمعه موسى ووعاه في طور سيناء ؟

∴

القـــرآن

أما القرآن الحكيم فإنه وحي من الله وكلام منه لرسوله صلى الله عليه وسلم في أسمى مقام من مقامات الوحي التشريعي الخاص الموقوف على حضرة النبوءة فهو الكلام الازلي قد سمي قرآنا لما ظهر على ألسنة قارئيه . إذ ليس كلام الله القديم هو نفس ما يتلوه التالي له . لان ألفاظه وحروفه ومصاحفه وأصواته محدثة . وانما مفهوم هذه القراءة هو القرآن الذي هو كلام الله القديم المنزل على النبي الامي صلى الله عليه وسلم . هذا ما قاله أئمة الدين وفي قولهم هذا تسامح كما قال سيدنا الشيخ أبو العباس التجاني رضي الله عنه . إذ مفهوم قول القاري « الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان » محدث بحدوث مدلولاته التي هي الشمس والقمر والنجم والشجر . وانما هذه المدلولات هي مدلولات الكلام القديم من كونها قائمة بالاحكام الالهية المكلفة بها بكلام الله القديم كقيامها بأحكام القدرة والارادة وما تعلق بهما من الصفات والاسماء العلية . وقد قال في ذلك سيدنا الشيخ التجاني رضي الله عنه ما نصه

« حاصل الكلام مطلقا الحادث والقديم انما هو أسماء ومسميات . الاسماء هي صورة كلام المتكلم والمسميات هي مدلولات الكلام التي يدل عليها كلام المتكلم فكلام الحق سبحانه وتعالى وصف قائم بذاته لا ينفك عنها وهو عين تلك الاسماء المعبر عنها عين المسميات فالاسماء كلها قديمة أزلية لانها عين الكلام الازلي فلا يصح الحدوث فيها بوجه ولا بحال وهي في هذه المرتبة يستوي فيها القديم والحادث والمسميات التي دخلت تلك الاسماء بعضها قديم وبعضها حادث فالمسميات هي المدلولات لا يصح أن تنقل لفهم المتكلم الحادث مثلا والكلام الازلي لا يصح أن يقال أنه قرآن في حق الذات المقدسة وانما يقال فيه كلام »

« والقرآن في نفسه قال العلماء هو دال على كلام الله القائم بذاته يريدون به القرآن المقروء بألسنتنا يقولون هو دال على المعنى القائم بالذات المقدسة وهو كلام الله . قلنا هذا اطلاق تسامح وإلا فعين الحقيقة تعطي أن القرآن المقروء بألسنتنا دال على مدلول كلام الله لا على عين كلام الله فإن كلام الله في ماهيته هو المعنى القائم بالذات منظمس مضمر لا عبارة عنه ولا تدرك له حقيقة ولا تعرف له كيفية فكيف نعبر عنه لان حقيقته تابعة لحقيقة وجوده المطلق وهي الذات المطلقة المقدسة

(١) راجع الصحيفة ٢٠٢ الرقم ٣٩ من هذا الجزء

« فكما لا تعرف حقيقة الذات من حيث ما هي هي كذلك لا تعرف حقيقة الكلام لازلي من حيث ما هو هو في عين الذات العلية . فلا تدرك حقيقته ما لم تدرك حقيقتها بوجه ولا حال لا في الدنيا ولا في الآخرة . قال سبحانه وتعالى « ولا يحيطون به علما » . فكما بعد درك حقيقة ذاته العلية كذلك بعد درك حقيقة الكلام لازلي كسائر الصفات العلية من القدرة والارادة والعلم إلى آخر صفات المعاني كلها حقائقها تابعة لحقيقة وجود ذاته . فما لم تعلم حقيقة ذاته لا تعرف حقائقها . فالقرآن الذي بأيدينا دال على مدلولات كلام الله تعالى القائم بذاته، قال سبحانه وتعالى « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الارض مثلهن » أي مدلولات هذا الكلام الله هو العلم على الذات العلية الواجبة الوجود . وخلق دل على إنشاء ما بعدها من العدم إلى الوجود . وسبع دل على العدد المعلوم . والسماوات دل على القباب المرتفعة فوقنا سبعا وهي معلومة . فالكلام القائم بذاته تعالى « الله الذي خلق الخ ومدلولاته هي التي ذكرت فيه . ومعلوم في عين التحقيق أن المدلول غير ما دل عليه . لان الكلام في نفسه معنى قائم بالذات لا يصح أن يكون عين اجرام السماوات والارضين فهي مدلولات فيه . ونطقنا بهذه الاية الله الذي خلق الخ ما نطقنا إلا دالا على مدلول الكلام لازلي وهو اجرام السماوات والارضين . فدل بهذا ان قراءتنا دالة على مدلول الكلام لازلي لا على عين الكلام لازلي »

فاذا أمعنت الفكر في هذا الكلام النفيس يظهر لك جليا جهل المعاندين الزاعمين كذبا وافتراء أن الشيخ النجاني عد صلاة الفاتح قرآنا منزلا وكلاما الهيا مقدسا . وانظره كيف أعطى لكل مقام مقاله عن خبرة وادراك رضي الله عنه

⁂

كلام الله مع البشر

قال تبارك وتعالى « ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو « يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء »

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا « تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي « الاخرة »

و روى البخاري في صحيحه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قد كان « فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن « يكن من أمتي منهم أحد فعمر » (راجع الصحيفة ٦٢ من هذا الجزء)

قال القاضي ابن العربي رحمه الله تعالى في أحكامه « تتنزل عليهم الملائكة

قال المفسرون عند الموت وأنا أقول في كل يوم وأوكد الايام يوم الموت وحين القبر ويوم الفزع الاكبر وفي ذلك آثار بيناها في مرضعها

ويؤيد تصريح ابن العربي رحمه الله ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ان رجلا زار أخا له في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا فلما أتى عليه قال أين تريد قال أريد أخا لي في هذه القرية قال هل لك عليه من نعمة تربها قال لا غير أني أحبه في الله تعالى قال فاني رسول الله إليك ان الله تعالى قد أحبك كما أحببته فيه » . تربها أي تسعى في إصلاحها . قال النووي في شرحه على مسلم وفيه أن الادميين قد يرون الملائكة » (١)

وروى الامام البخاري أيضا في صحيحه في « باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن » « عن أسيد بن حضير قال بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده اذ جالت الفرس فسكت فسكنت فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكنت الفرس ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريبا منها فأشفق أن تصيبه فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال له اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير قال فأشفقت يارسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريبا فرفعت رأسي فانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها امثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها قال وتدري ما ذاك قال لا قال تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لاصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم »

فلو كانت رؤية الملائكة ممنوعة عن غير الانبياء لما قال عليه الصلاة والسلام « لاصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم »

فالذي يحصل من الايتين والاحاديث الشريفة هو أن كلام الله مع البشر لا يكون إلا من وراء حجاب وليس خاصا بالانبياء . فيكون وحيا بمعنى خاص وهو إيحاء الله لرجل اجتباه وعصمه بحكم إنشائي . وهذا أعلى المراتب وهو مرتبة النبوءة . وذوقه خاص بأربابه من النبيئين والمرسلين . وهو الكلام الالهي التشريعي الذي منه القرآن

ويكون حديثا بمعنى خاص أيضا كالحديث القدسي الذي يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل . وكالحديث الذي تلقاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرارا واليه أشار الحديث النبوي . وكالالهامات والمكالمات التي تحدث في خواطر العارفين الصافية في حضرات الاقبال . وهذا يسمى وحيا بمعنى عام

(١) راجع الصحيفة ٦٢ من هذا الجزء

وإرسال الملك وإلقاؤه مرتبة ثالثة لكنها قسمان خاص بالنبوءة وهو إلقاء أمر انشائي وحكم تشريعي . وعام وهو إلقاء الملك على الولي علما او فهما او بشارة. فالوحي والحديث والقاء الملك تنقسم إلى نوعين. نوع خاص بالنبوءة وهو الذي يجب تصديقه ومن رده فقد كفر ومن ادعاه بعد خاتم النبيئين عليه الصلاة والسلام فقد كفر باجماع المسلمين

ونوع عام يتناول منه أولياء الله ما يزيدهم تبصرة في إيمانهم وتقواهم بشرط ان يكون موافقا لشرعة الله و رسوله . ومن رده لم يكفر ان لم يرد برده ما شرعه الله و رسوله

وهم يعتبرون هذا النوع العام مشابها للنوع الخاص لا أنه عينه . وحيث أنه قد تبينت لك حدود النوعين من الايات القرآنية والاحاديث النبوية فاني في غنى عن نقل أقوالهم في هذا الباب وكفى بالكتاب والسنة تبصرة ودليلا غير اني الاحظ لك بكيفية خاصة في هذا المعنى من أن الشيء اذا شبهته بشيء لا يمكن بحال ان يكون عينه . فان قلنا « زيد كالقمر » لا يصح أبدا أن يكون زيد عين القمر. فليست المكالمة الصادرة من الغيب بواسطة النفث في الروع أو الالهام او مجيء الملك بذكرى او علم او بشرى كالوحي النازل على النبي بتشريع ودعوة عامة او خاصة . وانما الاتحاد بينهما واقع في الاصل بكونه كلام الله القديم . وتخصص الثاني بكونه إيحاء بحكم إنشائي. وبقي الاول مشابها للمدد الساري إليه منه شرعة ومنهاجا وهداية وتعريفا. لانه لو لم يحصل العمل بالتشريع النبوي والسير على منهاجه باستقامة لم يقع وصول الى ذوق المكالمة العامة . فتأمل

* * *

كيف كانت صلاة الفاتح كالكلام القديم

لقد قال الامام الحجة أبو العباس أحمد بن محمد التجاني رضي الله عنه كما في جواهر المعاني

« وأخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) أنها لم تكن من تأليف البكري أي صلاة الفاتح لما أغلق الخ . ولكنه توجه إلى الله مدة طويلة أن يمنحه صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيها ثواب جميع الصلوات وطال طلبه مدة ثم أجاب الله دعوته فأتاه الملك بهذه الصلاة مكتوبة في صحيفة من نور »

وقال أيضا

« وأما سؤالكم عن صلاة الفاتح لما أغلق الخ فانها وردت من الغيب على هذه

---

(١) في حالة اليقظة و راجع ما بسطناه فيها في مواضع متعددة من هذا الجزء

الكيفية وما ورد من الغيب كماله ثابت خارج عن القواعد المعلومة ليست من تأليف مؤلف »

فلم يصرح الشيخ التجاني بأنها عين كلام الله الموحي كما هو وصف القرآن بل قال جاءت بواسطة الملك لولي من أولياء الله تعالى فهي صادرة من الغيب ومن الحضرات التي استبد الله بعلومها « ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء » والملك لا يتنزل إلّا بأمر الله « وما نتنزل إلّا بأمر ربك الآية » . ولا يفعل إلّا ما به يؤمر « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »

فالملك لم يحمل إذا للولي إلّا ما أمر به . وما ظهر له إلّا بأمر الله تعالى. وأمر الله للملك وحي تام وكلام قديم . ولكن مظهره للولي غير مظهره للنبي كما تقدم معنا . والنبيه اللبيب يعطي لكل مقام مقال . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

وسيأتي في الجزء الثاني من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى في مبحث الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تفصيل ما أجمل في هذا المبحث . وبيان أن المدلول من صلاة الفاتح التي تنطق بها ألسنتنا هو عين صلاة الله تبارك وتعالى وملائكته على نبيه صلى الله عليه وسلم المقصودة من قوله عز وجل « ان الله وملائكته يصلون على النبي » ولذا كانت خالية من السلام كلو الآية الشريفة منه فيما يتعلق بصلاة الله وملائكته خاصة . فتأمل

* * *

الحاصل

وحيث أنه قد سبق بيان كون المكالمة الالهية مع البشر تكون بكيفيتها العامة تارة بواسطة خلق المعاني والادراكات في بال العارف (١) كما كان يحصل لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وتارة بظهور الملك وإلقائه القول مكاشحة لرائيه بصفته مبعوثا من قبل الله عز وجل كما في حديث زائر أخيه في الله وحديث أبرص وأقرع وأعمى في بني إسرائيل

وحيث أن الشيخ أبا العباس التجاني رضي الله عنه قد بين في المبحث المتقدم وأن صلاة الفاتح أتت لسيدي محمد البكري رضي الله عنه بواسطة ملك من الملائكة الكرام فليس بمستنكر تشبيهها بالكلام القديم — لا أنها عينه — لا شرعا ولا طبعا إلّا عند من يجادل بمحض تخرصات الهوى وقصور ادراك وعلم

* * *

(١) راجع الصحيفة ٢٠٢ الرقم ٣٩ من هذا الجزء

ميزان الموافقة

وحيث أن الشيخ التجاني رضي الله عنه قال « إذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع فما وافق فخذوه وما خالف فاتركوه » فان قوله « ان صلاة الفاتح وردت من الغيب بواسطة الملك » وما ينبني على ذلك من أنها كالكلام القديم يوافق قوله تعالى « تتنزل عليهم الملائكة لاية » و « ما نتنزل إلّا بأمر ربك لاية » وحديث مجيء الملك إلى زائر أخيه . ومجيء الملك إلى الاعمى والاقرع والابرص في بني إسرائيل . ونزول الملائكة على أسيد بن حضير رضي الله عنه في قراءة القرآن وغير ذلك من الشواهد الشرعية

فلم يبق بعد مع الشيخ التجاني رضي الله عنه إلّا الحق بنص الشريعة الصحيح الصريح الذي لا يقبل التأويل . وانه لحق مبين . وماذا بعد الحق إلّا الضلال فأنى تصرفون أيها المنكرون

❀ ❀ ❀

وجوه تشبيه صلاة الفاتح بالكلام القديم

و وجوه تشبيه صلاة الفاتح بالكلام القديم أربعة

الاول — كونها صدرت من حضرة الغيب . وكل ما كان من علوم المكاشفة الصحيحة فهو غيب وأحكامه خارجة عن أحكام طور المادة . اذ هنالك تمحضت الغيبية للنفوس عن طبائعها الطينية حيث يصير الرب متصرفا في سمع العبد وبصره وجميع قواه

الثاني — كونها جاءت بواسطة الملك . والملك ذات نورانية معصومة مباشر للحضرة الالهية ولا يعمل إلّا ما به يؤمر ويوحى اليه . « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » . « وما نتنزل إلّا بأمر ربك »

الثالث — كونها حوت الاسم الاعظم كفاتحة الكتاب وتفسير هذا المعنى لا يعرفه إلّا الراسخون في العلم والتقوى

الرابع — كون مدلولاتها من مدلولات القرآن وهي

اللهم	من قوله تعالى	سبحانك اللهم
صل على	»	صلوا عليه
سيدنا	»	وسيدا وحصورا
محمد	»	محمد رسول الله
الفاتح لما اغلق	»	رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل
والخاتم لما سبق	»	ولكن رسول الله وخاتم النبيئين
ناصر الحق بالحق	»	لكن الرسول والذين آمنوا جاهدوا بأموالهم وأنفسهم

والهادي إلى صراطك المستقيم (من قوله تعالى) وانك لتهدي إلى صراط مستقيم

وعلى آله	»	إلا المودة في القربى
حق قدره	»	وما قدروا الله حق قدره
ومقداره	»	وكل شيء عنده بمقدار
العظيم	»	وانك لعلى خلق عظيم

❀ ❀ ❀

سعة فضل الله في صلاة الفاتح

أما ثواب صلاة الفاتح لما أغلق الذي شرحه الشيخ التجاني رضي الله عنه لاصحابه عن لسان النبي صلى الله عليه وسلم و بينه بالحساب والمثال تقريبا للاذهان فليس المراد منه حمل الناس على الافتتان بذلك المتاع الباقي المعروض بعد أن تبين بقول الشيخ نفسه رضي الله عنه ما ينفي هذا الافتتان المزعوم (١) . وليس المراد منه أيضا حمل الناس على الامان من مكر الله وقد علم أن آكد الشروط في الطريقة التجانية عدم الامان من مكر الله تعالى (٢) . وليس المراد منه أيضا تفضيل الفاتح على القرآن بل القرآن أفضل منها حقيقة وأعظم ثوابا وأسمى مقاما إذا كان تاليه واقفا عند حدوده عاملا بشريعته كما بين ذلك قول الشيخ التجاني رضي الله عنه (٣)

واذ زيفت كل الاعتراضات التي أثارها المنكرون في هذا الباب بما ذكرنا فما ذا يبقى عندهم ان زادوا عنادا واعتراضا ؟. انه لا يبقى لديهم بما جبلوا عليه من الطبع البشري إلا الحسد والقرآن يبكتهم عليه بقوله « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » . والفضول حيث يبكتهم القرآن أيضا بقوله « أهم يقسمون رحمة ربك »

وفي النهاية لقد صرح الشيخ التجاني رضي الله عنه بذلك الثواب وعدد مراتبه وتضاعيفه الكثيرة بتلك الكيفية التي تشمئز منها نفوس الحاسدين وتنشرح صدور المتقين . وذلك بأمر من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم . فهو رضي الله عنه مجبور على تبيينه للناس ولم يخترعه اختراعا من عنديا ته . وحاشاه من ذلك رضي الله عنه فانه العارف بربه الاكبر الورع المتقي أسوأ ما يلقاه الكاذبون ولاسيما على عين الصدق صلى الله عليه وسلم . وقصارى الامر فيه بشارة صدرت من عالم المكاشفة للفريق الصادق في التعبد لله بالصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه الصيغة الخاصة من غير تشوف الى الوصول لهذا الوعد بنفس هذا العمل (٤)

---

(١) راجع الصحيفة ٢٠١ الرقم ٣٣ من هذا الجزء . (٢) و راجع الصحيفة ١٩٦ الرقم ١١
(٣) راجع الصحيفة ٢٠٢ الرقم ٣٨ (٤) و راجع الصحيفة ١٩٨ الرقم ٢٧ كلها من هذا الجزء

وليس في هذه البشارة ما يناقض الشريعة بحال ما دام مقام النبوة والصحبة في سموعن هذا المقام . وبملاحظة خاصة يجب الاعتبار بأنه لم يسبق في نصوص الشريعة تحديد حد لفضل الله العظيم . بل أطلق لفظه ومعناه في غير ما آية وحديث بإطلاق الذات العلية وكمال سلطانها وعظمة ألوهيتها . فبفضل الله ورحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون

فلقد قال تعالى « ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم »

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم على المنبر يقول « انما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الامم كما « بين صلاة العصر الى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى « تنصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطي أهل الانجيل الانجيل « فعملوا بها حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطيتم القرآن فعملتم « به حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاء « أقل عملا وأكثر أجرا قال هل ظلمتم من أجركم شيئا قالوا لا قال فذلك « فضلي أوتيه من أشاء »

فياذوي التنكيت على فضل صلاه الفاتح العجيب لما كانت خزائن فضل الله بيده لا يد أحد من خلقه مع صحة اتساعها المطلق فان تنكيتكم لا يؤثر في تضييقها بنقطة ولا ينقص من عملنا ان أخلصنا فيه نقطة وموعد الجميع الاخرة حيث مظهر الفضل الالهي الواسع ومعرض اعمال من أخلص العمل ومن أشرك لغرض . فإلى الله أسلمنا فضله وصدقنا وعده وأخلصنا العمل له . فإن أسلمتم فانتظروا إنا منتظرون

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

﴿ انتهى الجزء الاول بحمد الله تعالى من كتاب ﴾
﴿ الابداء والاعادة فى مسلك سائق السعاده ويليه ﴾
﴿ الجزء الثانى وأوله الكلام على الحمد والشكر ومواهبهما ﴾

تنبيه واعتذار

ان هذا الجزء الاول من كتابنا الابداء والاعادة قد بيضناه في التاريخ المسطر بفاتحته ومثلناه للطبع بتاريخه . ولكن بعد أن طبعنا منه نصفه تقريبا حدث ما دفعنا الى فصل النصف الاخر عنه وابقائه جزءً ثانيا وتذييل النصف المطبوع بزيادات ومباحث اقتضتها الظروف . وقد بقينا نوالي طبعه ولكن نسير سيرا بطيئا حسب ما تسمح لنا الظروف من ذات اليد والفراغ ، اذ لم نكن نصرف له إلّا ما فضل عن العمل من الوقت وما فضل عن حاجة العيال من المال . و بذلك لم نكن مدينين لزاوية ولا لشيخ ولا لمقدم ولا لاحد من الطرقيين في اعانتنا على طبعه حتى يقال انا قد راعينا فيه غرضا . او خدمنا غرضا .

وقد تم والحمد لله فنعتذر في تأخير انجاز طبعه واختلاف ارخ نهايته عن تاريخ بدايته بما ذكرنا . وسنمثل للطبع ان شاء الله تعالى الجزء الثاني عما قريب وهو حافل بالمباحث الهامة والفصول الرائقة فنستمد الاعانة على إتمامه من الكريم الفتاح

﴿ إصلاح ما في هذا الجزء من الخطإ المطبعي ﴾

وقعت بعض أغلاط مطبعية في هذا الجزء غالبها راجع الى رداءة الحروف المطبوع بها حيث لم تؤثر بالرسم حالة الطبع . وقد جعلنا هذا الجدول لاصلاح ما يتعين عليه فيلم المعنى تاركين ما سهل فهمه بالسياق والقرينة لحسن ادراك القارىء

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	٥	اسده	أسداه
٥	١٩	يهما	بهما
٨	٢٨	احكم	الحكم
٩	٧	فهم	أفهم
٣١	٤	م	أم
٥٥	٦	داخل	داخلا
٦٧	٥	تنفذ	تنفيذ
٧١	٦	يرونهم	يروهم
٧٤	١٥	نصدهم	نصدقهم
٧٤	٣٠	المتميزون	المتميزين
٨٧	٢٤	ذاهب	ذهب
٩٠	١	محمد	محمدا
١٣٦	٨	انه عنه	عنه أنه
١٦٠	٣٠	الداية	الهداية
١٦٦	٦	فاصل	فاصلا
١٩٣	٢٥	الضروبن	الضرورين
٢٠٨	١٤	ينقل له اخبارا	ـ ينقل له اعداوه اخبارا
٢٢٤	٢٣	ولقد	ولم

الجزء الثاني

عما قريب ان شاء الله تعالى سنمثل للطبع الجزء الثاني من كتاب الابداء والاعادة ، وهو حافل بالمباحث الدينية والاخلاقية والاجتماعية وأهمها ما يمس الاخلاق الاسلامية الحاضرة ما بين داعي التمدن الحديث وسالب التصوف الابتداعي . وانتقاد محدثات الامور والبدع الطارئة في كل طبقة من طبقات الامة الاسلامية . وله مع كل مبحث بيان منزع الشريعة فيه والتصوف عموما والمشرب التجاني خصوصا

وهو يقع في مجلد ليس بالصغير . ويطلب كما يطلب هذا الجزء الاول من المؤلف بالعنوان الذي يلي .

CHIKH OMAR BEN KADDOUR EL DJEZAIRY

Villa Léonie

Fort, l'Empereur, route d'El-Biar – ALGER

— ALGER —
Imprimerie FRANCK et SOLAL, Joseph SOLAL, Successeur
23, Rue Bruce

9925 *
1

VETVS &
NOVVM
TESTA-
MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
MAR.-APR. 1990
we're Quality Bound

Princeton University Library
32101 058323690